عادل الاديب

الأئمة الاثنا عشر (ع)

دراسة تحليلية

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الثالثة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

منهجية دراسة الأئمة

درج المؤرخون لسيرة الأئمة من أهل البيت (ع) على أن يستعرضوا حياتهم من خلال منهجين :

المنهج الأول :

أن يعدّوا الأئمة من أهل البيت (ع) في قائمة القادة السياسيين التقليديين الذين يحترفون العمل السياسي لتحقيق مطالب شخصية أو عائلية أو حزبية ، ويبعدوا عنهم الصفة الرسالية التي تطبع حياتهم ، ولذا فقد اعتاد هذا البعض من المؤرخين أن يصنّفوا العمليات الاجتماعية والسياسية والفكرية التي اضطّلع الأئمة بأعبائها حسب حالات الضعف أو القوة والصلابة أو المرونة وعلو الهمّة أو ضعفها في شخص أي إمام دون سواه ، هكذا كما ينظرون إلى القادة الآخرين ، ومن هنا فقد صار الإمام علي (ع) « يفتقد إلى مزايا الزعامة السياسية من بعد نظر ، ويقظة وحنكة وحزم » ، ومعاوية في نظرتهم « قد أوتي قسطاً وافراً من الحنكة واللباقة السياسية وبعد النظر » [1] وجعلوا موقف الإمام الحسن (ع) من معاوية وإبرام الصلح بينهما ، من علامات الوهن والضعف في شخصيته أو عدم تمرّسه في المسائل الحياتية الكبرى (*) ، في حين يعدّ الحسين (ع) في عرف هؤلاء ذا

---

(١) صانعوا التاريخ العربي د . فيليب حتي ص ٦٣ : ٦٩ .

(*) ـ يقول أحمد عباس صالح في كتابه ـ اليمين واليسار في الإسلام ـ ص ١٤٢ « والأغرب من هذا أن الإمام الحسن لم يقف الوقفة التي كانت مرجوّة منه ، ومهما قيل في تبرير ضعفه أو في تبرير تسليمه

شخصية تتّسم بالصلابة وعلوّ الهمة ، وقريباً من ذلك تفسر كافة المواقف الرسالية التي وقفها أئمة أهل البيت (ع) فلا تعدو أن تكون أساليبهم (ع) عبر حياتهم العملية سلسلة من الانتصارات أو الاخفاقات السياسية التي تكتنف حياة أي سياسي آخر سواهم تبعاً لعوامل ذاتية وموضوعية .

المنهج الثاني :

اعتماد عامل التجزئة في دراسة حياة الأئمة (ع) ، وهذا المنهج في دراسة « تاريخ خط الإمامة » وإن كان ضرورياً لدراسة كل إمام بصورة مستقلة ، وكان يمتاز بسلامة القصر غالباً ، إلاّ أنه يعرض حياة الأئمة كما لو كانت متباينة ومتناقضة ؛ فالحسن (ع) يهادن معاوية والحسين (ع) يتخذ الثورة موقفاً من الحكم الأموي ، والسجاد يمارس الدعاء ليس إلاّ ؛ بينما اتسمت حياة الباقر (ع) بالحديث والفقه و ... الخ ..

ولئن كانت خطورة المنهج السابق تتجلى في فصل الأئمة عن خطهم الرسالي الملتزم ، فإن خطورة المنهج اللاحق تتسم في عدم التصدي لاكتشاف العامل المشترك الذي يوحّد بين أساليب الأئمة وجهودهم منبعاً ومصباً ، ودراستهم كوحدة مترابطة الأجزاء ، يواصل كل جزء في تلك الوحدة دور الجزء الآخر ويكمّله ..

ولذا فإن مهمتنا ـ لأجل أن ندرك دور الأئمة في الحياة الإسلامية والعامل

= الثورة لمعاوية ، فإنه يعتبر خالف رسالة أبيه ، ولم يتمها .

ويقول في الحسين (ع) : « وكان الحسين مختلفاً عن الحسن ، فقد كان فيه من طبع أبيه الشيء الكثير ، ولم يوافق الحسين على شيء مما أجراه أخوه ، وكان يجادله ويعنف في جدله . ويقول الدكتور في كتابه ـ الحركات السرية في الاسلام ـ ص ٦٦ . « وبعد موت علي التفّ الشيعة حول ابنه الحسن الذي آثر العافية ، فتنازل عن حقه راضياً ، حسماً للفتنة . وبعد موت الحسن التف الشيعة حول أخيه الحسين الذي طالب بالخلافة منكراً على بني أمية إياها ملكاً موروثاً » .

ومثل هذا يقول الدكتور صبحي الصالح في كتابه النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ص ٢٦٦ .

المشترك الذي يوحّد بين مجهوداتهم في العمل الاجتماعي ـ يجب أن تنصبّ على تبيان عدة قضايا ذات صلة وثيقة بخط الأئمة في العمل الاجتماعي من أجل الإسلام :

ـ مهمة الأئمة في التاريخ الإسلامي .

ـ الخط الإسلامي الملتزم في العمل الاجتماعي .

ـ مدى انسجام الخط الإسلامي المذكور مع الحركة التغييرية عند الأئمة (ع) .

* * *

(١) مهمة الأئمة في التاريخ الاسلامي

من غير المشكوك فيه أبداً أن الرسول القائد (ص) رحل إلى جوار ربه تعالى ، وهو لمّا يستوفِ بعد المهمات التاريخية المناطة بالرسالة الإسلامية على المستوى النظري والعملي معاً ؛ فعلى الصعيد النظري لم يتسَنَّ للرسول (ص) أن يبيّن للأمة الإسلامية سوى الخطوط العريضة للتشريع الإسلامي مضافاً إليها بعض التفصيلات الفقهية لعدد من المسائل الحياتية لإنسان الإسلام [١] ـ فرداً وجماعة ـ . أما على المستوى العملي فإن الدعوة الانقلابية التي كان الرسول (ص) يباشرها لتغيير الواقع الاجتماعي فكراً وعملاً ، وإنشاء الإنسان الرسالي الجديد في فكره ومفاهيمه وأنماط سلوكه ، هذه المهمة لم تتحقق هي الأخرى للرسول (ص) حتى على مستوى مجتمع عاصمة الدولة (المدينة المنورة) فضلاً عن أقاليم الدولة الإسلامية الأخرى كما يتضح ذلك من مجموعة الأخطاء والسلبيات المتعمّدة التي طفحت على سلوك عدد من الصحابة فضلاً عن عامة الناس « إذ لم يمضِ ربع قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة والتجربة الإسلامية التي تولى جيل المهاجرين

---

(١) الإمامة في التشريع الإسلامي ـ محمد مهدي الآصفي النجف ٣٣ .

والأنصار قيادتها تنهار تحت وقع الضربات الشديدة التي وجهها أعداء الإسلام القدامى ، ولكن من داخل إطار التجربة الإسلامية لا من خارجها ، إذ استطاعوا أن يتسللوا إلى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج ، ويستغفلوا القيادة غير الواعية ، ثم صادروا بكل وقاحة وعنف تلك القيادة ، وأجبروا الأمة وجيلها الطليعي الرائد على التنازل عن شخصيته وقيادته ، وتحولت الزعامة إلى ملك موروث يستهتر بالكرامات ، ويعطل الحدود ، ويجمّد الأحكام ، وأصبحت الخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني أمية » (١) .

ومن المقطوع به أن قصر الفترة التي عاشها الرسول (ص) بين ظهراني مجتمع المدينة لم تكن فيها الكفاية لتحقيق العملية التغييرية في ذلك المجتمع ، ومن هنا فإن من بداته الأمور أن يتخذ الإسلام موقفاً إيجابياً لضمان سلامة خط سير الحركة الإسلامية التاريخية ، وصحة بناء الأمة الإسلامية وتعميق وعيها وانفتاحها على مطالب الرسالة الإلهية الخاتمة ، وهذا لا يتأتى بطبيعة الحال إن لم تعهد القيادة الفكرية والسياسية إلى أشخاص ينهضون بالدور الذي نهض به الرسول القائد (ص) ويكون لهم من المؤهلات والصلاحيات ما يمكنهم من مواصلة الحركة التغييرية التي بدأها الرسول (ص) في الأمة على الصعيد العملي ، وبيان الأحكام الإسلامية التفصيلية في الحوادث المستجدة في مسيرة الأمة على الصعيد الفكري والتشريعي ، ومن خلال هذا الوعي ينبثق خط الإمامة في الإسلام ليقوم الأئمة من خلاله بدورهم الطبيعي في دفع حركة الإسلام التأريخية باتجاه تحقيق أهدافها التغييرية الكبرى في دنيا الناس .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن خط الإمامة لم نكن لنعيه من خلال الضرورة التأريخية التي تفرضه كامتداد طبيعي للرسالة لا بد منه لحماية الاسلام والأمة فحسب

---

(١) ـ بحث في الولاية ـ سماحة السيد محمد باقر الصدر .

ولكنه إلى جانب ذلك يظل خطاً تشريعياً ذا أبعاد محددة طرحته الشريعة الإسلامية من خلال موقفين للرسول (ص) :

أحدهما : عملي تمثل في تبنيه للإمام علي (ع) منذ طفولته وإعداده إعداداً روحياً وفكرياً ليكون أهلاً لتولي مهام القيادة الفكرية والسياسية في الأمة بعد غياب الرسول (ص) ـ كما تجمع على ذلك كتب السيرة المعتبرة ـ « فقد كان النبي(ص) يخصه بكثير من مفاهيم الدعوة وحقائقها ويبدأه بالعطاء الفكري والتثقيف إذا استنفد الإمام أسئلته ، ويختلي به الساعات الطوال في الليل والنهار يفتح عينيه على مفاهيم الرسالة ومشاكل الطريق ومناهج العمل إلى آخر يوم من حياته الشريفة »[1]

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي اسحاق : « سألت قثم بن العباس كيف ورث علي رسول الله ، قال : لأنه كان أولنا به لحوقاً وأشدنا به لزوقاً » .

وروى النسائي عن الإمام ، أنه كان يقول : كنت إذا سألت رسول الله أعطيت وإذا سكت ابتدأني ، ورواه الحاكم في المستدرك أيضاً .

وقال أمير المؤمنين في خطبته القاصعة الشهيرة وهو يصف ارتباطه الفريد بالرسول القائد وعناية النبي باعداده وتربيته :

(وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا ولد يضمني إلى صدره ويكنفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرقه ، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل ... ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة) .

---

(١) المصدر السابق .

وثانيهما : فكري تمثل بالبيانات الرسمية التي أطلقها الرسول (ص) في ظروف مختلفة لابراز خط الإمامة في الحياة الإسلامية ، كحديث المنزلة « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنه لا نبي بعدي » [1] وخطبة الغدير التي جاء فيها :

« ... من كنت مولاه فهذا علي مولاه ... » [2] وحديث الثقلين « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي ، وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض » [3] .

وهكذا يفرض خط الإمامة في الحياة الإسلامية حتميته من خلال الضرورات التأريخية والشرعية ليكون متمماً لخط الرسالة فيها في الجانب النظري والعملي على حدّ سواء . وقد برزت أهمية خط الإمامة ـ بغض النظر عما ذكرنا ـ في التاريخ الإسلامي عملياً بعد الحيلولة دون مباشرته لمهامه التاريخية على نطاقين :

أحدهما النطاق التشريعي : فإن مواجهة الأمة لحاجات جديدة لا عهد لها بمثلها أيام التنزيل المبارك ، قد حتّم على ولاة الأمر بعد الرسول (ص) أن يضعوا حلولاً ويقترحوا تشريعات تحمل الجانب الذاتي في الأعم الأغلب . فالتجأوا إلى (الرأي) فيما لا نص فيه من خلال مفاهيم الإستحسان والقياس وغيرهما [4]

---

(١) المراجعات ـ عبد الحسين شرف الدين ط ٦ ١٥١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٠ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه ص٤٩ وما بعدها لمعرفة مصاذر الأحاديث من أهل السنّة « وللحديث أسانيد كثيره متضافرة ، وقد قامت دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة بطبع رسالة جامعية لأسانيده » . راجع نفس الحديث في صحيح الترمذي ٣٠٨/٢ وأسد الغابة ١٢/٢ باختلاف بسيط .

(٤) وفي ذلك يقول الشهرستاني : انا (نعلم قطعاً أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعدّ ، ونعلم قطعاً أنه لم يرد في كل حادثة نص ، ولا نتصور ذلك أيضاً . والنصوص إذا كانت متناهية ، وما لا يتناهى لا يضبط ما يتناهى ، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد) راجع سلم الوصول إلى علم الأصول ص ٢٩٥ عمر عبد الله .

التي قادت إلى تبني أحكام مخالفة لمفاهيم إسلامية أصيلة ، وقد صدرت تلك من صحابيين كبار ؛ ثم تتابع سير العملية المذكورة فأدّى إلى تحريفات خطيرة في التشريعات الإسلامية كما في العهد الأموي ، على أن هذا اللون من الاجتهاد قد تحوّل إلى مدرسة معروفة كان قوام تفكيرها « العمل بالرأي » (١) .

وقد جوبهت مدرسة الرأي برد فعل عنيف في الاوساط الفكرية مما أدى إلى ظهور مدرسة الحديث في الحجاز « والتي كانت تفضل أن تظل محافظة على المأثور من الحديث واجتهادات الصحابة والتابعين من بعدهم » (٢) . ولاعتقاد روّادها أن العودة إلى الحديث كافية وحدها لتحقيق حماية الرسالة من التمييع الذي عانته من أنصار الرأي .

وللمرء أن يقدر خطورة الموقف الذي عانت منه الشريعة وهي تعيش بين مدرستين إحداهما ذات طابع يتخذ الذاتية والرأي قاعدة له ومبرراً « دون أن تتقيّد بما يعتبره الشارع في الاجتهاد ، وكان في ذلك شيء كثير من الجرأة على الشريعة ، والتصرف بموازينها ومقاييسها التي تخرج عن متناول الفكر والرأي » (٣) .

وأخراهما : ذات طابع جامد لم تلق للحوادث المستجدة في حياة الإنسان بالاً ، وإنما تتوقف عند النصوص فحسب دون الأخذ بنظر الاعتبار ظلالها وإيحاءاتها وتطورات الحياة « والأعراض عن كل شيء ما عدا الكتاب والسنة كما يذهب إلى ذلك داود وغيره من الظاهرية » (٤) الأمر الذي يبرز أهمية خط الإمامة في الحياة الإسلامية على الصعيد التشريعي لحماية الرسالة من مزالق الاتجاهين اتجاه « إدخال عنصر الرأي في مصادره التشريعية حيث يفقد التشريع صلابته وقوته

---

(١) مجلة النجف ، إصدار كلية الفقه عدد ٨ و ٩ س ١ ص ٨٢ وما بعدها .

(٢) محمد مهدي الآصفي، في مقدمة كتاب الاجتهاد والتقليد تأليف ميرزا غلام رضا ص ٨ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٩ .

وأصالته الإسلامية التي هي من خصائص التشريع الإسلامي ، وإتجاه (مدرسة الحديث) التي ذهبت إلى تجميد الشريعة والأخذ بظاهر النصوص ، حيث أفقدت التشريع خاصيته على المرونة وقابليته لمسايرة الظروف الاجتماعية المختلفة » [١] .

ثانيهما النطاق العملي : فما كاد خط الإمامة في الحكم يقصى عن الحياة الإسلامية ويستبدل بأطروحة جديدة تحت واجهة الشورى حتى بدأ الانحراف عن الخط الإسلامي يتسرب إلى مراكز التوجيه الفكري والاجتماعي والسياسي حتى وئدت التجربة الإسلامية الأصيلة واستبدلت بحكم قبلي وراثي بدأ بتعطيل الحدود ، ومصادرة روحية الشريعة وتكدير صفائها ، وقد تجسّد ذلك بالحكم الأموي والعباسي وما تمخّض عنهما من مآسٍ وويلات ومزالق خطيرة وإبعاد للأجيال عن أهداف الرسالة وطابعها السماوي الصميم ...

وهكذا تبدو أهمية خط الإمامة كامتداد لخط الرسالة ينهض بالدور عينه الذي ينهض بأعبائه خط الرسالة على الصعيد النظري والعملي في الحياة الإسلامية ، ومن هنا تبدو كذلك أهمية الدور الخطير الذي يمارسه الإمام في الحركة الإسلامية التأريخية .

* * *

(٢) الخط الإسلامي الملتزم في العمل الاجتماعي

لعل من أكثر اهتمامات الرسالة الإسلامية العملية أن تجسّد دعوتها الانقلابية في حياة الإنسان فتغيّر ذهنيات الأفراد والجماعات ومفاهيمهم وعواطفهم وممارساتهم ، وقد تمثل هذا الخط الإسلامي الملتزم في العمل الاجتماعي في مفاهيم وخطوط فكرية وعملية شتى ، اتخذ الطابع الاستراتيجي الثابت كوجوب الدعوة

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩ : ٢٠ .

للإسلام ، ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ووجوب الجهاد من أجل حماية المجتمع الإسلامي أو توسيع دائرته . بيد أن الخط الإسلامي في العمل الاجتماعي وإن بدا ثابتاً عبر الأجيال الإسلامية بامتدادها التأريخي ، إلا أن أسلوب تنفيذه يخضع لعامل المرونة وفقاً للتطورات الحاصلة في الحياة الإنسانية ووفقاً لشكل التحديات والظروف المحيطة بالإنسان المراد إنشاؤه إنشاءً إسلامياً ، على أن من الجدير ذكره هنا ، أن هذا التنوّع في طبيعة خطوط العمل الاجتماعي التي تبنّتها الشريعة الإسلامية ، إبتداءً من الدعوة إلى الإسلام ومروراً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وانتهاءً بالجهاد وغيره ، إنما يأتي من طبيعة المهام التي يتوكل بها كل منهج ، ومن سعة الدائرة التي يمتد خلالها . ولذا كان مفهوم الدعوة للإسلام ذا مهمة خارج حدود المجتمع الإسلامي ، فمن خلال هذا المفهوم تصل الدعوة لقوم لم يتسنّ لها بلوغهم بعد ، من أجل إدخالهم إلى الإسلام والأخذ بأيديهم إلى حظيرة الإيمان ، ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعتبر الحارس الأمين الذي توكل إليه مهمة تصحيح الانحرافات وتجاوز السلبيات وترسيخ الفضائل والإيجابيات في إطار المجتمع الإسلامي (١) ، وأما الجهاد فهو العملية التي تناط بها مسؤولية الدفاع المادي عن الكيان الإسلامي أو مهاجمة قوى البغي في الأرض لإفساح المجال لوسائل الدعوة بتحقيق مهماتها التأريخية في إطار المجتمعات الإنسانية وجهاً لوجه (٢) ، وهكذا يبدو أن المفاهيم والخطوط الفكرية والعملية ذات العلاقة بالعمل الاجتماعي ، إنما تنوّعت لا كأساليب وإنما كمناهج عملية لكل منها إطاره ومسؤولياته وأبعاده ، أما شكل التنفيذ فإن صورته تتعدل طبقاً لظروف المجتمعات وتعقيداتها وظروف الثقافة في المجتمع وبناءً على التفاوت في نفسيات وذهنيات عناصر كل مركب اجتماعي . وعلى هذا الضوء فإن الداعية المسلم

---

(١) أسلوب الدعوة في القرآن ـ محمد حسين فضل الله ط ٢ بيروت ص ١٧ .
(٢) المصدر السابق نفسه ص ١١٨ .

حين يمارس عمله التغييري المكلف بالنهوض بأعبائه يجب « أن يلاحظ الواقع الخارجي للمجتمع الذي يعيش فيه ويدرس ظروفه العقلية والفكرية والنفسية ، حتى لا يكون الأسلوب المتبع لديه في العمل واحداً من حيث النوع ، بل لا بد من أن يختلف حسب اختلاف الواقع الذي تعيشه الدعوة ويعيش فيه الدين ، فإن من الواضح أن الدعوة لن تكون عملية إذا حاولت أن تساوي بين الجاهل والمثقف في طبيعة الفكرة التي تلقى والأسلوب الذي يتبع ، فإن الأدوات التعبيرية والفكرية التي يملكها كل منهما تختلف عما يملكه الآخر » [1] ، وهكذا فإن أسلوب الحكمة يقتضي أن يسلك الداعية سلوكاً حماسياً في موقف يفرض ذلك ، في حين يسلك في جوّ آخر سلوكاً هادئاً رزيناً ، كما تتطلب الحكمة أن يعرض تفاصيل الفكرة لمخاطبيه بينما يعرض الخطوط العامة للبعض الآخر ، وقد يتطلب أحد المجتمعات عملاً إصلاحياً لبعض جوانبه في السلوك العام مثلاً ، في حين يقتضي مجتمع آخر العمل الانقلابي الذي يرفض الواقع المعاش جملة وتفصيلاً ، والأصل التشريعي لمسألة اختلاف الأساليب التي يفترض أن يمارس الدعاة المخلصون عملهم التغييري من خلالها هو قوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ...) [2] حيث أن مفهوم الحكمة [3] الذي تشير إليه الآية الكريمة لم يكن سوى هذا المعنى الذي طرحناه آنفاً ، وهو تغيير الأساليب حسب ظروف الأفراد والجماعات وتعقيداتها .

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٥٠ .

(٢) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٣) راجع المعنى العام لهذه الآية (أسلوب الدعوة في القرآن) ص ٤٩ .

(٣) مدى انسجام الحركة التغييرية عند الأئمة مع الخط الاسلامي المذكور

إلى هنا نستطيع أن نقرّر إلى أيّ مدى وفّق الأئمة من أهل البيت (ع) في الالتزام بالخط الإسلامي المتبنى في العمل الاجتماعي ، وهو أمر يتسنى لنا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الأئمة (ع) يمثلون في وعينا الترجمة الأمينة الحيّة لكل متطلبات الشريعة الإسلامية وخطوطها وتفصيلاتها .. وقد عبّرت النصوص الإسلامية عن حقيقة هذا الوعي المجدد لدرجة التزام أئمة أهل البيت بمطالب الشريعة بأساليب شتى ، فهم مرة أمان الأمة (١) وباب حطة (٢) ومرة المطهرون من كل دنس والذين أذهب الله عنهم الرجس ، وأخرى سفينة نوح التي من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق وغير ذلك (٣) .

وحين يمثل الأئمة (ع) الصورة التطبيقية الحيّة للرسالة الإسلامية فإنهم والحالة هذه لا بدّ وأن يجسّدوا الخط الإسلامي المتبنى في العمل الاجتماعي الذي أشرنا إليه آنفاً من مراعاة للظروف والملابسات والتعقيدات في عالم الأفراد والجماعات كما يفرضه مفهوم الحكمة القرآني ، هذا إذا نظرنا إلى الأئمة من خلال الزاوية العقائدية ، أما على المستوى التطبيقي فإن المسألة تبدو أكثر صراحة وحدّية ، فإن المتتبع لسيرة خط الإمامة في الحياة الإسلامية يجد أن الحركة التغييرية عند الأئمة كانت تنطلق من قاعدتين :

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ج ٣ ص ١٤٩ بقوله (أهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف في الدين) .

(٢) أخرجه الطبراني بقوله (إنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٣ ص ١٥١ بقوله : « إلا أن مثل أهل بيتي فيكم ، مثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق » .

إحداهما : الالتزام الحرفي بالرسالة الإسلامية وعدم التفريط بمطلب من مطاليبها على الإطلاق .

وثانيهما : مراعاة الظروف القائمة في الأمة من الناحية السياسية والاجتماعية والعقلية ، وتبنّي الطريقة المثلى التي تكفل خدمة الرسالة والأمة على ضوئها دون أي تجاوز للمصلحة الإسلامية العليا ودون الخضوع لسياسة الأمر الواقع من بعيد أو قريب ، وهاتان القاعدتان الملتزمتان من لدن خط الإمامة تسيران في خط واحد وبعرض واحد ، فالالتزام الحرفي بالرسالة يصحبه عمل إيجابي من أجلها تحدد شكله وحدوده وأدواته الكفاحية والظروف الفكرية والنفسية والاجتماعية التي يعيشها الإنسان .

* * *

ومن الأمثلة في تاريخ الأئمة الزاهر في هذا المضمار :

بعد أن عاشت الأمة تحت وطأة الانحراف بما فيه من استعانة بالمنحرفين وغير الكفوئين في إدارة شؤون الأمة في الإدارة والقضاء وفي انتهاج مفهوم التمايز في مسألة العطاء كبديل لمفهوم التسوية في توزيع العطاء في المجتمع الإسلامي ، ومن ظهور الروح العشائرية والقبلية كقاعدة للتكريم كبديل لمفهوم التقوى الاسلامي ، يصحب ذلك التلاعب بالنصوص الاسلامية والتشريع ...

بعد أن عاشت الأمة كل ذلك وغيره من التواءات وانحرافات عن خطها الرسالي الذي بدأه الرسول (ص) ، جاء الإمام علي (ع) تحت ضغط وإلحاح الجماهير المنفعلة ليتسلم إدارة وضع سياسي واجتماعي ملغم بالعديد من التعقيدات والصعوبات ، وكان يدرك أبعاد الخطورة فيه حيث خاطب الجماهير وهي تؤلف قوة ضاغطة كبرى لتحمله على قبول الخلافة :

(دعوني والتمسوا غيري فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له

القلوب ولا تثبت له العقول ، وإن الآفاق قد أغامت والحجة قد تنكّرت) [١]

بيد أن القوم واصلوا ضغوطهم على الإمام (ع) مما جعله يستجيب لطلبهم ولكن تحت شروط لكي يمارس من خلالها وبسابق علمهم صلاحياته في إحاطة كل فكر وممارسة مناقضة لمتبينات الرسالة الإسلامية ، وهكذا ... فها هو يخاطب مرشحيه لرعاية شؤونهم بقوله :

(واعلموا أني إن اجبتكم لركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب ..) [٢]

وبعد أن بايعه الناس على السمع والطاعة تسلم مسؤولياته التأريخية في قيادة الأمة ووضع نصب عينيه المهمة الرسالية التي يضطلع بها خط الإمامة من التزام صارم بمتطلبات الرسالة يصحبه عمل تغييري من أجل تجسيدها في دنيا الناس ، تحدد شكله وأدواته الظروف الموضوعية والذاتية في الأمة .

ومن خلال هذه النظرة خطا الإمام علي (ع) خطوات حاسمة في هذا المضمار ، فعلى الصعيد الاقتصادي أعاد مفهوم التسوية في العطاء [٣] إلى الواقع العملي وتبنى مشروع إعادة الأموال الطائلة التي أغدقها عثمان على خواصّه دون مبرر [٤] ، وعلى الصعيد السياسي تبنى سياسة اقصاء كافة الولاة والإداريين الذين لا تنطبق عليهم مواصفات القيادة في المجتمع الإسلامي من التقوى والخبرة العملية في شؤون الإدارة ، بيد أن خطته الإصلاحية التي مارسها على مستوى الدولة والمجتمع جوبهت بردّ فعل عنيف من الفئات التي ألفت الاستئثار والطبقية واللامساواة في العطاء

---

(١) نهج البلاغة ، شرح محمد عبده ص ١٧٨ دار الأندلس ط ١٩٦٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٩ .
(٣) المصدر السابق نفسه ص ٢٣٦ .
(٤) المصدر نفسه ص ٥٥ .

حيث أدركت أن مصالحها في خطر من جرّاء السياسة الإسلامية الأصيلة ، وأنها لا بد لها من تحرك فوري لتدارك الموقف ، وهكذا نكث طلحة والزبير البيعة واتخذا البصرة قاعدة لتمردهم على القيادة الإسلامية تسندهم في ذلك أمّ المؤمنين عائشة حيث مثّلت قمة القيادة في هذا الانشقاق الخطير . على أن معاوية بن أبي سفيان الحاكم الأموي في الشام منذ خلافة عمر ، قد أعدّ العدّة هو الآخر تحسّباً لكل طارئ ، بيد أن الأسلوب الحكيم فرض على الإمام أن يدرس الظروف الموضوعية التي تعاني منها دولته ، وخرج بنتيجة حاسمة وهي أن الموقف يتطلب تصفية الحركة الإنشقاقية في داخل معسكره وإهمال الحركة التحريفية في الشام ــ مرحلياً ــ .

وهكذا شن حربه على خصومه في الداخل بغية إعادة الوحدة إلى الجبهة الداخلية وهكذا كان ... وقد تفرغ بعد ذلك لمهاجمة الحركة التحريفية في بلاد الشام وما استتبع ذلك من ظروف وبالرغم من أن الإمام القائد (ع) لم ينجح في إنهاء الانفصال كما فعل في إنهاء الانشقاق الداخلي إلا أنه قدّم من خلال مواقفه التأريخية دروساً ناصعة لكل الواقفين تحت الراية الإسلامية ، وأبرزها ، عدم اخضاع الإسلام لسياسة الأمر الواقع والحفاظ على صفته المذهبية الصميمة الرافضة لكل المواقف النائية عنه مهما غلا الثمن ، و تقديم الأهم على المهم في العمل الاجتماعي من أجل الإسلام .

* * *

وليكن مثالنا الآخر الحركة التغييرية في عهد الإمام الصادق (ع) . فقد تبدّلت الظروف الموضوعية في عهده (ع) تبدلاً جوهرياً إذا قورنت بالنسبة لظروف أسلافه من الأئمة (ع) مما كان سبباً حاسماً في انتهاج الصادق (ع) أسلوباً خاصاً في العمل الاجتماعي لا يشبه أساليب سابقية من أئمة المرحلة الأولى ، فالحكم يعيش مرحلة انتقالية حيث تسلّمه العباسيون بعد إسقاط الحكم الأموي المهترئ . أما على الصعيد الفكري فقد شهدت الفترة نشاطاً ملموساً للزنادقة

والغلاة ، وأما على الصعيد التشريعي فقد ظهرت مدرسة الرأي التي عانت الشريعة منها تمييعاً لحدودها ومتبنياتها الأساسية ، أما الأمة فقد وصل فيها الضمير الإسلامي إلى درجة كبيرة من الجمود والغفلة ...

هذه المظاهر وغيرها كانت تمثل عناصر بارزة في الظروف التي عاشها الإمام الصادق (ع) ، وهنا تبرز طبيعة العمل التغييري وأدواته التي ينبغي أن يسلكها الإمام (ع) في مثل هذا الواقع بشكل يحفظ الرسالة من كل مساومة وتفريط ، وهكذا سلك الإمام (ع) منهجاً ذا خطوط متوازنة :

١ ـ العمل على توعية مجموع الأمة بالاحتكاك بها بشكل دائم ومنظم .
٢ ـ إقامة مدرسة لتقديم الفكر الإسلامي الأصيل في رحابها وتخريج القياديين من الفقهاء والرواة والمحدثين ليكونوا عقل الأمة ومرجعها في التفكير .
٣ ـ الرد على الشبهات وتفنيد المزاعم الإلحادية التي يثيرها الزنادقة وجماعة الوضّاعين في الحديث مثلاً [١] .

وقد حقق الإمام (ع) نجاحات واسعة في هذا المضمار ، كما تشير إلى ذلك الأعداد الكبيرة من العلماء الذين تخرجوا في مدرسته ، بالإضافة إلى مجموع المناقشات الفكرية التي ثارت بينه وبين الزنادقة وجماعة مدرسة الرأي في العراق وغيرهم ؛ إلا أن المرحلة الانتقالية قد انتهت ورسخت قوائم الحكم العباسي فرأى في الإمام الصادق (ع) ونشاطاته الواسعة خطراً إيّما خطر على كيانه ، فوجّه الحاكمون أنظارهم نحوه حتى لاقى الإمام (ع) وأتباعه أقسى أنواع العنت ممّا جعله يمارس أسلوباً أكثر ملاءمة للظروف المستجدة تحاشياً لأي صدام واسع النطاق مع السلطة تكون نتائجه في غير صالح الإسلام والأمة ، بالنظر إلى أن الحركة الواعية التي ينهض بأعبـاء قيادتها لم تصل إلى الدرجة المطلوبة لتحمل عملية

(١) ـ يحسن مراجعة رسالتنا ـ جماعة العلماء ـ موضوع رسالتنا في عهد الإمام الصادق (ع) .

النهوض بأعباء الصراع المكشوف مع الحكم ، وهكذا اختط منهاجاً جديداً في العمل الاجتماعي يتلخص في نقطتين :

١ ـ المنهاج أسلوب الكتمان ، وهو الأسلوب المعروف بالمنطق الإسلامي بالتقيّة ، في خلق كادر منظم يمثل الجيل الطليعي في الحركة الاجتماعية التي يقودها الإمام (ع) "[١]".

٢ ـ تأييد الحركات الثورية التي قادها ثوار علويون لتحريك الضمير الإسلامي وتقوية إرادة الرفض للواقع المنحرف لدى الأمة ، ومن أمثلة ذلك ثورة محمد ذي النفس الزكيّة ، وأخيه في الحجاز والبصرة .

وقد نجح الأسلوب الجديد الذي اختطه الصادق (ع) نجاحاً منقطع النظير في تحقيق الأهداف التي أنيطت به حيث انبثقت في الأمة بالفعل حركة إسلامية رائدة تمثلت في مجموع الفقهاء ورواة الحديث وغيرهم ممن يرجع لهم الفضل في حماية الشريعة والتراث الإسلامي الخالد .

وهكذا تتجلى السياسة الحكيمة في العمل الاجتماعي لدى خط الإمامة ، على أننا نكتفي بعرض هذين المثلين ـ الحركة التغييرية في عهد الإمامين علي بن أبي طالب ، وجعفر بن محمد الصادق (ع) حيث توفر الكتاب على عرض سواها من مظاهر التنوع في أساليب العمل الإجتماعي في سيرة الأئمة الآخرين (ع) طبقاً لما تتطلبه الحكمة في العرض وبناءً على التبدلات التي تكتنف حياة الناس .

* * *

أما العظة العملية التي نستلهمها من خلال سيرة خط الإمامة في العمل من أجل الرسالة الإسلامية فتندرج تحت النقاط التالية :

---

(١) بحث في الولاية ـ للسيد محمد باقر الصدر ص ٤٥ .

١ ـ أن الرسالة الإسلامية بمتبنياتها المختلفة في الفكر والعمل ذات طابع حضاري ثابت لا تخضع للمساومات والتغيرات في دنيا الإنسان .

٢ ـ أنه يجب الفصل بين ما هو فكر إسلامي عملي وما هو أسلوب من أساليب العمل التي سلكها الرسول (ص) أو أحد الأئمة (ع) من بعده ، لأن هذا اللون من التمييز يعيننا على التخلص من ظاهرة الجمود الحرفي عند بعض المواقف التي كانت تجسّد الطريقة المثلى في وقتها وفي الظروف التي ساهمت في وجودها .

٣ ـ أن ندرك بعمق أن الأساليب العملية التي يجب تبنيها هي ذات طابع تبدلي تبعاً للظروف العقلية والفكرية والنفسية للأمة وبناءً على بعدها أو قربها من الرسالة الإسلامية من الوجهة الالتزامية وطبقاً لبعد الأمة أو قربها من السلطة الزمنية .

٤ ـ إدراك التغيرات المطّردة في حياة الناس ووعي حاجاتهم الآنية والعمل على اختيار أقرب الأساليب العملية إلى نفوسهم وأذهانهم ، فقد يصلح الوعظ والإرشاد في بيئة اجتماعية ، بينما يثمر العمل السياسي على ضوء الإسلام في بيئة أخرى ، وقد تؤتي المدارس الدينية ثماراً يانعة في مجتمع معين ، في حين لا يغني مثل هذا الأسلوب في مجتمع آخر ، وهكذا ...

٥ ـ الاستنارة بخطوات الحركة التغييرية التي مارسها خط الإمامة بالحدود الذي تسمح به ظروف الإنسان في المرحلة الراهنة .

٦ ـ الإفادة من تجارب الآخرين في العمل الإجتماعي إسلاميين كانوا أم غير إسلاميين لإغناء تجربتنا في العمل التغييري بذلك ..

* * *

منهجنا في البحث
وطريقة تناوله لأساليب العمل عند الأئمة (ع)

قلنا إن تاريخ الأئمة (ع) يمثل امتداداً رسالياً لمواصلة القيادة الإسلامية في بناء الأمة ، فعملهم (ع) من خلال هذه الحقيقة يمثل أطروحة الإسلام في حماية مستقبل الدعوة بعد النبي (ص) .

فالرسول (ص) سار بعملية التغيير خطوات مدهشة في برهة قصيرة ، وكان على العملية أن تواصل طريقها الطويل بعد وفاته (ص) ، لأن طريق عملية التغيير الشامل ، لم يكن في يوم من الأيام قصيراً أو سهلاً ، بل كان طريقاً طويلاً وممتداً بامتداد الفواصل المعنوية الضخمة بين الجاهلية والإسلام ... ومن هنا جاءت أعمال الأئمة (ع) لتكمل هذا الطريق ، لتحقيق أهداف الإسلام الذي باشره النبي (ص) في اجتثاث كل رواسب الماضي الجاهلي وجذوره ، وبناء أمة جديدة على مستوى متطلبات الدعوة ومسؤولياتها .

* وسوف يتناول بحثنا بالكشف الأساليب العملية المتنوعة التي مارسها الأئمة (ع) وذلك « بدراسة حياة كل إمام وتاريخه على أساس النظرة الكلية بدلاً من النظرة التجزيئية ، أي النظر إلى الأئمة ككل مترابط ، ودرس هذا الكل وكشف ملامحه العامة وأهدافه المشتركة ومزاجه الأصيل ، وفهم الترابط بين خطواته ، وبالتالي الدور الذي مارسه الأئمة جميعاً في الحياة الإسلامية ، بحيث يشكل الأئمة (ع) بمجموعهم وحدة مترابطة الأجزاء يواصل كل جزء في تلك الوحدة دور الجزء الآخر ويكمله .. دون الاقتصار والوقوف على الدراسة التجزيئية التي

قد تظهر للوهلة الأولى تبايناً في السلوك وتناقضاً من الناحية الشكلية بين الأدوار التي مارسها الأئمة (ع) .

ولكننا حين نحاول اكتشاف الخصائص العامة والدور المشترك للأئمة (ع) ككل فسوف تزول كل التناقضات والاختلافات ، لأنها تبدو على هذا المستوى مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة ، وإنما اختلف التعبير عنها وفقاً لاختلاف الظروف والملابسات التي مرّ بها كل إمام وعاشتها القضية الإسلامية في عصره ، عن الظروف والملابسات التي مرّت بها الرسالة في عهد إمام آخر .

وفي عقيدتنا أن وجود دور مشترك مارسه الأئمة جميعاً ليس مجرد افتراض ، نبحث عن مبرراته التاريخية ، وإنما هو مما تفرضه العقيدة نفسها وفكرة الإمامة بالذات ، لأن الامامة واحدة في الجميع بمسؤولياتها وشروطها ، فيجب أن تنعكس انعكاساً واحداً في سلوك الأئمة وأدوارهم مهما اختلفت ألوانها الظاهرية بسبب الظروف والملابسات » [1] .

فتباين أساليب العمل عند الأئمة ـ كما قدّمنا ـ لا تعني أموراً مزاجية أو مصلحية ، تخضع لأهوائهم ومشتهياتهم ، وإنما هي تعبير عن الأخذ بشروط الحكمة في ما تمنحه لهم الفرص الموضوعية (الزمكانية) والاستعداد للقيام بهذا العمل أو ذاك ... ولهذا نرى أن الأسلوب المفضل لدعوة الأئمة (ع) في أبعادها (الزمكانية) تكون معقولة ومجدية في وقت معين ومفرغة من جدواها ومعناها في ظرف آخر ، لأن هناك ظروفاً وملابسات تفرض أشكالاً مغايرة ومتنوعة في التنسيق والوعي العملي للتغيير .

ومن هنا تبرز أهمية الدراسة الشمولية لدور الأئمة في الحياة الإسلامية ، والتي

---

(١) ـ يراجع مقال « دور الأئمة في الحياة الإسلامية » للسيد محمد باقر الصدر ـ دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ، للأمين ، الجزء الثاني ـ ص ٩٤ .

من شأنها إبراز المكانة الحقيقية لدورهم العظيم في الحياة الإسلامية ، ومدى انسجام وتفاعل أسلوب كل إمام مع الآخر ، تلك الأساليب.التي تتواجد من خلال ظروف موضوعية ، يحتاجها العمل التغييري الآني مشروطاً ببيئته الزمانية والمكانية .

ولا بد لنا ونحن ندرس تاريخ الأئمة (ع) أن نعتمد النصوص التاريخية الصحيحة في التعرف على خصائص عملهم (ع) وخصائص المراحل التأريخية التي مروا بها ، حذراً من الانجرار وراء الفكر المذهبي المسبق ، ومحاولة فرضه على تاريخهم كطريقة لإعطاء تاريخهم الصبغة الشرعية والمقدسة أو منح أساليبهم التي مارسوها صفة الاستيعاب والشمول لكل ما كان ويكون من أساليب العمل والتخطيط الدعوتي .. وتلك طريقة يبدو لنا أنها تسيء إلى تاريخهم أكثر مما تحسن إليه ..

فلذا سوف يكون التاريخ الصحيح دليلنا ومرشدنا في محاولتنا لفهم تاريخ حركتهم عليهم السلام .

الفصل الاول

مراحل الدعوة الاسلامية في حياة النبي (ص)

مراحل الدعوة

مرت الدعوة الإسلامية في حياة النبي (ص) منذ بعثته إلى وفاته بثلاث مراحل :

المرحلة الاولى

كانت دعوة الرسول (ص) سراً ، لا يفاتح بها إلا من يغلب على الظن أنه سيسمع لها أو يؤمن بها .

وتبدأ هذه المرحلة بتنزيل الوحي على النبي (ص) في غار حراء . قال ابن هشام : « وكان يدعوهم إلى ذلك سراً وحذراً من وقع المفاجأة على قريش التي كانت متعصبة لشركها ووثنيتها فلم يكن (ص) يظهر الدعوة في المجالس العمومية لقريش ، ولم يكن يدعو إلاّ من كانت تشده إليه صلة قرابة أو معرفة سابقة ، وكان هؤلاء يلتقون بالنبي (ص) سراً وكان أحدهم إذا أراد ممارسة عبادة من العبادات ذهب إلى شعاب مكة يستخفي فيها عن أنظار قريش »[1] .

وفي هذه المرحلة شكل الرسول (ص) نواة الدعوة الأولى لتحمل مسؤولية الدعوة ، ولتمارسها بخفاء وحذر « ولما أربى الذين دخلوا في الإسلام على الثلاثين ما بين رجل وامرأة ، اختار لهم رسول الله (ص) دار أحدهم ، وهو الأرقم بن أبي الأرقم ليلتقي بهم فيها لحاجات الإرشاد والتعليم ، وكانت حصيلة الدعوة في هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلاً وامرأة دخلوا الإسلام عامتهم من الفقراء والأرقاء . وممن لا شأن لهم بين قريش »[2] .

---

(١) يراجع للتوسع سيرة ابن هشام ج ١ ، ص ٢٤٠ وما بعدها .
(٢) نفس المصدر ج ١ ، ص ٢٤٩ ــ ٢٦١ .

لا ريب أن تكتم النبي (ص) في دعوته إلى الإسلام خلال هذه السنوات الأولى، لم يكن بسبب الخوف على نفسه، بل خوفاً على مستقبل الدعوة من أي نشاط ارهابي يقضي عليها وهي لما تكتمل بعد ولم تترسخ لكي تصمد أمام أي معارضة أو مواجهة سافرة، قد يتهددها بالفناء.

والعمل السري الذي اتبعه الرسول (ص) في دعوته أراد به ضمان أمرين:

١ ـ عدم تعريض الطليعة المؤمنة، لأي عمل ارهابي يشل الحركة ويفكك ارتباطها، ومن ثم يدفعها إلى التشرذم والضياع.

٢ ـ توفير العدد الكافي من المؤمنين بالرسالة، لكي تتحمل مسؤولياتها في التغيير الإسلامي بجدارة وإيمان.

ولما إزداد نشاط المسلمين وتكاثر عددهم، أصبح من الصعب ستر أعمالهم وتجمعهم وصلاتهم، وإن تم ذلك في الشعاب والوديان، وعلمت قريش بوجود الدعوة، وحسبت للأمر حسابه فحاولت جاهدة أن تستطلع الأمر، وتحصل على تفصيلات أكثر حول اتباع الدين الجديد، فأرسلت عيونها يرقبون المسلمين عند حلهم وترحالهم ويتتبعون أخبارهم.

وفي ذات يوم بينما «كان سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله (ص) في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلّون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذٍ رجلاً من المشركين بلحى بعير فشجه فكان أول دم اهريق في الإسلام» [١].

هذه الحادثة الخطيرة لم تفزع الرسول (ص)، بل اعتبر انكشاف الدعوة جزئياً أمراً طبيعياً، بعد أن فشا أمر الدين الجديد في مكة، وبلغ حداً من الانتشار، بحيث لا يمكن معه الكتمان التام.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

فقد آن الأوان للجهر بالدعوة وإظهار الدين ، وكانت إيذاناً بتحوّل الدعوة إلى طور جديد من أطوار العمل ، بعد أن اطمأن الرسول (ص) إلى تكامل العناصر الضرورية لهذه المرحلة ، إذ بلغ عدد المسلمين وفهمهم للإسلام حدّاً مناسباً وأصبحوا من القوة ، بحيث لا يمكن القضاء عليهم ـ مع ملاحظة بقية الظروف الاجتماعية كحمايته (ص) من قبل عمه أبي طالب (رض) وإيمان جماعة يعتز بهم الإسلام كعمه حمزة بن عبد المطلب .

« كما أن العنصر الثاني من عناصر الدعوة في هذه المرحلة كاد أن يتكامل ، وهو تطلع الأمة إليها وقبول كثير ممن عرضت عليهم الدعوة » (١) .

واستمرت هذه المرحلة ثلاث سنوات ، إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه بقوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » « وانذر عشيرتك الأقربين » « وقل إني أنا النذير المبين » .

المرحلة الثانية

وفي هذه المرحلة استجاب الرسول لقوله تعالى « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » وبدأ بتنفيذ أمر ربه ، حيث دعا ـ جميع ذويه وأهل قرابته وعشيرته ـ دعاهم فيها للإسلام ، وأبلغهم رسالة الله تعالى . فقال : « يا بني كعب بن لؤي انقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد شمس : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مناف : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة : أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلّها ببلاها » (أي سأصلها بصلتها) (٢) .

---

(١) المصدر السابق نفسه ج ١ ص ٢٨٣ .

(٢) راجع للمعلومات ، من الفقه السياسي في الإسلام ، محمد جعفر الظالمي ص ٨٤ .

وصعد الرسول (ص) على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر يا بني عدي ، حتى اجتمعوا ، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر : ما هو ؟ فقال النبي (ص) : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جرّبنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى (تبت يدا أبي لهب وتب) (١)

وكان رد الفعل من قريش أمام جهره بالدعوة ، أن أدبروا عنه وتنكروا لدعوته ، حتى تحمل المسلمون من أجلها صنوف الاضطهاد والتعذيب ، وقاسوا من الأذى ما عبّد لهم طريق النصر ، ليحققوا رضا الله تعالى ، ويسقوا العقيدة بالدماء ، حتى قال الرسول (ص) : « ما أوذي نبي مثلما أوذيت » ، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص إنه قال :. « بينما النبي (ص) يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبي (ص) وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » (٢) .

ومنه ما رواه الطبري وابن اسحاق أن بعضهم عمد إلى قبضة من التراب فنثرها على رأسه وهو يسير في بعض سكك مكة وعاد إلى البيت والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله يقول لها : « يا بنية لا تبكي فإن الله مانع اباك » (٣) .

وأما أصحابه رضوان الله عليهم ، فقد تجرع كل منهم ألواناً من العذاب ، ويروى عن خباب بن الإرث أنه قال : « أتيت النبي (ص) بعد أن لقي من

---

(١) راجع للتوسع ، فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ٩٩ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) رواه البخاري نقلاً عن فقه السيرة ص ١٠٥ .

المشركين شدّة ، فقلت يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟ فقعد وهو محمر الوجه ، فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله » (١) .

الانتقال إلى الطائف

وعندما شعر النبي (ص) أن دعوته وصلت إلى حالة ركود وانكماش في مكة ، وتوقفت تقريباً حركة الإنضمام الجماعي والمستمر للدعوة ، بعد أن وصل الإرهاب والتعذيب قمته ، ورأى أن حالة الركود هذه تحمل تهديداً مباشراً بانحسار الدعوة وتوقف مدّها وبالتالي نهايتها .. كل هذه الاعتبارات ، جعلته (ص) ينتقل بدعوتها إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، ويرجو أن يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله عز وجل ، ليكسب بهم أعواناً جدداً لرسالته يهيؤون المنطقة لتكون القاعدة الجديدة ، ومركز انطلاقتها ، بعد أن وجد (ص) أن مكة لا تصلح أن تكون قاعدة لعمله الرسالي ، وخصوصاً بعد ما أثمرت عمليات التعذيب والإرهاب في تركيد وتوقف حركة المد التي حدثت قبل ذلك .

ولما انتهى رسول الله (ص) إلى الطائف ، أراد أن يكسب إليه الزعامات المتنفذة فيها لأهميتها وكثرة أتباعها ، فعمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ ساداته فجلس إليهم ودعاهم إلى الله .. فردوا عليه رداً منكراً ، وفاجأوه بما لم يكن يتوقع من الغلظة وسمج القول . فقام رسول الله من عندهم وهو يرجوهم أن يكتموا خبر مقدمه إليهم عن قريش . فلم يجيبوه إلى ذلك أيضاً . ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، وجعلوا يرمونه بالحجارة ، حتى أن قدمي رسول الله (ص) لتدميان ، وقد شُج في رأسه عدة شجاج (٢) فشكا أمره إلى الله ،

---

(١) راجع تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٤٤ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٨ .
(٢) سيرة ابن هشام وانظر كتاب تهذيب السيرة .

وقد رفع رأسه يدعو بهذا الدعاء « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتهجمني أم إلى عدوّ ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » [1] .

ثم عاد رسول الله (ص) ـ ومعه زيد بن حارثة ـ يريد دخول مكة . فقال له زيد كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك فقال : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه . ثم أرسل رجلاً من خزاعة إلى مطعم بن عدي يخبره أنه داخل مكة في جواره ، فاستجاب مطعم لذلك وعاد رسول الله (ص) إلى مكة [2] .

وبعد عودة الرسول (ص) إلى مكة ، أخذ يتدبر تجربة الطائف الأليمة ، وسوء المعاملة التي لقيها منهم ، وعدم انجاز هدفه من خلق (قاعدة ارتكاز لدعوته في الطائف بدل مكة) .

ويبدو أن دراسة النبي (ص) (لتجربة الطائف) وتقييمها وتحليل أسباب عدم نجاحها جاءت بالمعطيات العملية التالية :

١ ـ اكتشف الرسول (ص) أن الطائف لا تصلح (قاعدة ارتكاز) لعمله ، نظراً لعلائقها وارتباطاتها الوثيقة بمكة ، كما أنها جغرافياً لا تبعد عنها إلا بحوالي (٤٠) ميلاً مما يجعلها غير مأمونة من هجمات قريش ومباغتتها نظراً لقربها .

٢ ـ عدم صلاحية توليه (ص) عرض الدعوة بنفسه في وسط معادي ، مما أدى إلى محاصرته وإحباط دعوته بالشغب عليه وعدم منحه فرصة الحديث

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ، ١٩٦ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ، ٤٢٠ .

وممارسة تأثيره عليهم [1] .

ومن هنا نرى أن الرسول (ص) إستأنف جهوده عند حلول موسم الحج متنقلاً بين وفودها ، حيث اجتمع بستة من أهل يثرب ـ المدينة ـ وأخذ يدعوهم لرسالته ، فآمنوا به ، وأقسموا أن يعملوا في سبيلها عند عودتهم إلى بلدهم .

وفي نجاح النبي (ص) باقناع هؤلاء تكمن أخطر تحولات العمل التنظيمي للرسول (ص) في تاريخ الإسلام .

ولم يكن اجتماعه (ص) بهؤلاء الستة عملاً عفوياً بل مقصوداً ، حيث اجتمع بهم بشكل (شبه سري) وركز على عدد محدود ، لا كما فعل مع باقي الوفود حيث كان يدعوها علانية .

إن سرية الإجتماع ، واختيار التوقيت (موسم الحج) تحمل دلالات كبيرة لا يمكن اغفالها ، وذلك بالمقارنة مع تجربة الطائف الأليمة ، الغنية بالدروس ... فقد غير الرسول (ص) خطته بالنسبة لقاعدة الارتكاز ، فكانت يثرب ـ المدينة ـ موضع اختياره الجديد معتمداً على بعدها الجغرافي عن مكة حيث تبعد عنها أكثر من ٢٥٠ ميلاً ، مما يجعلها بمأمن من هجمات قريش المتتالية والمفاجئة .

ولقد كانت يثرب مهيأة اجتماعياً لتكون قاعدة ارتكاز للدعوة ، فإن طول النزاع القبلي بين سكانها من الأوس والخزرج واليهود جعلها منطقة مفككة إجتماعياً ، فكما أنها لا تستطيع أن تتماسك أمام رياح الإسلام فإنها كانت تتطلع إلى فكرة أو رجل تلتف حوله لينزع عنها إلى الأبد هذه العصبيات المستعصية . وإلى جوار ذلك كله كان للنبي (ص) في يثرب أخوال من بني النجار ، ويثرب نفسها تدرك ذلك وتدرك أن لوالديه (ص) قبراً فيها ..

بالإضافة إلى ذلك تعتبر يثرب غنية بإمكانياتها المادية .. وتسيطر على طريق

---

(١) طبقات بن سعد ج ١ ، ١٩٦ .

تجارة مكة ـ الشام .

وفي هذه المرة لم يذهب الرسول (ص) بنفسه إلى يثرب كما فعل في الطائف ـ حيث التجربة الأليمة ـ بل تخلى عن أسلوب العمل المباشر ، واعتمد في نشر الدعوة وتعاليمها بواسطة أهل المدينة أنفسهم ، فذلك أسلوب أكثر فائدة ، وأسرع في تحقيق النتائج ، لأنهم أقدر على معرفة بلدهم وظروفها وظروف أهلها ، وهم بالتالي أكثر تأثيراً في أهلهم وأصحابهم ولن يستريب فيهم أحد .

واستهدف الرسول (ص) بنشاط هؤلاء الستة ، وما يكسبونه من أنصار ، تهيئة الجو وخلق مناخ مؤيد متعاطف مع الدعوة ومبادئها الجديدة .

وعندما حلّ موسم الحج الثاني التقى (ص) مع إثني عشر رجلاً من اليثربيين ، واجتمع بهم سراً في وادٍ ضيق (بالعقبة) وهي العقبة الأولى [1] ، أعلنوا فيها إيمانهم ، وقبولهم في نشر الدعوة الإسلامية .

فلما أرادوا الإنصراف بعث رسول الله (ص) معهم مصعب بن عمير وهو واحد من أكفأ الصحابة من مسلمي مكة ، ليقوم بتعليم أهل يثرب الإسلام ويفقههم في الدين ، وليجعل منهم قوة منظمة أكثر فاعلية ودقة في نشر الدين الجديد في صفوف أهل المدينة .

ومصعب بن عمير كما هو معروف من أوائل من أسلموا في مكة ومعروف بوعيه للدين ومعاصرته لفترة الإرهاب والاضطهاد التي شنتها قريش والقوى الجاهلية على مسلمي مكة ، وبالتالي فهو خبير بشتى أساليب العمل والتنظيم . [2]

إن وجود مصعب على رأس هذه الجماعة ضمانة تنظيمية حتى لا يرتد هؤلاء

---

(١) راجع للتفصيل مقال (نظرية الثورة والتنظيم ـ لحسنين كروم) في كتاب « محمد نظرة عصرية » جديدة ص ١٧١ .

(٢) راجع للتوسع سيرة ابن هشام ٤٢٨/١ .

المؤمنون الجدد عن إيمانهم وعن وعدهم بالعمل المثمر في نشر الإسلام ، خصوصاً وإن مرور عام كامل بين موسم وآخر كفيل بأن يوهن من عزيمتهم واندفاعهم ، وهم لم يتلقوا التعاليم كاملة ويتفهموها بعمق ومعرفة تامة ليكونوا دعاة على مستوى عالٍ من الفهم والقدرة على الإقناع وعلى كسب الآخرين ... وإنعدام الإرتباط المنظم يؤدي بالضرورة إلى تحلل أي جماعة وعدم انضباطها أو ترابطها وتشتت جهود أفرادها وفشلهم فيما بعد .

الهجرة والانتقال إلى قاعدة الارتكاز

ثم إن مصعب بن عمير عاد إلى مكة في موسم العام التالي ومعه جمع كبير من مسلمي المدينة ، خرجوا مستخفين مع حجاج قومهم المشركين ..

ويبدو أن مصعباً قبل حضوره إلى مكة ، قد رتَّب إجتماعاً بين الرسول (ص) وبين مسلمي يثرب بعد انتهاء موسم الحج ، بعد أن حدثه عن أعماله ونشاطه وعما أحرزته الدعوة الإسلامية من نجاح ، حيث إزداد عدد المسلمين ، وأصبح جو المدينة العام مؤيداً ومهيئاً للرسول (ص) .

قال محمد بن إسحاق يروي عن كعب بن مالك : فواعدنا رسول الله « ص » العقبة من أوسط أيام التشريق ، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله (ص) لها ، نمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله (ص) نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا ..

قال : فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله (ص) حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، فتكلم القوم وقالوا : « خذ منا لنفسك ما أحببت » فتكلم رسول الله (ص) فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغَّب في الإسلام ثم قال :

« أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » [1] وسألهم (ص) هل هم مستعدون لحمايته ولنصرته في سبيل الدين وتحمل كافة التبعات المترتبة على ذلك .

ويقول ابن هشام : « وبايعهم رسول الله (ص) في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود ، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة [1] ووافق الجمع وأقسموا على حمايته حتى النصر أو الموت » .

قال عبادة بن الصامت : بايعنا رسول الله (ص) بيعة الحرب ، على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثره علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم .

وكانت أول آية نزلت في الإذن بالحرب للرسول قوله تعالى : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله** ﴾ [3] .

المرحلة الثالثة

قدّر الله لرسوله (ص) بعد كل هذه المحاولات أن يجد في حجاج يثرب غايته التي كان ينشدها ، فيهاجر (ص) إلى يثرب بعد أن اشتد العذاب والبلاء بالمسلمين ، وهناك أنشأ أول دار إسلام إذ ذاك على وجه الأرض ، وقد كان ذلك إيذاناً بظهور الدولة الإسلامية بإشراف منشئها الأول الرسول (ص) .

قال ابن سعد في طبقاته : « لما صدر السبعون من عند رسول الله (ص) طابت نفسه ، فقد جعل الله له منعة وقوماً أهل حرب وعدة ونجدة ، وجعل البلاء

---

(١) راجع عن حياة مصعب بن عمير كتاب فقه السيرة للدكتور البوطي ص ١٦٦ .

(١) سيرة ابن هشام والطبري .

(٢) نفس المصدر .

يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج ، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى . فشكا ذلك أصحاب رسول الله (ص) واستأذنوه في الهجرة ، فقال « قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها » ، فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك » [1] .

أما الرسول (ص) فانطلق إلى الإمام علي بن أبي طالب ، فأمره أن يتخلف بعده بمكة ريثما يؤدي عن رسول الله (ص) الودائع التي كانت عنده للناس [2] .

ولما كانت عتمة تلك الليلة التي هاجر فيها النبي (ص) اجتمع المشركون على باب رسول الله (ص) يتربصون به ليقتلوه ، وخرج الرسول (ص) من بينهم ، وقد ألقى الله عليهم سنة من النوم بعد أن ترك علياً في مكانه نائماً . وطمأنه بأنه لن يصل إليه أي مكروه [3] .

وبوصول النبي (ص) إلى يثرب ، واستقراره فيها ، أقبل على إقامة مجتمع إسلامي راسخ متماسك ، واستلم فيها زمام الحكم كأول قائد في هذا المجتمع الجديد بكل ما يرتبط بالحكم من شؤون السياسة والاقتصاد والإدارة والقضاء .

وبعد أن تجذر الوجود الإسلامي في المدينة ، بادر إلى مرحلة المواجهة والجهاد ، ليهاجم القوى الجاهلية المتمثلة بقريش وليقضي على خطرها وتأثيرها على الدعوة الإسلامية .

ولقد كان الرسول (ص) حاسماً في مواجهته للمشركين واليهود ـ في هذه المرحلة ـ .. فقد كانت مسألة الحكم صراعاً بين الإسلام والجاهلية ، وكان لا بد من القوة والعنف حينما كان الأمر يتطلب ذلك .

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) طبقات بن سعد ج ١ ، ٢١٠ ، ٢١١ وتاريخ الطبري ج ٣٦٧/١ .

(٣) فقه السيرة للبوطي ص ١٨٥ .

موقف الرسول من مستقبل الدعوة

بعد أن انتهينا عن حديث المراحل ، نحاول أن نعالج في هذا المبحث مسألة هامة وخطيرة ، سبق وأن اختلف المسلمون في فهمها ، وأعني بها مسألة خلافة النبي ومستقبل الدعوة وقيادتها من بعده :

إن الموقف النبوي [1] الذي يعالجه هذا البحث بالإمكان استخلاصه والوصول إليه بالإستنتاج المنطقي للدعوة التي كان الرسول الأعظم يتزعم قيادتها بحكم طبيعة تكوينها ونوع الظروف التي عاشتها .

وكان النبي (ص) يدرك منذ فترة قبل وفاته أن أجله قد دنا وقد أعلن ذلك بوضوح في حجة الوداع ولم يفاجئه الموت مفاجأة وهذا يعني أنه كان يملك فرصة كافية للتفكير في مستقبل الدعوة بعده حتى إذا لم ندخل في الموقف عامل الاتصال الغيبي والرعاية الإلهية المباشرة للرسالة عن طريق الوحي .

وفي هذا الضوء يمكننا أن نلاحظ أن النبي (ص) كان أمامه ثلاثة طرق بالإمكان انتهاجها تجاه مستقبل الدعوة :

---

(١) اعتمدنا في هذا البحث (موقف الرسول من مستقبل الدعوة) بتصرف ما جاء في كتاب بحث في الولاية لسماحة السيد محمد باقر الصدر مع اختصار واغفال لبعض الشواهد التاريخية ، لضيق المجال فنحيل القارئ إليها .

الطريق الأول :

أن يقف من مستقبل الدعوة موقفاً سلبياً ويكتفي بممارسة دوره في قيادة الدعوة وتوجيهها فترة حياته ويترك مستقبلها للظروف والصدف .

وهذه السلبية لا يمكن افتراضها في النبي (ص) لأنها إنما تنشأ من أحد أمرين كلاهما لا ينطبقان عليه (ص) :

الأمر الأول :

الاعتقاد بأن هذه السلبية والإهمال لا تؤثر على مستقبل الدعوة ، وأن الأمة التي سوف يخلف الدعوة فيها قادرة على التصرف بالشكل الذي يحمي الدعوة ويضمن عدم الانحراف .

وهذا الاعتقاد لا مبرر له من الواقع إطلاقاً بل إن طبيعة الأشياء كانت تدل على خلافه لأن الدعوة بحكم كونها عملاً تغييرياً انقلابياً في بدايته ، يستهدف بناء أمة واستئصال كل جذور الجاهلية منها تتعرض لأكبر الأخطار إذا خلت الساحة من قائدها وتركها دون أي تخطيط :

أ ـ فهناك الأخطار التي تنبع عن طبيعة مواجهة الفراغ دون أي تخطيط سابق ، مما يدفع الأمة إلى إتخاذ موقف مرتجل في ظل الصدمة العظيمة بفقد النبي (ص) . وهي لا تملك أي مفهوم مسبق بهذا الصدد .

ب ـ وهناك الأخطار التي تنجم عن عدم النضج الرسالي بدرجة تضمن للنبي مسبقاً موضوعية التصرف الذي سوف يقع ، وإنسجامه مع الإطار الرسالي للدعوة وتغلبه على التناقضات الكامنة التي كانت لا تزال تعيش في زوايا من نفوس المسلمين على أساس الإنقسام إلى مهاجرين وأنصار أو قريش وسائر العرب أو مكة والمدينة .

جـ ـ وهناك الأخطار التي تنشأ نتيجة لوجود القطاع المتستر بالإسلام والذي كان يكيد للدعوة في حياة النبي باستمرار . وإذا أضفنا إليهم عدداً كبيراً ممن

أسلم بعد الفتح استسلاماً للأمر الواقع لا انفتاحاً على الحقيقة ، نستطيع أن نقدر الخطر الذي يمكن لهذه العناصر أن تولده وهي تجد فجأة فرصة لنشاط واسع في فراغ كبير مع خلو الساحة من رعاية القائد .

هذا بالإضافة إلى الأخطار الخارجية على الدعوة من القوى والدول القريبة والبعيدة .

فلم تكن إذن خطورة الموقف بعد وفاة النبي شيئاً يمكن أن يخفى على أي قائد ممارس للعمل العقائدي فضلاً عن خاتم الأنبياء . وإذا كان أبو بكر لم يشأ أن يترك الساحة دون أن يتدخل تدخلاً إيجابياً في ضمان مستقبل الحكم بحجة الاحتياط للأمر ، وإذا كان الناس قد هرعوا إلى عمر حين ضرب قائلين يا أمير المؤمنين لو عهدت عهداً (١) خوفاً من الفراغ الذي سوف يخلفه ، بالرغم من التركيز السياسي والإجتماعي الذي كانت الأمة قد بلغته بعد عقد من وفاة الرسول (ص) . وإذا كان عمر قد أوصى إلى ستة تجاوباً مع شعور الآخرين بالخطر وأبو بكر نفسه يعتذر عن تسرعه إلى قبول الحكم ، وعمر يقول عن بيعة أبي بكر « كانت فلتة غير أن الله وقى شرها » (٢) .

إذا كان كل ذلك ، فمن البديهي إذن أن يكون رائد الدعوة ونبيها أكثر شعوراً بخطر السلبية وأكبر إدراكاً وأعمق فهماً لطبيعة الموقف ومتطلبات العمل التغييري الذي يمارسه في أمة حديثة عهد بالجاهلية على حد تعبير أبي بكر .

والأمر الثاني :

الذي يمكن أن يفسر سلبية القائد تجاه مستقبل الدعوة ومصيرها بعد وفاته ، أنه بالرغم من شعوره بخطر هذه السلبية لا يحاول تحصين الدعوة ضد ذلك الخطر

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ، ٣٤ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ، ص ٢٠٠ وشرح النهج لابن أبي الحديد ج ٦ ص ٤٢ .

لأنه ينظر إلى الدعوة نظرة مصلحية فلا يهمه إلا أن يحافظ عليها ما دام حياً ليستفيد منها ويستمتع بمكاسبها ولا يعنى بحماية مستقبلها بعد وفاته .

وهذا التفسير لا يمكن أن يصدق على النبي (ص) حتى إذا لم نلاحظ بوصفه نبياً ومرتبطاً بالله ، وافترضناه قائداً رسالياً كقادة الرسالات الأخرى ، لأن تاريخ القادة الرساليين لا يملك نظيراً للقائد الرسول في إخلاصه وتفانيه للدعوة وتضحيته من أجلها إلى آخر لحظة من حياته وهو على فراش الموت ، وهو يحمل همّ معركة كان قد خطط لها وجهز جيش أسامة لخوضها [1] ، فإذا كان اهتمام الرسول (ص) بقضية من قضايا الدعوة العسكرية يبلغ إلى هذه الدرجة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فكيف يمكن أن نتصور أن النبي (ص) لا يعيش هموم مستقبل الدعوة ولا يخطط لسلامتها بعد وفاته من الأخطار المرتقبة .

فالقائد الأعظم كان أبعد ما يكون عن فرضية الموقف السلبي تجاه مستقبل الدعوة . وهو (ص) لما حضرته الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال (ص) إئتوني بالكتف والدواة أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً [2] .

فإن هذه المحاولة من القائد الكريم المتفق على نقلها وصحتها تدل بكل وضوح على أنه كان يفكر في أخطار المستقبل ويدرك بعمق ضرورة التخطيط لتحصين الأمة من الانحراف وحماية الدعوة من التميع والإنهيار .

الطريق الثاني :

أن يخطط الرسول القائد لمستقبل الدعوة بعد وفاته ويتخذ موقفاً إيجابياً فيجعل القيمومة على الدعوة وقيادة التجربة للأمة ممثلة على أساس نظام الشورى في جيلها

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير وغيره .

(٢) وهو حديث أجمعت السنة والشيعة على نقله ، راجع مسند أحمد ج ١ ، ص ٣٥٥ وصحيح مسلم ج ٢ وصحيح البخاري ج ١ .

العقائدي الأول والذي سيكون قاعدة للحكم ومحوراً لقيادة الدعوة في خط نموها .

وهذا الافتراض أيضاً مرفوض للأسباب التالية :

١ ـ لو كان النبي (ص) قد اتخذ من مستقبل الدعوة بعده موقفاً إيجابياً يستهدف وضع نظام الشورى موضع التطبيق بعد وفاته وإسناد زعامة الدعوة إلى القيادة التي تنبثق عن هذا النظام ، لكان من أبده الأشياء التي يتطلبها هذا الموقف أن يقوم الرسول بعملية توعية الأمة والدعاة على نظام الشورى وحدوده وتفاصيله ، وإعطائه طابعاً دينياً مقدساً وإعداد المجتمع الإسلامي إعداداً فكرياً وروحياً لتقبل هذا النظام ، وخصوصاً أن المجتمع آنذاك كان يعيش وضع زعامات قبلية وعشائرية تتحكم فيها القوة والثروة وعامل الوراثة إلى حدّ كبير .

ونستطيع بسهولة أن ندرك أن النبي (ص) لم يمارس عملية التوعية على نظام الشورى وتفاصيله التشريعية ، ولو أن هذه العملية كانت قد أنجزت ، لكان من الطبيعي أن تنعكس وتتجسد في أحاديثه المأثورة ، وفي ذهنية الأمة أو على أقل تقدير في ذهنية الجيل الطليعي منها بوصفه المكلف بتطبيق نظام الشورى .

ونتأكد من ذلك ، موقف لأبي بكر حينما اشتدت به العلة عهد إلى عمر بن الخطاب عندما أمر عثمان أن يكتب عهده وكتب : « أما بعد فإني قد استعملت عليكم عمر ابن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا » ودخل عليه عبد الرحمن بن عوف فقال كيف أصبحت يا خليفة رسول الله ، فقال أصبحت مولياً وقد زدتموني على ما بي إذ رأيتموني استعملت رجلاً منكم فكلكم قد أصبح ورماً أنفه وكل يطلبها لنفسه » [١] .

وواضح من هذا الاستخلاف وهذا الاستنكار للمعارضين أن الخليفة لم يكن

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

يفكر بعقلية نظام الشورى وأنه كان يرى من حقه تعيين الخليفة وفرضه على المسلمين ، وهكذا كان عمر هو الآخر يرى من حقه فرض الخليفة على المسلمين ، دون أن يجعل لسائر المسلمين أي دور حقيقي في الانتخاب .

إن الطريقة التي مارسها الخليفة الأول والثاني للاستخلاف وعدم استنكار المسلمين لتلك الطريقة والروح العامة التي سادت على منطق المتنافسين على الخلافة يوم السقيفة ، وإعلان أبي بكر الذي فاز بالخلافة في ذلك اليوم عن أسفه لعدم السؤال من النبي عن صاحب الأمر بعده [١] ، كل ذلك يوضح بدرجة لا تقبل الشك ، أن هذا الجيل الطليعي الذي تسلم الحكم بعد وفاة النبي (ص) لم يكن يفكر بذهنية الشورى ولم يكن يملك فكرة محددة عن هذا النظام .

٢ ـ إن النبي (ص) لو كان قد قرر أن يجعل من الجيل الإسلامي الرائد الذي يضم المهاجرين والأنصار من صحابته قيّماً على الدعوة بعده ومسؤولاً عن مواصلة عملية التغيير فهذا يحتم على الرسول (ص) أن يعبئ هذا الجيل تعبئة رسالية وفكرية واسعة يستطيع أن يمسك بالنظرية بعمق ويمارس التطبيق على ضوئها بوعي ويضع للمشاكل التي تواجهها الدعوة باستمرار حلولها النابعة من الرسالة ، خصوصاً إذا لاحظنا أن النبي (ص) كان وهو الذي بشّر بسقوط كسرى وقيصر يعلم بأن الدعوة مقبلة على فتوح عظيمة ، وسوف تواجه الأمة الإسلامية مسؤولية توعية تلك الشعوب على الإسلام وتحصين الأمة من أخطار هذا الانفتاح وتطبيق أحكام الشريعة على الأرض المفتوحة ، وأهلها ، وبالرغم من أن الجيل الرائد كان أنظف الأجيال التي توارثت الدعوة إلى ذلك الحين ، وأكثرها استعداداً للتضحية ، لا نجد فيه ملامح ذلك الإعداد الخاص للقيمومة على الدعوة والتثقيف الواسع العميق على مفاهيمها .

---

(١) راجع في نصوص يوم السقيفة شرح النهج : ج ٦ ص ٦ ـ ٩ .

ويمكن أن نلاحظ أن مجموع ما نقله الصحابة من نصوص عن النبي (ص) في مجال التشريع لا يتجاوز بضع مئات من الأحاديث بينما كان عدد الصحابة يناهز إثني عشر ألفاً على ما أحصته كتب التاريخ ، والمعروف عن الصحابة أنهم كانوا يتحاشون ابتداء النبي بالسؤال حتى أن أحدهم كان ينتظر فرصة مجيء أعرابي من خارج المدينة يسأل ليسمع الجواب ، وكانوا يرون أن من الترف الذي يجب الترفع عنه السؤال عن حكم قضايا لم تقع بعد . وعمر بن الخطاب يقول : « لا يحل لأحدٍ أن يسأل عما لم يكن إن الله قد قضى فيما هو كائن » وابن عمر يجيب أحداً عندما سأله عن شيء ، قوله : « لا تسأل عما لم يكن ، فإني سمعت عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن » [1] .

وهكذا نلاحظ اتجاهاً لدى الصحابة إلى العزوف عن السؤال إلا في حدود المشاكل الواقعية المحددة ..

وهذا الإتجاه أبعد ما يكون عن عملية الإعداد الرسالي الخاص التي كانت تتطلب تثقيفاً واسعاً لذلك الجيل وتوعية له على حلول الشريعة للمشاكل التي سوف يواجهها عبر قيادته .

وقد أثبتت الأحداث بعد وفاة النبي أن جيل المهاجرين والأنصار لم يكن يملك أي تعليمات محددة عن كثير من المشاكل الكبيرة التي كان من المفروض أن تواجهها الدعوة بعد النبي ، حتى أن المساحة الهائلة من الأرض التي امتد إليها الفتح الإسلامي لم يكن لدى الخليفة والوسط الذي يسنده أي تصور محدد عن حكمها الشرعي وعما إذا كانت تقسم بين المقاتلين أو تجعل وقفاً على المسلمين ، كما حدث ذلك لدى فتح العراق .

بل إننا نلاحظ أكثر من ذلك أن الجيل المعاصر للرسول (ص) لم يكن

---

(١) سنن الدارمي ج ١ ص ٥٦

يملك تصورات واضحة حتى في مجال القضايا الدينية ، على سبيل المثال ، الصلاة على الميت ، فإنها عبادة كان النبي قد مارسها مئات المرات وأداها في مشهد عام من المشيعين والمصلين ، وبالرغم من ذلك يبدو أن الصحابة كانوا لا يجدون ضرورة لضبط صورة هذه العبادة ، ولهذا وقع الاختلاف بينهم في أدائها (١) .

وهكذا نجد أن الصحابة كانوا في حياة النبي (ص) يتكلون غالباً على شخص النبي ولا يشعرون بضرورة الاستيعاب المباشر للأحكام والمفاهيم ما داموا في كنف النبي .

وكل ما تقدم يدل على أن التوعية التي مارسها النبي على المستوى العام للمهاجرين والأنصار لم تجعلهم بالدرجة التي يتطلبها إعداد القيادة الواعية الفكرية والسياسية لمستقبل الدعوة وعملية التغيير وإنما كانت توعية بالدرجة التي تبني القاعدة الشعبية الواعية التي تلتف حول قيادة الدعوة في الحاضر والمستقبل .

٣ ـ إن الدعوة عملية تغيير ومنهج حياة جديد وهي تستهدف بناء أمة من جديد واقتلاع كل جذور الجاهلية ورواسبها ، والأمة الإسلامية ككل لم تكن قد عاشت في ظل عملية التغيير هذه إلا عقداً واحداً من الزمن ، وهذا الزمن لا يكفي عادة في منطق الرسالات العقائدية والدعوات التغييرية لارتفاع الجيل إلى درجة من الوعي والموضوعية والتحرر من رواسب الماضي والإستيعاب لمعطيات الأطروحة الجديدة تؤهله للقيمومة على الرسالة وتحمل مسؤوليات الدعوة وعملية التغيير بدون قائد ، بل إن منطق الرسالات العقائدية يفرض أن تمر الأمة بوصاية عقائدية فترة أطول من الزمن حتى تتهيأ للارتفاع إلى مستوى تلك القيمومة .

وفعلاً نلاحظ عبر نصف قرن أو أقل من خلال ممارسة جيل المهاجرين والأنصار لإمامة الدعوة والقيمومة عليها ، أنه لم يمض على هذه القيمومة ربع

---

(١) راجع عمدة القارئ ج ٤ ص ١٢٩ للوقوف على تفاصيل الاختلاف .

قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة والتجربة الإسلامية تنهار تحت وقع ضربات أعداء الإسلام القدامى ، إذ استطاعوا أن يتسللوا إلى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج ويستغفلوا القيادة غير الواعية ثم صادروا بكل تجرؤ وعنف تلك القيادة وأجبروا الأمة على الخضوع لقيادتهم فتحولت الزعامة إلى ملك موروث يستهتر بالكرامات ويقتل الأبرياء ويعطل الحدود ، وأصبح الفيء والسواد بستاناً لقريش والخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني أميّة .

الطريق الثالث :

وهو الطريق الوحيد الذي بقي منسجماً مع طبيعة الأشياء ومعقولاً على ضوء ظروف الدعوة وسلوك النبي (ص) وهو أن يقف النبي (ص) من مستقبل الدعوة بعد وفاته موقفاً إيجابياً ، فيختار بأمر من الله سبحانه شخصاً يرشحه عمق وجوده في كيان الدعوة فيعده إعداداً رسالياً وقيادياً خاصاً تتمثل فيه القيادة الفكرية السياسية للتجربة وليواصل بعده بمساندة القاعدة الشعبية الواعية قيادة الأمة وبناءها العقائدي .

وهكذا نجد أن هذا هو الطريق الوحيد الذي كان بالإمكان أن يضمن سلامة مستقبل الدعوة وصيانة التجربة من الانحراف في خط نموها وهكذا كان .

وليس ما تواتر عن النبي (ص) من النصوص التي تدل على أنه كان يمارس إعداداً رسالياً وتثقيفياً عقائدياً خاصاً لبعض الدعاة على مستوى يهيئوه للمرجعية الفكرية والزعامة السياسية وأنه (ص) قد عهد إليه بمستقبل الدعوة وزعامة الأمة من بعده فكرياً وسياسياً ، ليس هذا إلا تعبيراً عن سلوك القائد الرسول (ص) للطريق الثالث الذي كانت تفرضه وتدل عليه قبل ذلك طبيعة الأشياء ، كما عرفنا .

ولم يكن هذا الشخص الداعية المرشح للإعداد الرسالي القيادي وتزعمها فكرياً وسياسياً سوى علي بن أبي طالب الذي رشحه لذلك عمق وجوده في كيان الدعوة

وأنه المجاهد الأول في سبيلها عبر كفاحها المرير ضد كل أعدائها ، وأنه ربيب الرسول الذي فتح عينيه في حجره ، ونشأ في كنفه وتهيأت له فرص التفاعل معه والإندماج بخطه ما لم يتوفر لأي إنسان آخر .

والشواهد من حياة النبي والإمام علي ، أن النبي كان يعد الإمام إعداداً رسالياً خاصاً كثيرة جداً ، فقد كان الرسول يخصه بكثير من مفاهيم الدعوة وحقائقها ويبدأه بالعطاء الفكري إذا استنفد الإمام أسئلته ويختلي به الساعات الطوال يفتح عينيه على مفاهيم الرسالة ومشاكل الطريق ومناهج العمل إلى آخر يوم من حياته الشريفة .

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي إسحاق : سألت قثم بن العباس ، كيف ورث علي رسول الله ، قال : « لأنه كان أولنا به لحوقاً وأشدنا به لزوقاً » .

وروى النسائي عن الإمام أنه كان يقول كنت إذا سألت رسول الله أُعطيت وإذا سكت ابتدأني . ورواه الحاكم في المستدرك أيضاً .

وقال أمير المؤمنين في خطبته وهو يصف ارتباطه الفريد بالرسول وعناية النبي بإعداده وتربيته (وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ... ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالإقتداء به ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة) .

كما أن في حياة الإمام علي بعد وفاة القائد الرسول أرقاماً كثيرة جداً تكشف عن ذلك الاعداد العقائدي الخاص للإمام علي من قبل النبي بما تعكسه من أثار ذلك الإعداد الخاص ونتائجه . فقد كان الإمام هو المفزع والمرجع لحل أي مشكلة يستعصي حلها على القيادة الحاكمة وقتئذٍ ولا نعرف في تاريخ التجربة الإسلامية على عهد الخلفاء الأربعة واقعة واحدة رجع فيها الإمام إلى غيره لكي

يتعرف رأي الإسلام وطريقة علاجه للموقف بينما نعرف في التاريخ عشرات الوقائع التي أحست القيادة الإسلامية الحاكمة فيها بضرورة الرجوع إلى الإمام بالرغم من تحفظاتها في هذا الموضوع .

وإذا كانت الشواهد كثيرة على أن النبي كان يعد الإمام إعداداً خاصاً لمواصلة قيادة الدعوة من بعده فالشواهد على إعلان الرسول القائد عن تخطيطه هذا وإسناده زعامة الدعوة الفكرية والسياسية رسمياً إلى الإمام علي لا تقل عنها كثرة كما نلاحظ ذلك في حديث الدار وحديث الثقلين وحديث المنزلة وحديث الغدير وعشرات من النصوص النبوية الأخرى [1] .

(١) راجع للنصوص وزيادة المعلومات ـ المراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين .

الفصل الثاني

مراحل العمل عند الأئمة (ع)

المرحلة الاولى

وهي المرحلة التي عاش فيها قادة الرسالة لمجابهة صدمة الانحراف التي وقعت في الأمة الإسلامية بعد وفاة الرسول (ص) .

فكان أئمة هذه المرحلة يتصدون بشكل رئيسي على مواجهة ومجابهة هذه الصدمة ، وتحصين الأمة ضدها ، والعمل على الاحتفاظ بالإسلام كشريعة مستمرة دون أن يطالها التحريف ، إن لم يكن من المتيسر الحفاظ عليه كمجتمع ودولة .

وكانت المعالجة هذه من مهام الإمام علي (ع) وولديه الحسن والحسين (ع) ، انتهاءً بالسجاد (ع) ، وكان محور نشاطهم (ع) ، يشمل التخطيط والأخذ بكل الاحتياطات الممكنة لتطويق صدمة الانحراف وتحصين الإسلام منها .

الإمام علي بن أبي طالب (ع)

ـ تمهيد ـ

قبل الحديث عن مواقف الإمام (ع) من الأحداث وكيفية معالجته لها ، علينا أن نلم ولو بإيجاز عن تلك الظروف الإجتماعية والسياسية التي سبقت حكمه .. والتي بدأت الأمة المسلمة ، تشهد فيها انحرافاً صريحاً عن مبادئ الإسلام وتعاليمه .

ويمكن أن نشهد هذا التحول والانحراف بوضوح أكثر ، منذ بداية النصف الثاني من عهد عثمان بن عفان .. هذا الانحراف نفسه صار فيما بعد أساساً للظروف والملابسات الاجتماعية والسياسية التي عاشها الإمام علي ، فتصدى لها (ع) منذ اللحظة الأولى من تسلمه لزمام مسؤولية الخلافة في الدولة الإسلامية ، محاولاً تحصين الأمة ضد صدمة الانحراف والعودة بها إلى الحياة الإسلامية الكريمة .

ونشير إلى أهم تلك الأحداث والظروف التي ساهمت في التمهيد للتطورات الكبرى في عهد عثمان والتي عاش آثارها السيئة ، الإمام علي (ع) وهي :

منطق السقيفة

ونعني به الروح القبلية التي سادت وتحكمت بمنطق المتنافسين والإتجاه نحو تقرير مبدأ انحصار السلطة بكل واحد منهم وعدم مشاركة الآخرين في الحكم ،

---

(١) الملقب بالمرتضى ولد سنة ٢٣ قبل الهجرة ، واستشهد سنة ٤٠ ولد بمكة ، وقتل في الكوفة ودفن في النجف الأشرف .

(٢) راجع للتوسع ثورة الحسين ـ محمد مهدي شمس الدين ص ١٥ .

والتأكيد على المبررات الوراثية ، وإستعداد كثير من الأنصار لتقبل فكرة أميرين أحدهما من الأنصار والآخر من المهاجرين ، حتى كان يرى كل جناح أنه أحق من غيره بالأمر [١] ، وعلي بن أبي طالب وغيره من الصحابة بعيدون عنهم لانشغالهم بجثمان النبي (ص) الذي كان لم يدفن بعد [٢] حين اندفع عمر بأبي بكر إلى السقيفة ليبتوا في أمر الخلافة وحين بلغ الإمام علي (ع) بالنبأ رفض البيعة [٣] ورفضها معه أنصاره واستمروا هكذا ممتنعين عن البيعة ستة أشهر كاملة ، بل إن علياً (ع) اعتبر اجتماع السقيفة في غيبته تآمراً .

هذه الروح القبلية هي التي فتحت على المسلمين باباً من أبواب الفتنة كما يصرح بذلك عمر بقوله « إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه ، فأيما رجل بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فإنها تغرّه يجب أن يقتلا » [٤] .

٢ ـ مبدأ عمر في العطاء

بعد أن كان العطاء بين المسلمين بالتساوي في زمن النبي (ص) وكذلك في عصر أبي بكر .. عمد عمر إلى مبدأ التفضيل في العطاء « ففضل السابقين على غيرهم وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين ، وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة ، وفضل العرب على العجم وفضل الصريح على المولى » [٥] .

وبهذا أوجد عمر بوادر الطبقية في المجتمع الاسلامي ، والتي أصبحت

---

(١) الطبري ج ٣١/٥ والكامل لابن الأثير ج ٣١/٣ للوقوف على التفاصيل التاريخية لهذه التكتلات .

(٢) سيرة الرسول لابن هشام ج ١٠١٨/٢ .

(٣) أنظر النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم للمقريزي تحقيق نوس ٤٨ .

(٤) الملك والنحل للشهرستاني .

(٥) ابن أبي الحديد ١١١/٨ .

فتيلاً أشعلت نار الصراع القبلي بين ربيعة ومضر وبين الأوس والخزرج [١] ، والصراع العنصري بين العرب والعجم والصريح والمولى [٢] .. حتى أن عمراً في أواخر حياته أدرك خطر مبدئه وأعلن عزمه على الرجوع إلى مبدأ المساواة في العطاء بقوله « وإن عشت هذه السنة ، ساويت بين الناس فلم أفضل أحمر على أسود ولا عربياً على عجمي ، وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر » [٣] .

٣ ـ الشورى

ونعني بها طريقة عمر في اختيار ستة نفر من قريش وتقديمهم للأمة المسلمة كمرشحين للخلافة من بعده [٤] واقتراحه هذا أثار في نفوس كثير من الأشخاص البارزين في قريش ونفوس قبائلهم وأنصارهم مطامح سياسية ما كانوا ليحلموا بها ، لأنهم رأوا أن بعض من رشحهم عمر لا يفضلونهم في شيء ، بل ربما امتازوا عليهم في أشياء كثيرة .

وترسخ هذا الطموح عندما « تمت تنحية الإمام (ع) مرشح الأكثرية المسلمة عن الخلافة وإسنادها لعثمان بن عفان مرشح الأرستقراطية القرشية ، عندما بادر عبد الرحمن بن عوف بخلع نفسه ليكون في موقف المحايد ويحصر الترشيح في علي (ع) وعثمان ليختار هو بينهما ..

... طلب من علي (ع) أن يبايعه على كتاب الله وسنة رسوله وفعل عمر وأبي بكر ، فقال علي : لا .. ولكني أحاول ذلك جهدي وطاقتي ، وطلب من عثمان نفس ما طلبه من علي فأجابه عثمان على الفور بالموافقة .. فبايعه .. وتمت له

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ١٠٦/٢ .
(٢) إبن أبي الحديد ج ١١١/٨ .
(٣) تاريخ اليعقوبي ج ٢ / ١٠٧ .
(٤) الكامل لابن الأثير ج ٣٦/٣

الخلافة [١] .

وقد عبّر الإمام (ع) عن عدم رضاه عن هذه النتيجة بقوله « لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلاّ عليّ خاصة » [٢] .

وكانت عاقبة الشورى ومن نتائجها نشوء أحزاب وتكتلات قائمة على الولاء الشخصي من ذوي الأهداف الشخصية للوصول إلى الحكم مستغلة أسباب الشكوى والإستياء من عثمان وبطانته وولاته على الأمصار متفاعلة مع أسباب أخرى في أسلوب عثمان ومعالجاته في سياسة المال والإدارة والإجتماع .. حتى كانت نتيجتها قيام الثورة ومصرع عثمان .

* * *

(١) عثمان لطه حسين نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ، حسن الأمين ج ٩٤/٢ .

(٢) نهج البلاغة ، دار الأندلس ج ١٥١/١ .

الإمام وموقفه من الثورة على عثمان

المتتبع لأحداث الثورة وخط سيرها حتى مقتل الخليفة عثمان ، يدرك بأن الثورة وجمهورها الساخط ، لم يكن أرعناً ولا قصير نظر ، بل حاول الثوار مراراً الاتصال بأولياء الأمور والسلطة الحاكمة ومن خلال ممثليهم لكي ينبهوا الخليفة عثمان ويعرفوه على سوء الحكم وضرورة معالجتها .. وكانت تأتيه وفود الأمصار إلى المدينة مرات عديدة حاملة معها طائفة من مطاليبها وأمانيها .. وكانت هذه الوفود في كل مرة تبوء بالفشل وتقابل بالإعراض والجفاء .. فتألبوا ساخطين ، فكان الإمام (ع) يتوسط بينهم وبين الخليفة ، فيوعدهم الخليفة خيراً .. لكن الحدث الأخير للوفد المصري ، أنهم ما إن بارحوا المدينة حتى أوعزت السلطة العليا إلى حاكم مصر بالقبض عليهم ، وما كان من الثوار والمعارضين إلا أن عادوا مرة أخرى يرفعون مطاليبهم بعنف وقوة أشد ، ولم يسعها لجم عواطفها الملتهبة ، بل هبت ساخطة محتجة على رعونة وحماقة هذه التصرفات ، وتريد وضع حدّ لآلامها وبؤسها ..

وكانت مطاليبهم تشمل الآتي :

١ ـ الأخذ بمبدأ العطاء المتساوي الذي سار عليه النبي (ص) دون سياسة التفضيل التي سنّها عمر والتي لا تزال .

٢ ـ تطهير الجهاز الحاكم ولا سيما من مروان بن الحكم وبطانته المتنفذة في استغلال وتسيير دفة الحكم .

٣ ـ الوقوف بحزم تجاه أطماع قريش واستئثارهم بالثروات والمناصب ووضع حدٍّ لها .

٤ ـ الحيلولة دون استذلال الأمراء للأهلين وامتهان كراماتهم كما فعلوا مع أبي ذر عندما تحدّاهم وناقشهم بسلوكهم المنحرف .

٥ ـ الحد من صلاحية الولاة والأمراء في إطلاق أيديهم في التصرف بالخراج والأموال العامة .

وصلت هذه المطاليب إلى عثمان ، ولكنه لم يفعل شيئاً تجاهها بل تجاهلها كلياً ، وترك الأحداث تتأزم وتتفاقم ، وتؤج كالنار في الهشيم ، فتخوف الإمام على نتائج الأمور ، وبادر على الفور إلى الإجتماع بعثمان فقال له : « الناس ورائي وقد كلموني فيك ووالله ما أدري ما أقول لك وما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمرٍ لا تعرفه ، إنك لتعلم ما نعلم ما سبقناك إلى شيء فنجدك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبلغكه ، وما خصصنا بأمر دونك .. فالله الله في نفسك فإنك والله ما تبصر من عمى ، وما تعلم من جهل ، وإن الطريق لواضح بيّن » .

ومما قاله (ع) لعثمان : « إن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية » .

وكان عثمان أحياناً يذعن لنصائح الإمام ، ويعزم على الإصلاح ولكن سرعان ما يتعلل بمختلف الأعذار ولا يستقر على رأي .

وحيال تردد عثمان قال له الإمام (ع) : « ما يريد عثمان أن ينصحه أحد ، اتخذ بطانة غش ليس منهم أحد إلا وقد تسيب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها » (١) .

وكان عمرو بن العاص يحرض الناس علانية على سياسة عثمان ، حتى قال

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ج ٢ ص ٨٧ .

يصف نفسه « أنا أبو عبد الله إذا حككت فرصة نكأتها ، إن كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان » .

وهذه عائشة تجترئ على عثمان وهي تخطب وقد نشرت قميص النبي (ص) قائلة : « هذا قميص النبي لم يبل وقد أبليت سنته » .

أما طلحة والزبير فقد وصلت بهما الحالة إلى إعانة الثائرين بالمال للإحاطة بعثمان ، والجموع الوافدة من كل مكان ، تفتحت ثائرتها ، ومضت في إندفاعها متنمرة غاضبة ، وكان الإمام علي (ع) موقفه من هؤلاء الثائرين كإطفائي الحريق يبذل كل جهده لتخفيف ثائرتهم وإطفاء حريقها الملتهب .

وما كان من عثمان إلا أن استمهل الثوار ثلاثة أيام لكي يجتمع بهم بعدها ليكون إجتماعاً حاسماً وفاصلاً ، فلما انتهت اجتمعت جماهير غفيرة على بابه ولم يخرج لهم ، بل خرج عليهم مروان مبعوثاً عنه ، فخاطبهم بكلمات ملؤها الرعونة والاستعلاء قائلاً :

« ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب ؟ شاهت الوجوه كل إنسان أخذ بأذن صاحبه ؟.. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ اخرجوا عنا ، أما والله لئن رمتمونا ليمرّن عليكم أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم ارجعوا إلى منازلكم والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا » .

كانت هذه الخطبة الملغومة بمثابة الفتيل الذي أشعل نار الثورة .. فأرسل عثمان على الفور على الإمام علي (ع) فأبى أن يأتيه وقال (ع) : « قد أعلمته أنني لست بعائد » [1] لأنَ الإمام علي (ع) كبر عليه منطق مروان الذي فاجأ به الجمهور المحتشد بلسان الخليفة بعد أن ملأ كلامه حمقاً ورعونة لا تطاق ، ورأى أن قيمة وسلطته لا تعني شيئاً لأنها لا تجدي نفعاً ، وقد اقتنع واثقاً بأن عثمان سيضطر تحت ضغط الجمهور إلى إجابة مطالبهم الإصلاحية وتنحية مروان وبطانته .

(١) المصدر السابق نفسه .

ولكن شيئاً من هذا لم يقع ، بل تحولت كل الوقائع إلى مؤشرات بارزة تؤكد حتمية الثورة ، حيث بلغت المأساة قمتها ، وفعلاً كانت الثورة بمقتل عثمان .

الامام (ع) وموقفه من تولي الحكم

بعد مقتل عثمان ، توجهت أنظار الثوار إلى الإمام علي يطلبون منه أن يلي الحكم ـ ولكنه أبى عليهم ذلك ، لا لأنه لم يأنس من نفسه القوة على ولاية الحكم وتحمل تبعاته ـ وخصوصاً بعد أن رأى المجتمع الإسلامي يتردى في هوة عميقة من الفوارق الإجتماعية والاقتصادية بسبب سياسة ولاة عثمان خلال مدة خلافته، ورأى أن التوجيهات الإسلامية ومفاهيمها العظيمة التي عمل لها النبي (ص) طيلة حياته فقدت الكثير من فاعليتها في توجيه الناس ، وأخذت تتضاءل بعد وفاته (ص) « وإنما صار الناس إلى واقعهم هذا لأنهم فقدوا الثقة بالقوة الحاكمة التي تهيمن عليهم ، فراحوا يسعون إلى إقرار حقوقهم وصيانتها بأنفسهم ، وهكذا انقطعت الصلة بينهم وبين الرموز المعنوية التي يجب أن تقود حياتهم ، والسبيل إلى تلافي هذا الفساد هو إشعار الناس أن حكماً صحيحاً يهيمن عليهم لتعود إلى الناس ثقتهم الزائلة بحكامهم ولكن هذا لم يكن سهلاً قريباً ، فثمة طبقات ناشئة لا تسيغ مثل هذا ، ولذلك فهي حرية بأن تقف في وجه كل منهج إصلاحي ومحاولة تطهيرية .

إذن فقد كان الإمام (ع) يدرك نتيجة لوعيه العميق للظروف الإجتماعية والنفسية التي كانت تجتاح المجتمع الإسلامي في ذلك الحين ، ولأن المدّ الثوري الذي انتهى بالأمور إلى ما انتهت إليه بالنسبة إلى عثمان يقتضي عملاً ثورياً يتناول

دعائم المجتمع الإسلامي من النواحي الإقتصادية والإجتماعية والسياسية [١] .

ومن هنا كان رفض الإمام (ع) وامتناعه عن الإستجابة الفورية لضغط الجماهير والصحابة عليه بقبوله الخلافة ، فقد أراد أن يضعهم أمام اختبار يكتشف به مدى استعدادهم لتحمل أسلوب الثورة في العمل لئلا يروا فيما بعد أنه أستغفلهم واستغل إندفاعهم الثوري حين يكتشفون صعوبة الشروط التي يجب أن يناضلوا الفساد الذي ثاروا عليه في ظلها » [٢] .

ولهذا أجابهم الإمام (ع) بقوله : « دعوني والتمسوا غيري ، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت واعلموا إني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل ، وعتب العاتب ، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ، ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أمير » [٣] .

ولكن الناس أصروا عليه أن يلي الحكم ، فاستجاب لهم .

* * *

---

(١) وقد حدد علي (ع) هذه الحقوق في مناسبة قاسية من مناسبات حياته وذلك بعد صفين في خطبة له . راجع نهج البلاغة ج ١ ـ ص ١٠٢ ـ ١٠٥ .

(٢) راجع للتوسع ثورة الحسين ، لمحمد مهدي شمس الدين ص ٣٥ ـ ٣٨ .

(٣) نهج البلاغة ج ١ ص ٢١٧ .

الإمام (ع) في الحكم

تسلم الإمام الحكم في مجتمع ورث الفساد وكانت تنتظره مشاكل معقدة كثيرة على مختلف الأصعدة ، فعالنهم الإمام (ع) بسياسته الثورية الجديدة التي قرر أن يتبعها من أجل تحقيق الأهداف التي قبل الحكم لأجلها .

وقد تناولت سياسته الثورية ثلاثة ميادين هي :

١ ـ الميدان الحقوقي .

٢ ـ الميدان المالي .

٣ ـ الميدان الإداري .

وقد أثيرت ـ مع الأسف ـ حول سياسة الإمام (ع) وإصلاحاته الكثير من الشكوك والأحكام المرتجلة . حتى شاعت في كتب التاريخ ، واتخذها قارئو التاريخ قضيته مسلماً بها مفروغاً من بحثها والإستدلال عليها ، وخصوصاً سياسته الإدارية التي كثرت فيها الأحكام وراجت حولها الآراء المغلوطة .. وهذا ما سوف نناقشه بالتفصيل وبأسلوب تحليلي عميق لنستوضح من خلالها حقيقتها بعد أن نمر بالميدانين الحقوقي والمالي بصورة عابرة .

١ ـ الميدان الحقوقي : تناولت إصلاحاته في المجال الحقوقي إلغاء مبدأ التفاضل في العطاء ، وإعلان مبدأ المساواة الذي يساوي فيه كل المسلمين ويعتبرهم سواء في الحقوق والواجبات .

فجاء قوله (ع) : « الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له ، والقوي عندي

ضعيف حتى آخذ الحق منه [١] .

٢ ـ الميدان المالي : وركز من خلاله على نقطتين مهمتين :

أولاً : الثروات غير المشروعة التي تكونت أيام عثمان .

ثانياً : أسلوب توزيع العطاء التفضيلي .

حتى أن الإمام (ع) صادر جميع ما أقطعه عثمان من القطائع وما وهبه من الأموال العظيمة لطبقة الأرستقراطيين ، وعالنهم بسياسته في توزيع المال بقوله : « أيها الناس إني رجل منكم لي ما لكم وعلي ما عليكم وإني حاملكم على منهج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمره ، إلا وإن كل قطيعة أقطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال ، فإن الحق لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوج به النساء وملك الإماء وفرق في البلدان لرددته ، فإن في العدل سعة ، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق [٢] .

ولعل قادة الطبقة الثرية فكرت في مساومة الإمام علي (ع) على بذل طاعتهم له على أن يغضي عما سلف منهم ، فأرسلوا إليه الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وقال له : « يا أبا الحسن ، إنك قد وترتنا جميعاً ونحن إخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف ، ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال أيام عثمان ، وأن تقتل قتلته وإنا إن خفناك تركناك فالتحقنا بالشام » [٣] .

أما الإمام علي (ع) فأكد لهم في خطبة له بكل وضوح على عزمه في مواصلة تطبيق المنهج الذي بدأ به فقال : « فأما هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه أثره ، وقد فرغ الله من قسمته فهو مال الله وأنتم عباد الله المسلمون ، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا ، وعهد نبينا بين أظهرنا فمن لم يرض به فليتول كيف شاء [١] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) نهج البلاغة ج ١ ص ٥٩ وشرح النهج جزء ١ ص ٢٦٩/٢٧٠ .

(٣) (٤) شرح نهج البلاغة ج ٧ ص ٣٧ ـ ٣٩ ـ ٤٠ .

الميدان الاداري

باشر الإمام (ع) سياسته الإدارية بعملين :

١ ـ بعزل ولاة عثمان على الأمصار قائلاً : « ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها ، فيتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً ، والصالحين حرباً ، والفاسقين حزباً ، فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام ، وجلد حداً في الإسلام وإن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ »[١] .

فقد قرب عثمان ممن طردهم الرسول (ص) أو أقصاهم ، لقد رد عمه الحكم ابن أمية إلى المدينة بعد أن طرده الرسول (ص) وأصبح يسمى طريد رسول الله وآوى عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان النبي (ص) قد أهدر دمه وولاه عثمان مصر كما ولى عبد الله بن عامر البصرة فأحدث فيها من الأحداث ما جعل المؤمنين ينقمون عليه وعلى عثمان[٢] .

٢ ـ إسناد ولايتها إلى رجال من أهل الدين والعفة والحزم ، وذلك لأنه (ع) وجد أن أكبر عناصر الشكوى ، وأهم أجزائها هو الجزء الخاص بالأمراء والولاة ، فبادر عليه السلام إلى تغيير التعيينات القديمة فأصدر أمره بتولية عثمان بن حنيف على البصرة ، وسهل بن حنيف على الشام وقيس بن سعد بن عبادة على مصر وأبي موسى الأشعري على الكوفة وهي الأمصار الكبرى آنذاك .

---

(١) نهج البلاغة .

(٢) النظم الإسلامية نشأتها وتطورها د . صبحي الصالح ص ٩١ .

وقد كلمه الكثيرون ومنهم المغيرة بن شعبة بشأن ولاة عثمان فأشار عليه بأن يثبت هؤلاء الولاة على أعمالهم ، ولكنه أبى عليه ذلك وعزلهم ، وهكذا فعل مع طلحة والزبير بشأن ولاية الكوفة والبصرة وردهما رداً رفيقاً مما حملهما للضغط على الإمام (ع) والتشكيك بقيادته ونكث بيعتهما له والمجاهرة بمطالبته بدم عثمان ، متناسيين أنهما كانا من بين المحرضين على الثورة على عثمان ، بل وطالبوا بإعادة طرح أمر الخلافة شورى بين المسلمين ، وزعما أنهمو بايعا علياً عن إكراه وأن بيعتهما لهذا لا تجوز [١] .

ويتضح موقف الإمام (ع) من إبعاد طلحة والزبير عن ولاية البصرة والكوفة بالرغم من الآراء التي اعتبرته عملاً سياسياً يتسم بقصر النظر .. وتتضح سلامة هذا الموقف بأن المواقف الممكنة من طلحة والزبير لا تخرج عن أربعة مواقف كلها أغمض عاقبة ، وأقل سلامة ، وأضعف ضماناً من موقفه الذي ارتضاه [٢] .

فالموقف الأول : أن يقوم بتوليتهما البصرة والكوفة ، وقد كان عبد الله بن عباس على هذا الرأي ولم يرتضه الإمام (ع) لأن البصرة والكوفة فيهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوي بالسلطان ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية .

والموقف الثاني : أن يعمل الإمام (ع) على الوقيعة بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل ، وهو بعمله هذا سوف يعطي أحدهما ويحرم الآخر ، فمن أعطاه لا يضمن انقلابه ، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره إلى الشام ليساوم معاوية أو يبقى في المدينة على ضغينة مستورة .

والموقف الثالث : أن يعتقلهما أسيرين ولا يبيح لهما الخروج من المدينة إلى مكة حين سألاه الإذن بالمسير إليها ، ثم خرجا منها إلى البصرة ليشنا الغارة عليه ، وكان يعلم (ع) بأمرهما حين سألاه الإذن بالسفر إلى العمرة ، فقال لهما « ما العمرة

---

(١) اليمين واليسار في الإسلام . أحمد عباس صالح ١١٨ ــ ١١٩ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية نقلاً عن الكاتب عباس محمود العقاد ص ٨٤ .

تريدان وإنما تريدان الغدرة » .

وأغلب الظن لو أن الإمام أقدم على حبسهما لأثار عواطف الناس عليه ونقموا حبسهما قبل أن تثبت البينة بوزرهما بل ربما شكك بعض أنصاره في سياسته تجاههما .

ومن تلك الأحكام المرتجلة التي اتهموا الإمام بها قولهم في سياسته الإدارية وخصوصاً عزل معاوية والي الشام وقبوله التحكيم في حربه ضده ـ في صفين ـ . ومعلوم أن الإمام (ع) لم يقبل بالتحكيم إلا بعد أن أحجم جنده عن الحرب ، ووقعت الخلافات في صفوفهم وأخذت تتفاقم إلى حد التهديد بالخطر والإقتتال بين الرافضين والقابلين بالتحكيم ، حتى أنهم هددوا بقتل الإمام كما قتل عثمان ، وأحاطوا به يلحون عليه في استدعـاء الأشتر النخعي الذي كان يلاحق أعداءه مستأسداً في ساحة الحرب على أمل النصر القريب .

أما المؤرخون الذين صوبوا رأيه في التحكيم وخطأوه في قبول أبي موسى الأشعري على علمه بضعفه وتردده ، ينسون أن أبا موسى الأشعري كان مفروضاً عليه كما فرض عليه التحكيم ، والنتيجة واحدة متشابهة لو ناب عنه الأشعري أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس . لأن عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر علياً بالخلافة ، وإن توهم بعضهم أن الأشتر أو ابن عباس كان قديراً على تحويل ابن العاص عن رأيه والجنوح به إلى حزب علي .. فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع يعز عليهم إخفاقهم كما يعز عليه شخصياً .

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين إذن حلٌ أصوب من الحل الذي أذعن له الإمام (ع) على كره منه ، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن له وهو يسوي بينه وبين غيره في عقباه [1] .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٨٦ .

أما عزله (ع) لمعاوية فهي القضية التي استأثرت باهتمام المؤرخين وكتاباتهم ، حتى وصل بهم القول « بأن معاوية ضرورة حتمية في التاريخ العربي باعتباره مرحلة من مراحل بناء الدولة وتركزها جاعلين من معاوية رجل دولة وسياسة ودهاء التزم سياسة واقعية بارعة مقابل سياسة خيالية مغرقة بالمثل الأخلاقية التي اتبعها خصمه الإمام علي » (١) .

والآن نسأل هل كان بمستطاع الإمام (ع) أن يقر معاوية في عمله بالشام وهل كان موقفه هذا صحيحاً لو أنه استطاع ؟

ويجيب عباس محمود العقاد « أن ليس بإمكان الإمام أن يقر معاوية في عمله لسببين : —

لأنه أشار على عثمان مراراً بعزله ، وكان وجود معاوية وأمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان ، فلو أقره فماذا يكون موقف أشياعه فيه ، وما سيقوله الناس ؟.

وإذا هو أعرض عن رأيه الأول فهل في وسعه أن يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان إلى حكم جديد ؟.. وندع هذا ونزعم أن إقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع .. فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى إلى الوفاق ؟.

نقول : كلا على الأرجح ، لأن معاوية لم يعمل في الشام عمل والٍ طوال حياته ، ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول إلى ما وراءه ، لكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده ، فجمع الأقطاب من حوله ، واشترى الأنصار بكل ثمن في يديه وأحاط نفسه بالقوة والثروة واستعد للبقاء الطويل ، واغتنام الفرصة في حينها فأي فرصة هو واجدها خير من مقتل

(١) الدولة العربية إلى نهاية الدولة الأموية ، يوليوس فلهاوزن ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ص ١٥٨ .

عثمان والمطالبة بثأره .[1]

والنجاح الذي أحرزه معاوية لا يرجع إلى براعته في المناورة والخداع ، واستعماله لكل الأساليب التي أنف الإمام علي بن أبي طالب أن يلجأ إلى أقل القليل منها بل يرجع أساساً إلى اختلاف طبيعة موقف الإمام عن طبيعة موقف معاوية وإلى مواتاة الظروف الإجتماعية للأخير .

(١) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية نقلاً عن الكاتب العقاد ص ٨٤ .

طبيعة موقف الامام (ع) ومعاوية من الصراع

كان يوجد منذ البدء في طبيعة موقف الإمام الذي مثل أطروحة ـ الدعوة الإسلامية ـ وطبيعة موقف معاوية الذي كان يمثل خط الإنحراف ، ما يفرض أو ما يقرب النتيجة التي انتهى إليها الصراع بينهما (١) .

وهناك عدة مؤشرات ونقاط يجب أن تكون موضع اعتبار عندما نعرض لطبيعة الصراع بين الإمام (ع) ومعاوية .

أولاً : كانت طبيعة موقف الإمام من الصراع وملابسات الظروف تتمثل بالهجوم على معاوية وتصفيته سياسياً ، فعمليته كانت على مستوى الغزو ، وكانت عملية معاوية على مستوى الدفاع .

فالإمام عندما تسلم مسؤولية الحكم في الدولة الإسلامية وجد نفسه مسؤولاً بشكل مباشر عن تصفية الإنشقاق ومحاولة التمرد غير الشرعي الذي أوجده معاوية وخط بني أمية « الذين تولوا السلطة والذين تنطبق عليهم صفة الطلقاء وأبنائهم وممن وقفوا من الإسلام موقف خصومة وعداء وقد أعلنوا إسلامهم تقية

---

(١) ولنا أن نعجب ونرثي لتلك الآراء التي تعبر عن نفسها بوقار العلم والموضوعية وبمنطق ضحية التاريخ لتصوير طبيعة الصراع على أنها مرحلة من مراحل بناء الدولة ، وأن معاوية كان رجل دولة وسياسة ودهاء التزم سياسة واقعية بارعة في مقابل سياسات خيالية اتبعها خصومه من أصحاب الدعوة إلى العدل الإجتماعي والكرامة الإنسانية ، ومع ذلك فالدولة الأموية لم تعمر طويلاً إذ انهارت تحت ضربات الثوار .

ونفاقاً »[1] .

فكانت مهمة التصفية وإزالتها من جسم الأمة الإسلامية هي قدر الإمام علي (ع) ومشكلته الملحة التي يجب أن يعالجها بأسرع وقت . والإمام علي (ع) حينما ركز عاصمته ، وقاعدته الشعبية في العراق كان مطلبه السياسي الأول هو تعبئة هذه القاعدة والتي يستند إليها في تسيير الحكم ، ثم العمل من خلالها على تصفية التجزئة غير المشروعة التي أوجدها معاوية في جسم الأمة الإسلامية .

فمهمة التخطيط للتصفية كانت تعني بالنسبة للإمام (ع) أن يبدأ معاوية بالهجوم والغزو ، وأن ينقل قاعدته الشعبية ويكلفها بأن تقوم وتتحرك وتخرج من بلادها مهاجرة في سبيل الله لكي تقضي على أزمة الانحراف والتي تمثلت بالتجزئة ـ الغير مشروعة ـ التي أرادها وأوجدها معاوية وبنو أمية في جسم الدولة الإسلامية وقد قدر لها أن تتركز في ثغر من ثغور المسلمين (الشام) ، بينما لم يكن معاوية على هذا المستوى ولم يكن موقفه موقف الغازي أو المهاجم ، بل كان همه الأوحد أن يمسك الشام ويكرس انفصالها عن باقي أجزاء الوطن الإسلامي .

وإزاء هذه الحقيقة ، لا بد من أن ندرك فارقاً كبيراً يميز طبيعة كلا الموقفين وأثرها على طبيعة الصراع ... فالفرق كبير جداً بين قائد يأمر جيشه بأن يتحرك من بلاده مهاجراً ليخوض معركة ـ هجومية ـ لا يوجد أي اعتبار أو دافع لخوضها سوى إحياء الرسالة الإسلامية ولم تكن هناك اعتبارات خاصة وراء هذه المعركة حيث أن العراقيين لم تتعطل مصالحهم بسبب انفصال الشام ولم يكونوا موتورين من الشاميين بما هم شاميين ، وإنما كانت اعتبارات الرسالة ودوافعها الإنسانية هي الإعتبار الوحيد والدافع الذي يستصرخهم ويناديهم إلى خوض معركة تصفية الإنشقاق والقضاء على التجزئة التي منيت بها الأمة . فهم إذن وعلى ضوء هذه

---

(١) اليمين واليسار في الإسلام ، أحمد عباس صالح ص ٩٠ .

الحقيقة يجب أن يكونوا مدفوعين للمعركة بدافع رسالي كبير ، وأن يكونوا بمستوى عظيم من فهم القضية وإدراك أبعادها وتبين مضمونها ، حتى يكونوا بمستوى العطاء لها ، سواء بنفوسهم أو أرواحهم وأموالهم .

بينما هذا المستوى من العطاء لم يكن هو أطروحة معاوية لجيشه فهو لم يطالب جيشه باحتلال العراق ، ولا بغزو باقي أجزاء العالم الإسلامي ، إنما كان يمنيهم بسيادة واستقلال ، وفي النهاية وعلى الخط الطويل في تنفيذ زعامة الوطن الإسلامي في الشام . أما الأشخاص الذين كانوا يدورون في فلك الإمام (ع) وحاربوا معه فقد كان منهم العدد الكبير من الواعين وأنصاف الواعين ، هؤلاء هم الذين استجابوا لمطالب الرسالة منذ اللحظة الأولى ، وشعروا بأن واجبهم الإسلامي يفرض عليهم تصفية التجزئة ووضع حد لها فأعطوا من التضحيات ما أعطوا ، وخاضوا عدة معارك باسلة ، وقدموا للقضية الإسلامية التي طرحها الإمام (ع) عطاء لا يستهان به .

ولكن كان لا بد لهذا العطاء من أن يتناقص تدريجياً وفقاً لمستوى انقيادهم للإمام (ع) أو لمستوى وعيهم للقضية « وخصوصاً رؤساء القبائل الذين دخلوا المعركة وهم تحت سلطان الدولة برئاسة الإمام علي من ناحية وتشيعاً لأهل العراق ضد أهل الشام من ناحية أخرى وطمعاً في السيادة والغلب إذا كتب النصر لعلي وهناك القوى المؤيدة لسياسته من الناحية الإجتماعية سواء عن وعي أو بحكم وضعها الطبقي » (١) .

وهذه الحقائق هي التي تفسر لنا ظاهرة الخيانات المتلاحقة التي ظهرت في صفوف جماعة علي « وليس أغربها موقف ابن عمه عبد الله بن عباس ومن بعده أخوه عبيد الله اللذين صالحا معاوية على أن يترك لهما ما حملا من بيت المال

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٣٨

بعد مقتل الإمام علي » [١] .

ولهذا لم تكن الأطروحتان متكافئتين من حيث درجة الجهد ومن حيث درجة الطرح ومن حيث درجة الدفع والتحريك .

فهناك أطروحة تريد من الجيش أن يخرج من بيته مهاجراً يغزو في سبيل الله ، وأطروحة أخرى تريد من الجيش أن يبقى في بيته وأن يحافظ على استقلال وطنه في أرضه .

هذا الفرق الكبير بين الأطروحتين ودرجة الجهد التي تتطلبها كل منهما كان له دور كبير في طبيعة موقفيهما .

ثانياً : كان الإمام علي (ع) يواجه انحرافاً من داخل المجتمع الإسلامي الذي يحكمه نتيجة للظروف والملابسات السياسية التي سبقت حكمه بالإضافة إلى مسؤوليته (ع) في تصفية التجزئة السياسية في العالم الإسلامي التي كانت شغله الشاغل آنذاك .

وكان لا بد للإمام (ع) أن يخوض معركة ضد هذا الانحراف الداخلي الذي كان يعيشه المسلمون في العراق والحجاز والعالم الإسلامي بشكل عام .

فالإمام (ع) كان بين معركتين ، معركة ضد التجزئة السياسية ، ومعركة ضد الإنحراف الداخلي في المجتمع الإسلامي ، والذي تمثل في سياسة سابقة من التحيز اللاإسلامي » [٢] . حتى رأينا بعد حين كيف أن التجربة الإسلامية أخذت تنهار تحت وقع الضربات التي وجهها هؤلاء (المنافقون) بعد أن استطاعوا التسلل إلى مراكز النفوذ بالتدريج ، مستغفلين قياداتها ومن ثم صادروا تلك القيادات بكل وقاحة وعنف ، حتى تحولت الخلافة إلى ملك موروث يستهتر بالكرامات

---

(١) نفس المصدر ص ١٤٢ .

(٢) راجع ما كتبناه في موضوع الميدان الإداري ص ٨٩ .

ويقتل الأبرياء ويبعثر الأموال ويعطل الحدود ويجمد الأحكام [1] .

ومن هنا كان قدر الإمام (ع) في تصفية هذه الأوضاع المنحرفة وتقليم أظافرها ، واسترجاع الأموال من الخائنين ، والبدء بحرب دون هوادة لكل الأفكار والمفاهيم المنحرفة غير المنسجمة مع خط الإسلام .

وقد شملت إجراءات الإمام (ع) بعض الزعماء المتنفذين كطلحة والزبير حتى أنهما دبرا حركة تمرد في البصرة تستهدف إسقاط حكم الإمام (ع) وذلك تحت ستار الثأر لعثمان .

وعلى ضوء حقائق مجتمع الإمام (ع) وظروفه المعقدة ، كانت تنتظره معركة كبيرة ومضنية في الداخل ، وكان من المفروض لهؤلاء أن يكونوا بجانبه في معركته الخارجية في تصفية الإنشقاق .

وعلى العكس بالنسبة لمعاوية ، فإنه لم يكن يعيش معركة تغيير وتصحيح داخل مجتمعه ، بل إنه كان يعمد إلى « شراء الضمائر بالمال ويفضل طائفة بحرمان أخرى ، ولا يهمه أن ينزل بدافعي الضرائب من الزراع والتجار أفدح الظلم في سبيل الحصول على الأموال الكافية لتغذية أطماع حفنة من رؤساء القبائل ، لتكون على استعداد تام في قمع ولجم أي حركة تحريرية تقوم بها جماعة من الناس » [2]

ومن الجدير بالإشارة ـ كما تجمع كل المصادر التأريخية ـ أن الشام دخلت الدولة الإسلامية بالفتح العسكري ، والمعروف أن الإسلام لم يدخلها دخولاً كبيراً ، بل دخلها بالإسم والإشعارات الأولية فقط ،ولم يدخل بمضمونه الحقيقي الواعي إلى قلوب أهل الشام ، فهم ما يزالون يعيشون راسباً جاهلياً متأثرين بالأفكار التي

---

(١) بحث في الولاية لسماحة السيد محمد باقر الصدر .

(٢) ثورة الحسين . محمد مهدي شمس الدين ص ٤٦ .

آمنوا بها قبل الإسلام ، حتى أن أوضاعهم الفكرية والإجتماعية والسياسية لا تختلف بدرجة كبيرة عما كانوا عليه قبل الإسلام .

ولم يكن معاوية يرى أي تناقض بين أهدافه وأطروحته ، وبين المجتمع الشامي الذي كان بوضعه الفكري والإقتصادي والسياسي والإجتماعي مؤهلاً تماماً لتقبل أطروحة معاوية .

وكانت أهدافه تتلخص بزعامة ملكية قيصرية لا تؤمن بالإرتباط الحقيقي بالله تعالى . بينما أطروحة الإمام علي (ع) كانت تواجه انحرافاً مزمناً منذ وفاة النبي (ص) ، وكان الإمام (ع) مسؤولاً عن تصفيتها وإزالتها دون رجعة .

فمعركة الإمام (ع) الداخلية التي كان يواجهها لم يكن معاوية يواجه نظيراً لها في مجتمعه .

ثالثاً : إن مركز الإمام (ع) قبل الخلافة وقبل خوض المعركة كان يختلف اختلافاً كبيراً عن مركز معاوية قبل خوض المعركة مع الإمام (ع) . فالإمام (ع) كان قد تكون له في نظر المسلمين ــ المفهوم الرسمي للخلافة ــ قبل تسلمه لمسؤوليات الخلافة ، وهو أن الإمام (ع) ليس إلا صحابياً جليلاً له خدمات جليلة أثناء حياة الرسول (ص) فحاله كحال غيره من الصحابة الأجلاء من ذوي الخدمات الكبيرة في زمن النبي (ص) . هذا الإتجاه الذي أدانه الإمام (علي) منذ اللحظة الأولى ، واستنكر ما اتجهت إليه مقررات السقيفة من تجميد لأطروحته في الزعامة الفكرية والسياسية وإسناد السلطة إلى غيره ، وامتنع من تقديم البيعة لستة أشهر كاملة (1) . حتى أن المسلمين وبالتدريج ــ وخضوعاً للأمر الواقع ــ وبحكم السياسة الحاكمة على يد الخلفاء الثلاثة ــ بدأوا يعاملون علياً على هذا الأساس (أي بإعتباره الصحابي الجليل لا أكثر) ... وبحكم هذا التقييم

---

(1) الإحتجاج للطبرسي .

كان يوجد كثير من الصحابة ممن كانوا يرون أنهم لا يقلون عن الإمام (ع) أو يقلون عنه بدرجات ، أو على أحسن تقدير أن الفارق بينهم وبينه فارق تافه .. فهم صحابة رسول الله وهو كذلك صحابي رسول الله ، هم أخذوا العلم من الرسول وهو أخذ العلم من رسول الله .. فهم كانوا يعترفون للإمام (ع) بأنه الأفضل والأروع والأكثر اجتهاداً منهم ـ على أفضل تقدير ـ فالفارق إذن لم يكن سوى درجة ليس إلا ...

هذا الوضع الذي تحدثنا عنه لم يتواجد نظيراً له في المجتمع الشامي هذا المجتمع الذي لم يكن يعرف غير معاوية بن أبي سفيان . لأن الشاميين دخلوا الإسلام على يد أخ معاوية وهو يزيد بن أبي سفيان والي بعثة أبي بكر إلى الشام ، ولما مات يزيد ولى أبو بكر بعده أخاه معاوية بن أبي سفيان [1] .

فأهل الشام كانوا كفاراً ودخلوا الإسلام على يد معاوية وأخيه يزيد فنظرتهم إلى معاوية نظرة احترام وتقدير باعتباره همزة الوصل بينهم وبين الإسلام .

هذه الحقيقة استفاد منها الأمويون عندما حاربوا الحسين (ع) فيما بعد حاربوه باعتباره شخصاً مارقاً من الدين ومخالفاً للإمام الشرعي ، وانطلقوا في محاربتهم إلى ما عهدوه من السند الديني للأمويين في نفوس الشاميين »[2] .

فنظرة أهل الشام ورجالاتهم إلى معاوية ـ على ضوء هذه الحقيقة ـ تختلف عن نظرة أهل المدينة والعراق إلى الإمام (ع) .. وهذه النظرة المختلفة التي أوجدت باستمرار في حياة الإمام (ع) تناقضاً وكثيراً من الآراء والإجتهادات المتضاربة ، وامتناعاً في كثير من الأحيان عن قبول رأي الإمام (ع) بينما كان أهل الشام يتلقون أوامر معاوية بالتسليم والطاعة التامة .

---

(١) صانعو التاريخ العربي د . فيليب حتي .

(٢) الدولة العربية سقوطها . ولما وزن والطبري ج ٤ ص ٣٣١ .

رابعاً : إن دعوى الإمام (ع) في معاوية لم تكن على مستوى (الحس) إنما كانت على مستوى « الوعي » والواعون لم يكونوا كل المسلمين « بل أغلب الناس عادة يخضعون في فهمهم للواقع لتفسيرات سطحية ـ أقرب ما تكون للحس ـ والتي تستسلم للأسباب القريبة الجاهزة التي تبدو للعين من أول نظرة ، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عما وراء الواقع الحسي أو يحاولوا التعرف على الدوافع الرسالية البعيدة التي ساهمت في نشوء هذا الواقع أو ذاك [١] .

أما دعوى معاوية في علي (ع) فقد صورها وأخرجها وكأنها على مستوى « الحس » والناس كلهم يعيشون « الحس » وقلة منهم يعيشون حالة الوعي الرسالي .

الإمام علي (ع) كان يقول : إن معاوية لا يمثل خطاً من خطوط الإسلام ورسالته العظيمة ، وإنما يمثل جاهلية أبيه (أبو سفيان) وأنه يريد أن يقضي على الكيان الإسلامي وتحويل المجتمع الإسلامي إلى مجتمع آخر لا يؤمن بالإسلام وبالقرآن ، ويريد للخلافة أن تتأطر بإطارات قيصرية وكسروية . كان هذا هو ادعاء الإمام (ع) في معاوية .

أما ادعاء معاوية في الإمام (ع) فيتلخص : بأن الإمام (ع) أثار الناس وهيجهم للثورة على عثمان بن عفان الخليفة الشرعي وقتئذٍ ، وأن أصحابه وأهله كانوا في طليعة الثوار على عثمان ، وأن علياً (ع) قد خطط عن طريق هؤلاء الأصحاب لقتل عثمان ومن ثم تربع على كرسي الحكم بعده ، « ومضى يتجادل على أساس هذه الدعوى الحسية بينما أخفى هدفه الأصيل طي الكتمان ، ولم تلبث المجادلات حول الحجة تتراكم حتى تغطي فعلاً على الحقيقة »[٢]

---

(١) مفاهيم إسلامية عامة الحلقة الخامسة . السيد محمد حسين فضل الله ص ٤٣ .

(٢) اليمين واليسار في الإسلام ص ١١٨ .

ما أقرب دعوى معاوية للتصديق على مستوى (الحس) . وهل هناك شخص يعيش الأرقام التي كان يقدمها معاوية عن هؤلاء الأصحاب والتي باشرت بنفسها قتل عثمان أو التي ساعدت وحرضت على ذلك أمثال : محمد بن أبي بكر ، وأبي ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر ، ومالك الأشتر ، ومحمد بن أبي حذيفة وعبيد الله بن مسعود وغيرهم من المسلمين الذين كانوا الدعامة الشعبية لحكم الإمام (ع) « وقد جاهر عمار بالهجوم على الخليفة ، كما جاهر أبو ذر باتهام الخليفة وعماله بالخروج على الشريعة الإسلامية وراح يحض الأغنياء على أن يطرحوا كنز المال حتى نفاه عثمان إلى الشام ليكون تحت رقابة معاوية وكان يحرض الفقراء ليقوموا بالثورة ، وكان محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر في مصر يدعوان إلى مثل ما دعا به أبو ذر ، وفي الكوفة هاجم الأشتر حكم عثمان بخطاب ناري يتهمه بالجور والظلم » [1] .

فهل هناك تفسير أقرب إلى الحس من أن يكون الإمام علي قد قتل عثمان بيد ، واستلم الحكم ليتربع عليه باليد الأخرى ...

نقول ـ على ضوء هذه الحقائق ـ أن تفسير معاوية كان مقبولاً إلى حد ما ، لأنه كان قريباً من (الحس) .

أما تفسير موقف الإمام (ع) من معاوية فقد كان يحتاج قدراً كبيراً من الوعي .

نحن اليوم ننظر إلى معاوية بعد أن انتهى وانكشف لنا أمره ، عندما صعد المنبر عام الجماعة قائلاً :

« ما حاربتكم لتصلوا وتصوموا ولتحجوا ولا لتزكوا ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم ، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون » [2] .

---

(١) دائرة المعارف ص ٩٧ .

(٢) أعيان الشيعة ج ٤ ص ٢٦ ويقرأ أيضاً ابن أبي الحديد .

ونحن ننظر إلى معاوية بعد أن قتل الأبرياء كحجر بن عدي والأبطال الأبرار من إخوان حجر ، وبعد أن سمّ الإمام الحسن بن علي (ع) ، وبعد أن أعطى ولاية العهد إلى ابنه الفاسق الفاجر ـ يزيد ـ متحدياً معاهدة الصلح التي أبرمها مع الإمام الحسن (ع) ضارباً بها عرض الحائط ويقول : « كنت منيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها ... وإن كل مالٍ أو دمٍ أصيب في هذه الفتنة لمطلول وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين » [١] .

فنحن ننظر إلى معاوية من خلال هذه المقاييس والإعتبارات وبعد أن انتهى وأصبح في ذمة التاريخ . أما أولئك الجماهير الكبيرة من المسلمين فلم يكونوا ينظرون لمعاوية بهذا الإعتبار والمنظار لأنهم لم يعيشوا هذه الأحداث بهذا الوضوح الذي ننظر إليه .

فلو أسقطنا النظر عن تاريخ معاوية فيما بعد ولاحظنا معاوية فيما قبل . لو لاحظناه بمنظار أولئك الجماهير غير الواعية ، التي عاشت مع أبي بكر وعمر وعثمان وفضلتهم على الإمام (ع) وتأملنا تلك الجماهير غير الواعية وهي تطرح السؤال التالي :

من هو معاوية ؟. فكانت الإجابة بأنه أحد صحابة رسول الله (ص) وأحد معتمدي الخليفة أبي بكر وقد أرسله الأخير قائداً لجيشه في سوريا ومن ثم ولاه عمر عليها ، وكان يوليه درجة كبيرة من ثقته ، وخصوصاً عمر هو ذلك الشخص الذي تقدسه هذه الجماهير .

إذن معاوية بذلك المنظار ليس هو معاوية الذي ننظر إليه هذا اليوم ، معاوية كان يطالب علياً بقتلة عثمان ، وكان يتهم علياً بالتحريض على قتل عثمان ، ويقول في الإمام (ع) بأنه قادر على إقامة الحد والقصاص على قاتل عثمان ، فإذن لماذا

---

(١) نفس المصدر السابق .

لا يسلم إلينا قاتل عثمان وإن لم يكن يقدر على ذلك فهو إذن عاجز عن تطبيق الشرع ، فليعتذر إذن عن الخلافة وليأتي شخص آخر أجدر منه لخلافة المسلمين [1] .

هذه هي دعوى معاوية بالإمام علي (ع) . ومن مجموع هذه الظروف والملابسات المعقدة ، تواجدت بالتدريج بذرة شك في مجتمع الإمام علي (ع) . هذا الإمام العظيم الذي خاض المعركة على رأس هذا المجتمع لتصفية الإنحراف من الداخل والإنحراف من الخارج ، والذي كان يريد أن يوعي جماهيره بأن المعركة ليست معركة زعامة شخصية أو وجوده الخاص ولا معركة قبيلته أو عشيرته وأمجاده التأريخية . وإنما هي معركة الإسلام مع جاهلية الأرض ، بل هي معركة الحفاظ على أمانة الله التي جاهد من أجلها عشرات الآلاف من الأنبياء والمصلحين ، كان يهدف إلى توعيتهم على واقع المعركة وطبيعتها المقدسة ، ولكن الجماهير بدأت تشك في واقع المعركة وطبيعتها ، وأخذوا يزدادون عناداً وتصلباً في مرقفهم كلما دعاهم الإمام إلى الدخول في طاعته والسير إلى قتال معاوية ويقول لهم :

« أحمد الله على ما قضى من أمر وقدر من فعل وعلى ابتلائي بكم ، أيتها الفرقة التي إذا أمرت لم تطع ، وإذا دعوت لم تجب إن أهملتم خضتم وإن حوربتم خرتم ، وإن اجتمع الناس على إمام طفتم ، وإن أجئتم إلى مشاقة نكصتم » [2] .

هذه الجماهير أصابها التعب ، وأرهقها الجهاد ، بعد أن قدمت للإسلام كثيراً من التضحيات التي قد لا يمكن أن يؤديها كثيرٌ من المجتمعات .. إلا أن نفسها في مواصلة الجهاد لم يكن طويلاً ، فقد كان الإنحراف ذا نفس أطول ،

---

(١) صانعو التاريخ العربي ص ٦٥ .

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١٠/ ص ٦٧ .

هذه الجماهير التي تعبت وأرهقها خط الجهاد الطويل والقتال من حرب إلى حرب بدأت تشعر بأنها في حالة غير طبيعية ، وأخذت تشعر بأنها طلقت الدنيا ، وطلقت الأهل والأولاد والأموال في سبيل قضية لا تمس مصالحهم الشخصية ، وأخذوا يوحون إلى أنفسهم (بالشك) . والتميع يوحي بالشك وقد يخلق في الإنسان الشك .

إن رغبة هؤلاء هي في إيقاف هذا النزيف والحروب . هذه الرغبة النفسية الجامحة ، خلقت الشك والمبررات اللامنطقية . وهذه المبررات تأتي نتاجاً لهذه الرغبة النفسية ، في أن يتبدل الحال إلى ما كان عليه قبل أعباء هذا الخطب الفادح ، وتحمل مسؤولياته .

وكانت هناك مؤثرات وعوامل كثيرة ساهمت في خلق هذا الشك منها : ـ

١ ـ الصحابة الذين كانوا على قدر كبير من الورع والتقوى في نظر الناس والمتلبسين بلباس الأتقياء العقائديين المثاليين كانوا يوحون إلى الجماهير بأن المعركة ليست صحيحة « القاعد فيها خير من القائم والنائم فيها خيرٌ من القاعد ، والماشي فيها خير من الساعي » [١] .

٢ ـ الإيحاء الذي جاء من قبل أبي موسى الأشعري كان له أثر أكبر بكثير من الإيحاء الذي جاء من قبل عمار بن ياسر ، فإيحاء عمار يكلف الموت ومواصلة الجهاد ويكلف التنازل عن الحياة وملاذها .

أما أبو موسى الأشعري فإيحاؤه كان يعطي الحياة ، ولسان حاله يقول لهم ، حافظ على حياتك ، وابتعد عن الأخطار واذهب واجلس في بيتك ، ودَع الإسلام مع أخطاره وأعدائه ..

عمار بن ياسر صحابي كبير ، وأيضاً أبو موسى صحابي كبير ولكن أحدهما يكلفك بالموت ، وهذا يمنحك الحياة ...

الإنسان الإعتيادي البسيط حتماً سوف يفضل إيحاء أبي موسى الأشعري

على إيحاء عمار بن ياسر ، لأنه يريد الإحتفاظ بحياته ولو كانت حياة رخيصة ، تحت ظلال معاوية وظلال جاهليته وأصنامها .

٣ ـ وهناك عامل النزاع التقليدي القائم بين بني أمية وبني هاشم وقد امتد هذا النزاع إلى ما بعد الإسلام ، مساهماً هو الآخر بتعميق الشك ، حيث بدأت الأذهان تفتش عن نقطة ضعف في المعركة ، فأخذوا يثيرون هذا ، كنقطة ضعف وتبرير للإنهزام ، مشيعين حول معركة الإمام (ع) مع معاوية بأنها ليست إلا استمراراً لذلك الصراع التقليدي (التاريخي) بين بني أمية وبني هاشم .

كل هذه العوامل وعوامل أخرى ، ساعدت على أن يكون الإمام (ع) موضع شك من قبل الجماهير ، وأن يكون الطابع المثالي والرسالي للصراع غير واضح عند هذه الجماهير . حتى أن الإمام (ع) كان يصعد المنبر مراراً ، يدعو الناس للجهاد فلا يستجيب له أحد ويقول لهم :

« يا أهل الكوفة كلما سمعتم بجمع من أهل الشام أظلكم انجحر كل امرئ منكم في بيته وأغلق عليه بابه انجحار الضب في جحره والضبع في وجارها . المغرور من غررتموه ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب ، لا أحرار عند النداء ولا إخوان عند النجاء . إنا لله وإنا إليه راجعون ماذا منيت به منكم ... عُمْيٌ لا يبصرون وبكم لا ينطقون وصمٌ لا يسمعون ، إنا لله وإنا إليه راجعون » (١) .

ويقول في موقف آخر :

« لله أنتم ، أما دين يجمعكم ولا حمية تشحذكم أو ليس عجباً أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء ، وأنا أدعوكم وأنتم تريكة

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣/ ص ١٨٨ .

الإسلام وبقية الناس ، إلى المعونة أو طائفة من العطاء فتنفرقون عني وتختلفون علي » « ؟ » . (١)

« أفٍّ لكم لقد سئمت عتابكم ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً وبالذل من العز خلفاً إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم كأنكم من الموت في غمرة ومن الذهول في سكرة . ما أنتم لي بثقة سجيس الليالي وما أنتم بركن يمال بكم » « وأيم الله ، إني لأظن بكم أن لو حمي الوغى واستحر الموت قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس » (٢) .

وهكذا كان الإمام (ع) يستثيرهممهموعزائمهم فلا تنبض لهم همة ولا تنهض لهم عزيمة ، لأنهم بدأوا يشكون بالإمام ، والشك في القائد هو أقسى ما يمنى به القائد المخلص وهو أخطر ما تمنى به الأمة التي يتزعمها هذا القائد .

ومرارة الشك وآلامها العميقة واضحة كل الوضوح في معركة الإمام (ع) « اللهم إني قد مللتهم وملّوني ، وسئمتهم وسئموني فأبدلني بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بي شراً لهم مني ، اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح في الماء » (٣)

وبالرغم من هذا الشك العاصف ، لم يضعف الإمام ولم يتراجع ، بل بقي في خطه يواصل عملية التعبئة لجهاد معاوية وضرب الإنشقاق إلى آخر سنة من حياته بل آخر يوم من حياته الشريفة عندما خر صريعاً في مسجد الكوفة وهو في قمة محاولاته لتصفية الإنشقاق حيث كانت بدايات جيش مجهز للخروج إلى الشام للقضاء على المعسكر المنفصل المتمثل بقيادة معاوية .

وباستشهاد الإمام (ع) قضت قوى الردة على آخر أمل في إعادة خط التجربة

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١٠/ ص ٦٧ .
(٢) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ١٨٩
(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٣٣٢ .

الصحيحة ، ذلك الأمل الذي اختلج في نفوس المسلمين الواعين متجسداً في شخص الإمام العظيم ، الذي عاش منذ اللحظة الأولى من تسلمه لزمام الحكم ، هموم الدعوة وآلامها وشارك في بنائها لبنة لبنة وأقام صرحها مع الرسول العظيم (ص) ورافق معه كل مراحل الدعوة بكل همومها ومشاكلها وآلامها . فالإمام كان الأمل الوحيد في نظر المسلمين الواعين لإسترجاع التجربة خطها الصحيح وأسلوبها النبوي المستقيم بعد أن استفحل الإنحراف وتعمق داخل إطار التجربة الإسلامية الوليدة ، ولم يكن هناك أملٌ بقهر هذا الإنحراف وتحدّيه إلا بشخص الإمام (ع) .

ولهذا كانت حادثة اغتياله الغادر ، تقويضاً حقيقياً لآخر أملٍ حقيقي لقيام مجتمع إسلامي صحيح .

* * *

رفض الامام للمساومات ـ هل كان عناداً ؟

بقيت ظاهرة مهمة في حياة الإمام (ع) نود مناقشتها وإلقاء الضوء عليها ألا وهي إصرار الإمام (ع) وتأكيده الواعي منذ أن مارس الحكم إلى أن خر صريعاً ، على رفض كل الصيغ وأنصاف الحلول التي واجهته في تصفية الإنحراف ، ولم يفكر مطلقاً بمساومة الإنحراف على حساب الأمة بأي شكل من الأشكال .

ظاهرة ـ رفض أنصاف الحلول أو قبول المساومات ـ استرعت انتباه أغلب المؤرخين ، قديماً وحديثاً ، فكانت استنتاجاتهم فجة بعيدة عن واقع التاريخ وعن فهم صحيح لحقيقة طبيعة الإمام (ع) .

وسوف نتناول الظاهرة ونناقشها على مستويين ، المستوى السياسي ، والمستوى الفقهي : ـ

١ ـ **المستوى السياسي** : فمن الناحية السياسية ، نرى أن هناك أشخاصاً عاصروا الإمام (ع) وكان رأيهم في الإمام (ع) ومعالجته لمسائل الحكم ، وإصرارهم على استبعاد أو رفض كل أشكال المساومات وأنصاف الحلول ، لوناً من ألوان العناد ، وهو بالتالي يعقد المواقف ، ويثير الصعاب في دولته ، ومعناه ترسيخ تلك المشاكل ، وبالنهاية عجز الإمام (ع) عن مواجهة حلها ، وسوف تشغله عن مهامه الرئيسية في إدارة الحكم ، والمضي بتجربته إلى حيث يريد .

حتى أن المغيرة بن شعبة جاءه مقترحاً إبقاء معاوية والياً على الشام ريثما تستتب

الأمور ، وبعد ذلك سوف يخضع ويبايع وبالإمكان استبداله وتغييره بعد أن تم البيعة في كل أطراف الدولة للإمام (ع) ، ولكن كان موقفه الرفض لكل هذه الألوان من المساومات بل أكد خطه السياسي في رفض هذه التنازلات بقوله (ع) :

« ولكني اسي أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولاً ، وعباده خولاً ، والصالحين حرباً ، والفاسقين حزباً ، فإن منهم الذي هد شرب فيكم الحرام ، وجلد حداً في الإسلام ، وأن منهم من لم يسلم رضخت له على الإسلام الرضائخ » (١) .

وقال بصدد الأموال المغصوبة وردها إلى بيت المال « وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال ، فإن الحق لا يبطله شيء ... ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق » (٢) .

ومن هنا بالذات ، جاء قول بعض معاصريه ، ويردده عندنا بعض أنصاف المؤرخين ، بأن الإمام (ع) كان بإمكانه أن يسجل نجاحاً أكيداً ونصراً محققاً من الناحية السياسية على أعدائه ، لو قبل أنصاف الحلول ومارس هذا اللون من المساومات .

٢ ـ **المستوى الفقهي** : ونتناوله من خلال مفهوم فقهي شائع يدعى (بالتزاحم) ويعنون به أن الواجب الأهم إذا توقف على مقدمة محرمة ، لا يجوز تركه بحجة حرمة المقدمة ، بل يجب المحافظة على الواجب الأهم ، فمثلاً : عندما يتوقف إنقاذ إنسان من الغرق على اجتياز أرض لا يرضى صاحبها باجتيازها ، ففي هذه الحالة يجيز لنا الشارع المقدس اجتياز الأرض ، حتى ولو بدون رضى المالك وتسقط حرمة هذه الملكية ؛ لأن عملية الإنقاذ أهم من المقدمة المحرمة وهي

---

(١) و (٢) نهج البلاغة ج ١ ص ٥٩ وشرح النهج جزءاً ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

اجتياز الأرض دون رضى المالك ، وذلك كما فعل الرسول (ص) في بعض غزواته ، عندما كان جيشه يضطر لإجتياز أراض مزروعة يمتلكها أصحابها ، وكانوا يطالبون الرسول (ص) بالتعويض عما أصاب جيش الرسول محصولاتهم الزراعية من تلف ، فلم يجبهم الرسول (ص) بل كان يصدر أوامره ، ويسير الجيش على المزرعة كلها ، فالرسول عمل هذا لأن النتيجة كانت أهم من المقدمة ، إذ أن الجيش يسير لكي يصل إلى أهدافه في تغيير وجه الدنيا من الظلمات إلى النور ، فما قيمة تلف مزرعة صغيرة ، إذ كان الجيش الإسلامي بأهدافه العظيمة سوف يحفظ لنا المبدأ الإسلامي العادل في توزيع الثروات في العالم على الخط الطويل .

وهذا أمرٌ معقول من الناحية الفقهية ، لأن القاعدة تقرر بأن الواجب إذا توقف على مقدمة محرمة ، وكان ملاك الوجوب أقوى من ملاك الحرمة فلا بد من تقديم الواجب على الحرام .

ومن خلال هذا المفهوم الفقهي ، وذاك الإجتهاد السياسي يثار هذا السؤال حول الظاهرة التي نحن بصدد مناقشتها وتحليلها هو :

لماذا لم يطبق الإمام (ع) هذه القاعدة الفقهية في تصرفاته ومواقفه السياسية ؟! .

ومن هنا يقرر المعارضون لسياسة الإمام (ع) لو أن علياً استفاد من تطبيق هذه القاعدة الفقهية ، واتجهت جهوده إلى الواجب الأكبر في تملك زمام قيادة المجتمع الإسلامي والعمل على إحراز المكاسب الإسلامية الكبيرة من خلالها ، ولا بأس أن تبقى بعض المحرمات في سبيل الحفاظ على الواجب الكبير ، ما دامت مبرراتها الشرعية (الفقهية) موجودة ولا سيما أن تملك الإمام (ع) لزمام القيادة سوف يفتح على المسلمين أبواب الخير والسعادة ويقيم فيهم حكومة الله على الأرض .

فالسؤال بشكل أدق ، هو لماذا لم يتجه الإمام (ع) إلى تحقيق هدفه الأكبر ، ويترك لمعاوية ولاية الشام ولو إلى حين ، ويصرف نظره عن الأموال المسروقة التي

نهبها بنو أمية من بيت مال المسلمين ولو مؤقتاً .. ولماذا لا يكون عمله هذا تطبيقاً حياً لمفهوم التراحم الذي تكلمنا عنه .

ونحاول الإجابة على كل هذه التساؤلات ، ونقول بأن القاعدة الفقهية التي تحدثنا عنها سابقاً ليست صالحة للإنطباق على مواقف الإمام (ع) وذلك لملاحظة الأمرين التاليين : ـ

١ ـ كانت من أهم أهداف الإمام التي رسمها منهجاً لسلوكه السياسي ، هو توطيد قاعدة حكمه في قطر من أقطار العالم الإسلامي ألا وهو العراق ، وذلك لوجود الأتباع والقواعد الشعبية الموالية لحكمه فكرياً وروحياً وعاطفياً وإن كانوا لا يعون رسالته وعياً حقيقياً كاملاً .

ومن هنا جاءت حاجة الإمام (ع) الملحة لبناء طليعة واعية ليكونوا أمناء على الرسالة وأهدافها عاملين على ترسيخ هذه الأهداف في كل أرجاء العالم الإسلامي .

فالإمام (ع) منذ تسلمه للحكم كان يشعر بوجوب بناء هذه الطليعة المؤمنة والقاعدة الشعبية التي يستند إليها في تسيير حكمه ... وكيف تواتيه فرصة بناء هذه القاعدة ، وهو في جو ملبد من المساومات وأنصاف الحلول ، حتى ولو كانت من الجائز شرعاً ومستوفية لشروط التراحم وذلك لأن التربية الروحية التي استهدفها الإمام في طليعته الواعية لا يمكن أن تنمو بذورها في أوساط قواعده الشعبية ، وهو يعيش جو المساومات وأنصاف الحلول ، حتى ولو كانت جائزة من الوجهة الشرعية ، فإن جوازها لا يغير من مدلولها التربوي في تكوين نفسيات الطلائع من حوله شيئاً .

فالإمام (ع) كان يشعر شعوراً قوياً وملحاً بأن دولته والأمة من بعد دولته لا بد لهما من قاعدة شعبية واعية ، تعتمد في حمل الأهداف الرسالية وترسيخها في واقع الأمة وأرجاء عالمها المترامي . كانت هذه القاعدة الواعية قدرة في ممارسة

الحكم الصحيح ، فالقاعدة الشعبية هذه لم تكن جاهزة عند استلامهم الحكم حتى يستطيع الإتفاق معها أو أن يقنعها بوجهة نظره في المساومات وتبرير ضرورتها الإستثنائية .

بل إن ظروف الواقع آنذاك ، تطلبت منه بذل كل الجهود لبناء جيش عقائدي واعٍ بروحه وفكره وعاطفته أمثال عمار بن ياسر وأبي ذر ومالك الأشتر وغيرهم من طليعة الإمام الواعية .

فبناء هذه القاعدة ليس سهلاً ولا ممكناً ، لو أن الإمام اتجه لسلوك سبيل المساومات وانصاف الحلول ، فهي تتناقض وعمله التربوي في بناء الجيش العقائدي الواعي ، فافتقاده (ع) لهذا الجيش معناه فقدانه القوة الحقيقية التي يعتمدها في بناء الدولة الإسلامية والخط الطليعي في الأمة على مدى الأجيال ، والمعروف أن أي دولة عقائدية لا بد أن تعتمد على طليعة مؤمنة تستشعر بشكل واعي ومعمق أهداف تلك الدولة وواقع أهميتها وضرورتها التأريخية .

ومن هنا كانت قناعة الإمام وحرصه ، على أن يحتفظ بطهر وصفاء عملية التربية لبناء جيشه العقائدي الواعي ، فجاءت ممارساته إيحاءات تربوية وتغييرية يكون فيها القدوة ، تتعلم منها القواعد وتتزود بها الطليعة الواعية . فكان عليه أن يظهر أمامهم قائداً لا تزعزعه المغريات ، ولا يتنازل لأي نوع من المساومات ، حتى يعين (ع) تلك الطلائع من خلال هذه المواقف الثابتة أن يبنوا المدلول الرسالي لأطروحته بأبعادها الواسعة للحياة .

ومن هنا نفهم موقف الإمام (ع) في رفضه لكل المساومات والحلول الوسط ، من أجل اتمام هدفه في بناء جيش عقائدي وخلق جو نفسي وفكري وعاطفي ليكون ذلك الجيل مواكباً للأهداف العظيمة في حياته وبعد مماته .

٢ ـ إن استلام الإمام (ع) للحكم جاء عقب الثورة على عثمان ، أي اثر ارتفاع الحالة الثورية التي وصلت إلى قتل عثمان والإطاحة بحكمه لإنحرافه عن

كتاب الله وسنة نبيه (ص) ، وهذا الإرتفاع العاطفي المتأجج ، الذي وجد في لحظة من حياة الأمة الإسلامية لم يكن من الهين إعادته إلى مساره بل كان قدر الإمام (ع) بعد استلامه للحكم ، العمل على تعميق هذه الحالة العاطفية واستثمارها لصالح الحكم عن طريق الإجراءات الثورية التي قام بها الإمام فيما بعد خلال مواجهته لمشاكل المجتمع المعقدة .

وهنا نواجه سؤالاً مهماً ونقول ماذا يكون مصير الإمام (ع) وهو في هذا الجو المشحون عاطفة وثورة ، لو أبقى الباطل يصول ويجول دون أن يمسه بإجراء إصلاحي ، أو أن يعمد (ع) إلى جانب الصمت والسكوت عن تلك التصرفات الكيفية التي قام بها الحكام من قبل ويسكت عن معاوية بالذات ، وهل يكون موقف الإمام صحيحاً لو انتظر لتهدأ العاطفة وينكمش التيار النفسي والعاطفي للثوار . ولو نحن افترضنا ذلك فمن ذا الذي يضمن أو يقبل أن يرجع الظرف للإمام مرة أخرى ليقوم بمثل هذه الإجراءات ... إن أفضل ظرف مؤات للإمام لتمرير الإجراءات التغييرية هو هذا الظرف الثوري الذي عاشته الأمة الإسلامية إبان ثورتها على عثمان . ولم يكن بالامكان ــ وتحت أي مبرر ــ تأجيل إجراءات الامام (ع) الى ظرف آخر تنطفئ فيها تلك الشعلة الثورية المستعرة وتبرد فيها العواطف وتتميع من خلال المشاعر .

* * *

الامام الحسن بن علي (ع)

تولى الإمام الحسن (ع) مسؤولية الخلافة في مناخ قلق غير مستقر وفي ظروف التعقيد والصراع ، والتي برزت وتأزمت في أواخر حياة أبيه الأمام علي (ع) .

ومن هذه الظروف المعقدة القاسية نذكر ما يلي :

١ ـ بدأ الأمام الحسن (ع) حكمه ، مع جماهير لا تؤمن إيماناً واضحاً كاملاً برسالية المعركة وبأهدافها ، ولا تتجاوب دينياً وإسلامياً مع متطلبات هذه المعركة . وكانت قد توزعت في تلك الفترة على أحزاب أربعة هي :

أ ـ الحزب الأموي : ويضم عناصر قوية تتمتع بنفوذ وكثرة في الاتباع وهؤلاء عملوا على نصرة معاوية في أوساط شيعة الحسن وكانوا بمثابة جواسيس وعيون على تحرك الامام (ع) .

ب ـ الخوارج : وكانوا أكثر أهل الكوفة لجاجة على الحرب حتى أنهم اشترطوا على الحسن (ع) عند بيعتهم له حرب الحالّين الضالين فرفض ، فأتوا إلى الحسين مبايعين فقال لهم : « معاذ الله أن أبايعكم ما دام الحسن حياً» عندئذٍ لم يجدوا بداً من مبايعة الحسن (ع) . وهؤلاء تعاونوا مع الحزب الأموي على حياكة المؤامرات الخطيرة والمنا نضة لخطة الامام الحسن (ع) .

جـ ـ الشكاكون : وهم المتأثرون بدعوة الخوارج من دون أن يكونوا منهم فهم المذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . ويغلب على طبعهم الانهزام .

د ـ الحمراء : وهم شرطة زياد طابعهم العام أنهم جنود المنتصر وسيوف المتغلب ، بلغ من استفحال أمرهم آنذاك أن نسبوا الكوفة إليهم فقالوا « كوفة الحمراء » .

وبمواجهة هؤلاء جميعاً كان « اتباع الحسن » الذين هرعوا إلى مبايعته بعد وفاة أبيه علي عليه السلام ، وكانوا هم الأكثر عدداً في الكوفة ولكن دسائس الآخرين وفتنتهم كانت تعمل دائماً لا حباط أي تحرك صادر عنهم .

٢ ـ الفارق التأريخي بين شخصية الامام الحسن (ع) وشخصية أبيه الامام علي (ع) ونعني بالفارق التاريخي : رصيد كل واحد منهما في أذهان الناس ، إذ ليس هناك فارق بينهما في حساب الله عز وجل فإن كل واحد منهما أمام معصوم ، ولكن المقصود هو أن المسلمين آنذاك لم يكونوا يؤمنون بفكرة النص على امامة الامام سوى القلّة القليلة منهم ، ولذلك لم يعاملوا الامام الحسن (ع) كإمام مفترض الطاعة ، منصوص عليه ، وإنما عاملوه على أن امامته امامة عامة وامتداد لخط السقيفة ومفهومها للخلافة .

والذي نؤكده هنا أن رصيد الامام علي (ع) التأريخي في نفوس الناس لم يمتلك نظيره الامام الحسن (ع) .

٣ ـ تسلّم الامام الحسن (ع) الحكم بعد استشهاد أبيه مباشرة مما قوّى موجة الشك في رسالية المعركة التي يخوضها الامام الحسن (ع) حتى أن الإيحاء كان لديهم قوياً بأن المعركة هي معركة بيت مع بيت ، أمويين مع هاشميين، وهي بالتالي ليست معركة رسالية .

كل هذه الأسباب والملابسات ، عقدّت موقف الامام (ع) من مسألة الحكم وبات الامام امام خيارات أربع لا خامس لها :

١ ـ الخيار الأول : وهو اغراء الزعامات وأصحاب النفوذ باعطائهم الأموال ووعدهم بمناصب ، لا ستمالتهم إلى جانبه ، وهذا الخيار اقترحه البعض على

الامام الحسن لكنه رفضه بقوله « أتريدون أن أطلب النصر بالجور فوالله ما كان ذلك أبداً » .

٢ ـ الخيار الثاني : وهو أن يتجه الامام إلى الصلح من أول الأمر ما دامت الأمة قد أَنِسَتْ بحياة الدعة وما دامت زعاماتها قد بدأت تتصل بمعاوية .

الامام الحسن (ع) استبعد العمل بأحد هذين الخيارين نهائياً لعدم جدواهما وبقي عليه أن يخوض معركة يائسة يستشهد فيها هو وجماعته ، أو أن يصالح بعد أن يستنفد أطول وقت ممكن ليسجل المواقف وليبين للناس من يثبت ممن ينحرف .

وهانحن نسأل بدورنا : هل خوض معركة يائسة كانت تؤدي إلى مفعول او الى تغيير للواقع الاسلامي آنذاك ؟

والإجابة : كلا ، لم تكن تلك المعركة اليائسة لتؤدي إلى أي مفعول ، ما دامت سوف تتم في ظل شك الجماهير بهذه المعركة .

ومن هنا جاء لومُ كثير من المؤرخين للامام الحسن (ع) منددين بتكاسله وضعفه وتنازله عن حقه ، حسماً للفتنة (**) وقبوله لحياة الدعة والراحة .

وجواباً على هذا الافتراء نقول : أن خوض الامام (ع) ودخوله في معركة يائسة سلفاً يجعل معركته في نظر كثير من المسلمين ، بمستوى المعركة التي خاضها عبد الله بن الزبير ، حتى قتل وقتل معه كل اصحابه الخواص .

ونسأل ، هل احداً من المسلمين فكر بابن الزبير ؟ وهل أن معركته التي خاضها حققت مكسباً حقيقياً للاسلام اوقدمت زخماً جديداً للعمل ؟.

فالجواب ، كلا ، لم يفكر فيه أحد ،لأن الناس كانوا يعيشون مفهوماً واضحاً تجاه عبد الله بن الزبير ، فهو في نظرهم ، خاض المعركة لزعامته الشخصية ضد عبد الملك بن مروان ، ولم تكن من أجل انقاذ الرسالة أو حماية الاسلام أو تعديل الحكم المنحرف .

فنفس هذا الشك ، بل بدرجة اقوى قد وجد عند الجماهير التي عاشت مع الامام الحسن (ع) .

وهناك أرقام تأريخية كثيرة ، تؤكد لنا أن الامام (ع) كان مدركاً لموقفه وعارفاً أن معركته مع معاوية مستحيلة الانتصار مع وجود ظاهرة الشك في الجماهير .

والامام (ع) ببياناته التأريخية ، يرسم لنا ابعاد سياسته بوضوح في معالجته الواعية لأزمة الوضع مع اصحابه ، وفي مقارعته لا عدائه ، في بيان سياسي مؤثر ، نلحظ فيه عمق المرارة وبليغ الرفض ، ليؤكد من خلال كل كلمة من كلماته الحق الذي اطمأن إليه .

ونحن نعطي دور الإيضاح والبيان للامام (ع) ليكلمنا بكل شيء عن مجتمعه وموقفه من مشاكل زمانه ، وعن الحلول التي خرج بها لحسم المشكلة :

« عرفت أهل الكوفة وتلونهم ، ولا يصلح لي منهم ما كان فاسداً ، إنهم لا وفاء لهم ولا ذمة في قول ولا فعل أنهم لمختلفون ويقولون أن قلوبهم معنا وإن سيوفهم لمشهورة علينا » .

« غررتموني ، كما غررتم من كان من قبلي مع أي أمام تقاتلون بعدي ؟ مع الكافر الظالم الذي لا يؤمن بالله ولا برسوله قط » .

« اما والله ما ثنانا عن قتال اهل الشام ذلة ولا قلة ، ولكن نقاتلهم بالسلامة والصبر ، نشيب السلامة بالعداوة والصبر والجزع ، وكنتم تتوجهون معنا . ودينكم أمام دنياكم ، وقد أصبحتم الآن ، ودنياكم أمام دينكم وكنتم لنا ، وقد صرتم علينا » .

لقد وصل الأمر في جمهور الامام عليه السلام إلى حد الخيانة والإنحياز إلى جانب معاوية طمعاً ، بما يغدقه عليهم من المال والجاه وبما يهيؤه لهم من الاستقرار[٣٦] حتى أن زعماء الكوفة كانوا يراسلون معاوية بتسليم الامام (ع) مكتوفاً إليه متى شاء ، ثم يأتون إلى الامام (ع) فيظهرون له الطاعة والولاء ، ويقولون له . « أنت

خليفة أبيك ووصيه ونحن السامعون المطيعون لك فمرنا بأمرك » .

فقال لهم الامام (ع) : ـ « كذبتم والله ما وفيتم والله لمن كان خيراً مني فكيف تفون لي ، وكيف اطمئن إليكم ولا أثق بكم ، أن كنتم صادقين ، فموعد ما بيني وبينكم معسكر المدائن فوافوا إلى هناك » . وخرج الامام (ع) إلى المدائن فتخلف عنه أكثر الجيش ...

إن تاريخ الحسن (ع) ومواقفه الإيجابية تدين كل من يتهمه بالضعف والتنازل عن حقه راضياً ، أو أنه سلم الحكم إلى معاوية دون أن يتصدى لتصفيته ومحاربته (٥٧)

ونحن نؤكد موقف الامام (ع) الايجابي ، وموقفه متحدياً الإنحراف واستعداده لمحاربة معاوية عندما قال (ع) : « بلغني أن معاوية بلغه أن كنا ازمعنا على المسير إليه . فتحرك لذلك ، أخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظرون ونرى وترون » .

وفي مجال آخر يشير الامام (ع) إلى استحالة خوض معركة منتصرة ، في هذا الجو من الشك وقلة الأعوان المخلصين « والله اني ما سلمت الأمر إلا لأني لم أجد أنصاراً ، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه » (٥٩) .

اذن بقي على الامام كما ذكرنا أن يخوض معركة يائسة ويستشهد فيها ويقتل فيها من يقتل .. يقول الامام (ع) أني خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض فأردت أن يكون للدين ناع » (٦٠)

وفي مجال آخر يقول « وإن معاوية نازعني حقاً هو لي دونه ، فنظرت لصلاح الأمة وقطع الفتنة ، فرأيت ان أسالم معاوية وأضع الحرب بيني وبينه ، وقد رأيت أن حقن الدماء خيرٌ من سفكها ولم أر الا صلاحكم وبقاءكم ، وإن ادري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » (٦١) .

فالمؤشرات الاجتماعية كلها تشير بأن أي معركة يخوضها الامام لا تؤدي إلى أي نتيجة على الاطلاق ، ولن تؤدي مفعولاً على مستوى اهداف الامام (ع) من

التغيير الذي تتطلبه الرسالة كحضارة وممارسة حياتية لكل الأجيال وعلى مدى العصور .

ولا بد من ان نتساءل عن اهداف هذه المعركة خصوصاً والأمة تعيش ظروف محنة الشك ، وقسوة المواجهة واستحالة النصر .

ما هي اهدافها ؟ وما هي طبيعتها ؟ أهي مجرد عناد ، أم هي رسالة وأمانة يقول الحسن (ع) « إن من ابتغاء الخير اتقاء الشر »(٦٢)

ويجيب (ع) عندما سأله سائل عن الجهل فأجابه « سرعة الوثوب على الفرصة قبل الاستمكان منها ، والامتناع عن الجواب ، ونعم العون الصمت في مواطن كثيرة وإن كنت فصيحاً »(٦٣)

وفي حديث آخر له (ع) يبين لنا الموقف أكثر وضوحاً عندما سئل عن معنى العقل قال (ع) « التجرع للغصة حتى تنال الفرصة » (٦٤)

وعلى ضوء هذه الحقائق التأريخية الثابتة يحق لنا أن نطمئن إلى النتيجة القائلة لو أن الحسن (ع) خاض المعركة اليائسة لكانت معركته تشبه إلى درجة كبيرة معركة ابن الزبير اليائسة التي لم تكن لتقدم أي عطاء للاسلام ولرسالته الخالدة .

ومن هنا جاءت قرارات الامام (ع) الصائبة ، بأن يهادن مؤقتاً ويقبل بالصلح ، ويفسح المجال لمعاوية يستولى على العالم الاسلامي ، لكي يكشف واقعه وواقع اطوءحته الجاهلية ولكي يعرّف هؤلاء المسلمين البسطاء ، والذين لم يكونوا يعرفون الا ما يرون باعينهم وحواسهم ، من هو معاوية وما هو واقعه وواقع حكمه، ومن كان علي بن أبي طالب وماذا كانت اطروحته .

وبناء على هذا استجاب الامام لدعوة الصلح في وقت أصبحت فيه الاستجابة نصراً على معاوية وفضحاً لسياسته المخادعة وكشفاً لخلقه أمام الجماهير ، فقد كان معاوية في ذلك الوقت يتلبس وجه من يريد حقن دماء المسلمين بعد أن ادرك أن نتائج الحرب ستكون لصالحه ، وهو يرى تصلّب الحسن (ع) واصراره على

خوض المعركة ، فأراد أن يبرز كمحب للصلح ولحقن دماء المسلمين ولكن سرعان ما فاجأته استجابة الامام الحسن (ع) لعقد الصلح فشعر بخيبة في تحقيق سياسته الماكرة خاصة أن بنود الصلح ألزمته بأمور لم يكن له بد إلا القبول بها . وهي كما يلي (مأخوذة عن كتاب ـ صلح الحسن ـ للشيخ راضي آل ياسين ص ٢٥٩ ـ ٢٦١ :

المادة الأولى : تسليم الأمر إلى معاوية ، على أن يعمل بكتاب الله وبسنة رسوله (ص) وبسيرة الخلفاء الصالحين .

المادة الثانية : أن يكون الأمر للحسن من بعده فإن حدث به حدث فلأخيه الحسين ، وليس لمعاوية أن يعهد به إلى أحد .

المادة الثالثة : أن يترك سب أمير المؤمنين والقنوت عليه بالصلاة وأن لا يذكر علياً إلا بخير .

المادة الرابعة : استثناء ما في بيت مال الكوفة ، وهو خمسة آلاف ألف فلا يشمله تسليم الأمر . وعلى معاوية أن يحمل إلى الحسين كل عام ألفي ألف درهم وأن يفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس ، وأن يفرّق في أولاد من قتل مع أمير المؤمنين يوم الجمل وأولاد من قتل معه بصفين ألف ألف درهم وأن يجعل ذلك من خراج دار (أبجرد) ـ ولاية بفارس على حدود الأهواز

المادة الخامسة : على أن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله ، في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم ، وأن يؤمن الأسود والأحمر ، وأن يحتمل معاوية ما يكون من هفواتهم وأن لا يتبع احداً بما مضى وأن لا يأخذ أهل العراق بإحنة.

وعلى أمان أصحاب علي حيث كانوا ، وأن لا ينال أحداً من شيعة عليّ

بمكروه ، وأن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم وأن لا يتعقب عليهم شيئاً ، ولا يتعرض لأحد منهم بسوء ، ويوصل إلى كل ذي حق حقه ، وعلى ما أصاب أصحاب علي حيث كانوا .

وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي ، ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله غائلة ، سراً ولا جهراً ، ولا يخيف أحداً منهم ، في أفق من الآفاق .

ونجحت خطوة الامام الحسن (ع) وبدأ معاوية يساهم إلى درجة كبيرة بكشف نفسه وواقعه المنحرف ، ولم ينتظر الوقائع والظروف لتساهم في كشف حقيقته ، بل أعلن منذ اليوم الأول عن مضمون اطروحته ، وأخذ يواصل الاعلان عنها ، وفي مختلف المجالات السياسية «والله إني ما قاتلتكم لتصلوا ولتصوموا ولتحجوا ولا لتزكوا ، ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم ، وقد اعطاني الله ذلك وأنتم لها كارهون ، ألا وأني كنت منيت الحسن واعطيته اشياء وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها»(٦٥) .

وبهذا الأعلان ، أخذ المسلمون يشعرون شعوراً واضحاً بأن اطروحة معاوية ما هي إلا امتداد للجاهلية ، التي تريد هدم الاسلام ، وإن الامام علي (ع) هو الممثل الحقيقي لا طروحة الاسلام حتى أن تجربته القصيرة في الحكم بقيت املاً وحلماً في نظر الجماهير الاسلامية وهم في خضم بؤسهم الذي كانوا يعيشون فيه .

مطالبة الامام بفسخ الهدنة

عندما أخل معاوية بشروط الصلح المتفق عليها ، أخذ كثير من المسلمين يطالبون الامام (ع) بفسخ الهدنة ومواجهة معاوية من جديد ...ولكن الامام (ع) كان يجيبهم بقوله «أن لكل شيء أجل ولكل شيء حساب» .. «ولعله فتنةٌ لكم ومتاع إلى حين» .

ولم يكن الامام (ع) يرفض بشكل مطلق فكرة نقض الهدنة ، ولكن كان يؤجلها بالمنطق الذي يجعل لكل شيء أجل ولكل شيء حساب . لأنه كان يريد

أن تتكشف شخصية معاوية بشكل اوضح ، وإن تكون اهدافه الجاهلية مكشوفة لكل انسان .

إلا أن معاوية احس بخطة الامام ، وعرف أن الامام سيكشفه أمام الملأ ، ويلعب ورقته بنجاح أمام الجماهير ، وعند ذاك ينفضح أمره للمسلمين .. ولذا بادر معاوية لتحصين نفسه ضد هذه الفضيحة والعمل على افساد خطة الامام (ع) حتى لا يكون مصيره مصير عثمان .

ولما كان معاوية يريد التمتع بالدنيا من خلال ملكه إلى اقصى ما يمكن أن يتمتع به الملك ، فهو لا بد اذن أن ينكشف للناس ، فعمد إلى اخفاء فضيحته بالعمل والتخطيط إلى اماتة ضمير الأمة وارادتها وقابليتها بتحدي الظالمين .

فكانت سياسته على مدى عشرين سنة ، تخطيطاً دائباً لتمييع ضمير الأمة وارادتها ، بأن يجعلهم ينصرفون عن التفكير في الهموم الكبيرة وينقطعون إلى همومهم اليومية الصغيرة ، وينصرفون بها عن الاهداف التي حملوها مع نبيهم العظيم في تحطيم جاهليات العالم إلى الاهتمام بعيشهم ومصالحهم الشخصية وإلى اعطياتهم التي يتقاضونها من بيت المال .

وفعلاً أفلحت بعض خطط معاوية ، حتى أصبح المسلم الذي كان يفكر بتحطيم عروش الظالمين في بلاد كسرى وقيصر أصبح الآن لا يفكر الا بعطائه الرخيص وحياته المبتذلة .

وقد وصل الحال بشيوخ بعض قبائل الكوفة ، أن أصبحوا جواسيس لمعاوية بالرغم من تشيعهم لأمير المؤمنين (ع) وأخذوا ينقلون الأخبار أولاً بأول عن أي بادرة تحرك أوتمرد من قبل رجال قبائلهم ، ثم تأتي شرطة الحكومة وتلقي القبض عليهم وتخنق أنفاس المعارضة .

هذه الأعوام العشرون التي حكمها معاوية قد تكون من أخزى وأحرج الفترات التأريخية التي مرت على الأمة الاسلامية ، أصبح خلالها الانسان المسلم يحس

احساساً مدمراً بأنه مظلوم وأمته اصبحت مهددة بخطر الفناء ، وإن احكام الشريعة الشريعة يتلاعب بها ، وأصبح الفيء والسواد بستاناً لقريش والخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني امية .

دفاع عن الامام الحسن (ع)

مع الأسف ، أن كثيراً من المؤرخين ، يؤكدون تصوراً شائعاً بينهم حول قيادة الامام (ع) وضعفها وتراجعها أمام ضغط الأحداث ، أو أنه تنازل عن حقه راضياً حسماً للفتنة (٦٦) أو أنه خان الثورة وسلمها دون قتال إلى معاوية عدو الاسلام ، ركوناً للدعة والراحة .. هكذا وبكل بساطة !!

هذا الاعتقاد الشائع أغلب الظن سببه اعتقاد هؤلاء المؤرخين بأن دور الأئمة في حياتهم كان دوراً سلبياً على الاغلب ، بسبب اقصائهم عن الحكم .

وهذا التفكير بالرغم من أنه خاطىء الا أنه يدل على جهل هؤلاء المؤرخين بتاريخ حياة الأئمة (ع) ، فالأئمة ، بالرغم من اقصائهم من مسؤولية الحكم ، كانوا يتحملون بإستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الاسلامية وتحصينها ضد التردي إلى هاوية الانحراف والإنسلاخ من مبادئها وقيمها انسلاخاً تاماً » فالإمام الحسن (ع) عندما هادن معاوية ، وتنازل عن الحكم ، ، اتجه إلى تغيير الأمة وتحصينها من الأخطار التي كانت تهددها ، والاشراف على القاعدة الشعبية ، وتوعيتها بمتطلبات الشخصية الاسلامية ، وتعبئتها بمحتوى التغيير الرسالي للاسلام ، ولبعث الأمة من جديد .

هذا الدور الإيجابي للإمام (ع) وتحركه الفاعل على مسرح الاحداث ، كلفه الكثير من الرقابة والحصار ، وقصة محاولات اغتياله المتكررة ، تشير بكل وضوح إلى مخاوف السلطة من تواجد الامام (ع) كقوة معبرة عن عواطف الأمة ووعيها المتنامي . ولربما حملت معها خطر الثورة ضد ظلم بني امية .

وأغتيال الامام (ع) بالسم دليل صارخ بتواجده (ع) عملاً ونشاطاً دائباً

في بعث الأمة وانهاضها من جديد .

فالإمام لم ينفرد ولم يتخاذل عن قيادة الأمة ومتطلباتها في الكفاح .

ومعاوية أدرك جيداً أن الامام (ع) هو صاحب رسالة ومبدأ فلا بد أنه عاملَ لا عطاء رسالته من جهده وعرقه سيادة الحكم بما يبذله من أساليب العمل والتغيير .

الامام الحسين بن علي (ع)

دور الإمام الحسن (ع) يختلف عن دور الإمام الحسين (ع) ففي مرحلته ارتفع الشك عن المسلمين في صحة المعركة وشرعيتها ، وأصبح المسلمون في هذه المرحلة يعيشون تجربة الامام علي (ع) كمثل أعلى للحكم الاسلامي العادل وأدركوا أن انتصار بني أمية هو انتصار للأرستقراطية الجاهلية التي ناصبت الرسول وأصحابه العداء ، والتي جاهدها الرسول حتى قضى عليها وأقاموا على أنقاضها دعائم الإسلام ولا ندهش إذا كره المسلمون بني أمية وغطرستهم وكبرياءهم وإثارتهم للأحقاد القديمة ونزوعهم للروح الجاهلية ، والأمويون لم يعتنقوا الإسلام إلا سعياً وراء مصالحهم الشخصية [1] « وهم أول من ابتدع وبشكل سافر في التاريخ الإسلامي نظماً وتقاليد بعيدة عن الاسلام محاولة منه التشبه بملوك الفرس والبيزنطيين ، وحولوا الخلافة إلى ملك كسروي وعصب قيصري » [2] .

هذه الحقائق أصبحت واضحة عند أغلب المسلمين ، فكانت سبباً في إزالة الشك في شرعية المعركة ، وأخذت تنحسر عن الأذهان ، بعد أن اكتووا بفساد وظلم بني أمية واستهتارهم بالقيم الإسلامية وتسخيرها في خدمة المآرب الخاصة .

---

(١) تاريخ الاسلام د . حسن إبراهيم ج ١ ص ٢٧٨ ــ ٢٧٩ .

(٢) رسالة في معاوية والأمويين للجاحظ ١٦ عزة العطار .

حتى وصل الحال بيزيد إلى الإستهزاء علناً بقيم الإسلام ومبادئه بترديده القول الجاهلي :

لعبــت هاشم بالملــك فلا خبر جــاء ولا وحــي نــزل
لســت من خندق إن لم أنتقــم من بــني أحمد ما كان فعل [١]

أما بالنسبة لواقع المجتمع الإسلامي ووعيه لقضية الإسلام ، فقد تلخصت نظرة الحسين (ع) له بالحقيقة التالية : « وذلك أن الأمة بعد النبي (ص) لم تكن تملك وعياً عقائدياً ، وأن أقصى ما أفادته منه عاطفة رسالية أخذت تتضاءل بعد وفاته (ص) نتيجة للأخطاء والتقصيرات المتراكمة والمتلاحقة التي مارسوها عبر حياتهم العلمية والعملية ، هذه التقصيرات والأخطاء التي قد لا يُحس بكل واحد منها على حدة ولكنها حين تتراكم تتحول إلى واقع فاسد ، والواقع الفاسد يتحول إلى فتنة [٢] كما حدث للحسين في زمن يزيد .

ولقد شارك الحسين (ع) أباه في سنواته الخمس وهو يعالج الأمة قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة لعلها تنبعث فيها حياة أو تحمل في تاريخها أطروحة الإنبعاث إذا أصرت حينذاك على أن تنسلخ من وجودها الرسالي .

ولم تنته السنة السادسة حتى شهد (ع) هذه الأمة تلفظ آخر أنفاسها بين يدي أخيه الحسن (ع) وتنزع عنها ما بقي لها من وجود رسالي ، وتتحول إلى ركام من الناس يلقي بنفسه في فم الأمويين الكبير » [٣] .

هذه الحقائق هي التي دفعت بالحسين (ع) لأن يخوض غمار معركة يائسة حتى ولو كان لا يرجى منها النصر العسكري الآني ، فالمعركة خاسرة لا محالة

---

(١) نثر اللآلي على نظم الدراري للألوسي .
(٢) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٦٤ .
(٣) الشيخ علي الكوراني في مقدمة هكذا تكلم الحسين لمحمد عفيفي ص ٨ .

في حسابها العاجل ، ولكنه استهدف بعمله هذا أن يهز ضمير الأمة وأن يعيد للإنسان المسلم همه الرسالي الكبير ، بعد أن غرق حتى أذنيه بهموم مصلحية صغيرة ، فرأى الحسين أن يشق طريقه في وسط الأمة ، وأن يبذل وجوده ووجود أصحابه وأهله وذويه بعمل فدائي لاهب ، وأن لا يبخل على سيرته بما تحتاجه من وقود إن من دماء الأمة وآلامها وإن من قلبه ودمه .

أما الأمويون فحاولوا جهدهم ، أن لا يمسوا الحسين بسوء فكانت مصالحه مصانة وجاهه عظيماً ، ومنزلته كبيرة ، حيث أن الحسين (ع) الذي توفرت له كل أسباب السعادة والرفاهية ، شاهدته الأمة يغلق عليه الحياة ، ويسد على نفسه أبواب هذه السعادة في سبيل مقاومة الظالمين ، والحفاظ على رسالة الإسلام وصيانتها من الإنحراف .

وفي الوقت الذي كادت صدمة الإنحراف تقضي على الأمة وتجربتها الإسلامية ، كتجربة حضارية حاكمة ، لو أن أوضاعها استمرت طليقة في حياة المسلمين .

إلا أن الحسين (ع) بكل ما حفل به من صفات وظروف مؤاتية أدرك أن تحريك الأمة وهزها ، لا يمكن أن تجدي له الكلمات والخطب الحماسية ، بل لا بد من تحريك إرادتها المهزومة بفدية تتوهج بالدم مبرهناً على صدق رؤيته للحاضر والمستقبل بتضحيته الفريدة .

الحسين يتحرك

وضع أمامنا (ع) مفصل قناعاته موضع التنفيذ ، بعد أن أيقن أن مفاهيم الرسالة أخذت بالإندثار تحت غشاء المذاهب الدينية المضللة التي روج لها بنو أمية لوقف انهيار حكمهم الفاسد .

لقد أسرع الحسين (ع) بأخذ زمام المبادرة بعد أن أدرك بأن المجتمع في

ظرفه الحالي وتأثره الشديد بالتخدير الديني وخوفه من القمع المادي وخضوعه الطويل للحكام المستبدين ، لا يمكن أن تنبعث فيه مفاهيم الرسالة ، بطرق الحوار الفكري أو الإقناع ، فهو آخر شيء يمكن أن يؤثر فيه ، ولأن الأمة كما ذكرنا في عصر الإمام الحسن (ع) قد ابتليت بظاهرة الشك في القيادة ، فكان الصلح أسلوباً تسترجع معه الثقة ، أما الأمة في عصر الحسين (ع) فقد ابتليت بفقدان الإرادة ، وتميعت فيها إرادة النضال وأصبحوا أذلاء مستضعفين ، فهم يدركون بُعْد الخليفة الأموي عن الإسلام . وأن الحسين هو القائد الحق ، ولكن إرادتهم كانت ضعيفة إزاء نصرة الحسين « قلوبهم مع الحسين وسيوفهم عليه » (1)

هذا القول الأخير ، هو تصوير دقيق ومعبر للمجتمع الذي وصل إليه الوضع الأموي بكل ما ملك من أسباب القوة والتشريد والتقتيل ، فكانت بوادر الخنوع والرضا بالوضع القائم لإيجاد مختلف الوسائل والمبررات على القعود والإستكانة » (2) .

في وضع كهذا أصر الحسين (ع) هو وسبعون رجلاً ، ونساؤه وأطفاله ، وقد أدرك الموقف كله ، فهو يعلم أن جيوش عبيد الله بن زياد قد تعترضه ، بل هي تعترضه قطعاً ، وعندئذ تكون النهاية ولكن الحسين (ع) كان يعلم أنه لا بد من فدية ضخمة ، فدية تتوهج بالدم ، وكان هو الشخص الوحيد الذي يملك أن يتقدم كفدية تهز إرادة الأمة الإسلامية من جديد »(3) فجاءت الثورة الدامية باعتبارها الأسلوب الأنجع في تحريك الإرادة المهزومة وإيقاظ الضمائر الميتة .. حيث أدرك أن قتاله العادل واستشهاده الفاجع هو الذي سوف يدفع الإنسان المسلم بإعادة النظر والتفكير الجدي في واقعه المعاش ، وبنفس الوقت « يكشف لمجتمعه عن بؤس الواقع وإفلاسه وعن أخطار المستقبل وأهواله وأن يبرهن على

---

(1) القول للفرزدق أنظر الطبري ج ٤ / ص ٢٩٠ والكامل ج ٣ ص ٢٨٦ .

(2) ثورة الحسين في الواقع التاريخي والوجدان الشعبي محمد مهدي شمس الدين ص ٢١ .

(3) اليمين واليسار في الإسلام ص ١٦٢ .

صدق رؤيته للحاضر والمستقبل بتضحيته الفريدة » [1] .

فالحسين (ع) أراد باستشهاده الفاجع إيقاظ الإرادة المخدرة بفعل المذاهب الدينية المفتعلة ـ ولكي تكون سوطاً لاهباً يدمي ظهور الحكام ، وموقظاً بها تلك النفوس الغافلة لتقوم بمحاكمة واعية لذاتها أزاء نظرة الرسالة ، ويعينها في تحرير إرادتها من ظاهرة القلق والتردد الفكري وتفاقم شكها في القيادة الحكيمة وهو بهذا يخرجها إلى مواقف ثابتة تأخذ أبعادها بوعي من تحديدات الشريعة الإسلامية وموقفها الصارم من الإنحراف .

محاولات تقف بوجه الثورة وتنصح بعدم مواجهة الانحراف

وإزاء إصرار الإمام (ع) على خطة الثورة ، نشطت محاولات كثيرة تنصح الحسين (ع) بعدم القيام بأي عمل من شأنه أن يشعل فتيل المواجهة مع يزيد ، بحجة الفشل المحتم لنتائج المواجهة العسكرية المحتملة ، ولكن الإمام (ع) كان يعرف هدفه جيداً ببصيرته المعصومة بأنه سوف ينتصر باستشهاده الفاجع ، ولا يفكر بنتائج الربح العسكري الآني ، مع علمه بقلة العدد وخذلان الناصر

ولمن يريد أن يفهم الحسين (ع) في ثورته ، عليه أن يبحث عن أهدافه ونتائج ثورته في غير النصر الآني الحاسم ، وفي غير الإستيلاء على مقاليد الحكم والسلطان .

فالنصوص المتوفرة لدينا تدل بصراحة على أن الحسين (ع) كان عالماً بالمصير الذي كان ينتظره ، لقد كان يجيب من ينصحه بالمهادنة والسكوت ، ويخوفونه بالموت بقوله : « لقد غسلت يدي من الحياة وعزمت على تنفيذ أمر الله » (٢) .

وهذا أخوه محمد بن علي يقول له ناصحاً : « يا أخي أنت أحب الناس إليّ

---

(١) ثورة الحسين في الواقع التاريخي ص ٢١ .

(٢) ثورة الحسين في الواقع التاريخي ص ٢٠ .

وأعزهم عليّ ، ولست أدخر النصيحة لأحدٍ من الخلق إلا لك ، وأنت أحق بها ، تنحَّ ببيعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت » (١) .

وأجابه عليه السلام بقوله : « شاءَ الله أن يراني قتيلاً وأن يرى النساء سبايا » (٢)

وطلب عبد الله بن عمر بن الخطاب من الحسين (ع) البقاء في المدينة فأبى الحسين ، وكان عبد الله بن الزبير يقول له : « إن شئت أن تقيم بالحجاز آزرناك ونصحنا لك وبايعناك وإن لم تشأ.البيعة بالحجاز توليني أنا البيعة فتطاع ولا تعصى » (٣) .

أما الأحنف بن قيس أحد رؤساء الأخماس بالبصرة فإنه كتب إلى الحسين (ع) : « أما بعد فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » (٤) .

وكتب إليه عبد الله بن جعفر الطيار مع ابنيه عون ومحمد : « أما بعد فإني أسألك الله لما إنصرفت حين تقرأ كتابي هذا فإني مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك إن هلك اليوم طفأ نور الأرض فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين فلا تعجل السير » (٥) .

أما الحسين فكان يعلم مصيره ويجيبهم بقوله : لو كنت في حجر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا في حاجتهم » (٦) . وجاءه عمرو بن لوذان ينصحه ويخوفه من سوء المصير وقال له : « أنشدك الله يا ابن رسول الله لما انصرفت

---

(١) عبد الرزاق المقرم مقتل الحسين ص ١٤٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٥ .

(٣) أبو الشهداء للعقاد ص ٦٣ .

(٤) مقتل الحسين ـ المقرم ـ ص ١٦٠ :

(٥) نفس المصدر ص ١٩٦ والطبري جزء ٤ ص ٢٨٧ والكامل ج ٣ ص ٢٧٥ .

(٦) نفس المصادر السابقة على التوالي ص ٥٤ وص ٢٨٩ ـ ٢٩٦ وص ٢٧٥ ـ ٢٨٦ والأخبار الطوال ص ٢٢٣ .

فوالله ما تقدم إلا على الأسنة وحد السيوف وإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال ووطأوا لك الأسياف فقدمت عليهم كان ذلك رأياً » (١) .

فأجابه الحسين (ع) بشكل حاسم بقوله : « ليس يخفى علي الرأي ولكن لا يغلب على أمر الله وإنهم لا يَدَعوني حتى يستحرجوا هذه العلقة من جوفي » (٢) .

فكل الدلائل تشير على علم الإمام ويقينه بأنه مقتول في اليوم الموعود به بأرض كربلاء .

وهل يتردد أحد في هذا وهو يقرأ خطبته (ع) بمكة حين أراد السفر منها إلى العراق عندما قال « كأني بأوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً لا محيص عن يوم خط بالقلم . رضا الله رضانا أهل البيت ، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين » (٣) .

* * *

---

(١) أعلام الورى بأعلام الهدى للطبرسي ص ٢٣٢ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٣٠٠ ــ ٣٠١ والكامل جزء ٣ ص ٢٧٨ .

(٣) مقتل الحسين ــ المقرم .

متى تكون الثورة مشروعة ؟

ومن خلال هذه المبررات التي ذكرناها ، استمد الحسين (ع) مشروعية ثورته اتجاه معاصريه الأمويين من أعداء الإسلام .

فالثورة ومشروعيتها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الإسلام وحكمه الشرعي عن الواقع الحاسم وانحرافه عن مبادئ الإسلام .

فالمفهوم الإسلامي انطلاقاً من هذا المقياس ، يتباين ويختلف من حكم إلى حكم ومن وضع حاكم إلى وضع حاكم آخر .

فواقع الحكم لا بد أن يتخذ أحد الصور التالية : ـ

١ ـ أن يقوم واقع الحكم على أساس القاعدة التشريعية للإسلام ويستمد كل أحكامه من هذه القاعدة ويتكيف لها ويتبنى النظرية الإسلامية في الحياة ويجعل الإسلام أساس التشريع والتقنين لكل نواحي الحياة .

٢ ـ أو أن يقصي الإسلام كقاعدة تشريعية للحكم ويفترض أن أحكامه لا شأن لها بالقيمومة على حياة الإنسان وتنظيمها ، فيكون الحكم على هذا الأساس حكماً « كافراً » سواء كان الحاكم الممارس للحكم مسلماً أو كافراً ـ إذ لا يوجد ارتباط بين إسلام الحكم وإسلام الحاكم بالشهادتين ـ فالحكم قد يكون كافراً وإن كان الحاكم مسلماً .

فالحكم إذن يمكن أن نقسمه إلى قسمين رئيسين : ـ

القسم الأول : قيام الحكم على قيمومة الله على الإنسان وخضوعه لشريعة السماء ، فيكون الحاكم بهذا الوصف حكماً مؤمناً مسلماً مستعبداً لله ، عندما تكون قاعدة الحكم فيه الإسلام .

وهنا نفترض ثلاثة افتراضات : ـ

أ ـ أن يكون الشخص الحاكم الذي يمارس مسؤولية الحكم شخصاً معصوماً في منطق تلك القاعدة ، ولا يشذ في سلوك أو قول أو فعل كما هو الحال في الأئمة المعصومين (ع) .

ب ـ أو أن يكون الشخص الحاكم «نائباً للمعصوم» أو أنه منسجم مع نظرية الحكم في الإسلام .

جـ ـ أو أن الشخص الذي يمثل القاعدة ويتزعم التجربة ليس معصوماً ولا شخصاً مشروعاً . بل هو إنسان أقحم نفسه على القاعدة من دون أن تقره مقاييس القاعدة وأصولها في الحكم .

ومن هنا صرنا نواجه ثلاث حالات هي : ـ

الحالة الأولى : والتي يتولى فيها المعصوم ممارسة قيادة الأمة ، ففي هذه الحالة لا يمكن افتراض الإنحراف لأن المسؤول عن قيادة المجتمع وتطبيق النظرية الإسلامية فيها هو شخص معصوم ، فهو متفاعل مع أهداف الرسالة إلى أبعد حد ممكن في سلوكه وقوله وفعله ، ولا يمكن أن يمارس الإنحراف لعصمته ، وبالنتيجة لا يكون للأمة الخيار إلا مواكبة الحاكم في كل شيء ، وتسمع له وتطيع لتصعيد العمل في سبيل الإسلام والوصول به إلى أهدافه الكريمة .

الحالة الثانية :

انسجام الحاكم مع مقاييس القاعدة الإسلامية ، فهو حاكم مشروع إلا أنه غير معصوم ، ففي هذه الحالة ما دام الحاكم ملتزماً بمقاييس القاعدة الإسلامية ،

فلا يمكن أن نفترض فيه وقوع الإنحراف ، لأن الإنحراف يجرد الحاكم من الصفة المشروعة للقيام بالحكم . ولكننا نفترض في هذا الحاكم إمكانية تقديره المصلحة الإسلامية على خلاف الواقع ، أي أنه يجتهد في موضوع إسلامي فلا يصيب واقع التشريع في إجتهاده ، ففي هذه الحالة عندما يصدر الخطأ من الحاكم لا بد من تنبيه الحاكم قدر الإمكان على أخطائه وأن توضح له وجهة النظر الأخرى الأصوب والتي هي أكثر تمثيلاً لواقع الإسلام وأصدق تعبيراً عن حاجات الرسالة والأمة في ذلك الوقت .

فإن أمكن تنبيه جهاز الحاكم على أخطائه ، أم لم يكن ذلك بالإمكان ، وبقي الحاكم مصراً على وجهة نظره .. ففي هذه الحالة لا بد للأمة من أن تتبع الحاكم في رأيه ، سواء من اعتقد منهم بخطأه أو صوابه .. وذلك لأن معنى الحاكمية في الولاية هو إنفاذ تقدير الحاكم للأمور ، وكون تقديره هو النافذ على الأمة من دون السماح لكل فرد من أفراد الأمة أن يعمل ويتصرف حسب تقديره الخاص للمواقف . ويأثم كل من يعمل بحكم شرعي غير الحكم الذي تبناه الحاكم وأمر به ؛ لأنه بعد أمر الحاكم يعتبر الحكم الشرعي في حق المسلمين هو ما أمر به الحاكم وما عداه لا يعتبر حكماً شرعياً بحق المسلمين ، لأن الحكم الشرعي في المسألة الواحدة لا يتعدد بحق الشخص الواحد .

الحالة الثالثة : ـ

أن يقوم الحاكم على أساس القاعدة الإسلامية ولكن شخص الحاكم يتصف بالإنحراف كما هو الحال في الخلفاء الثلاثة الذين اغتصبوا الخلافة من الإمام (ع) ومن آله بعد ذلك .

فحكم الخلفاء الثلاثة الذي مارسوه كان حكماً قائماً وفقاً للقاعدة الإسلامية ونظريتها في الحكم ؛ ولكن وضعهم ووجودهم يعتبر (من وجهة النظر الإسلامية) تحدياً لمقاييس القاعدة واعتباراتها في تعيين الحاكم . فالإنحراف هنا في شخص

الحاكم ولا يوجد انحراف في القاعدة التي يقوم عليها الحكم .

ومن خلال هذه الحالة يمكن أن نفترض ظرفين :

فنفترض تارة أن بعض أنواع الإنحراف ومؤامراته تمس بخطرها أسس القاعدة ذاتها ، وأخرى نفترض امتداد الخطر إلى المعالم الرئيسية للمجتمع الإسلامي .

فإذا كان الإنحراف الذي يمارسه الحاكم يهدد بالخطر القاعدة والمعالم الرئيسية للمجتمع الإسلامي ، ففي هذه الحالة يتعين على الأمة أن تتحرك وتتحدى الإنحراف على مستوى (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ولا بد للأمة من ممارسة هذا المفهوم الإسلامي بشروطه المنصوص عليها في كتب الفقه ، ولها أيضاً ومن ناحية أخرى أن تمارس حقها في الدفاع عن حقوقها المشروعة ، إذا امتدت إليها يد الإنحراف كدفاع أي شخص يتعرض للظلم من قبل الآخرين وذلك ضمن حقه في الدفاع المشروع عن النفس .

أما إذا كان الإنحراف (المفترض) يشكل خطراً على ذات القاعدة ويتناول المعالم الرئيسية للشخصية الإسلامية وللمجتمع الإسلامي ، ففي هذه الحالة يتحقق مفهوم الجهاد ، والعمل على تخليص الرسالة من هذا الخطر الداهم .

وعندما تكون الرسالة مهددة بالخطر فلا بد للمسلمين من مقاومة انّحراف الحاكم مهما كلف الأمر ، وذلك في الحدود التي لا بد منها لإبقائه وتخليص القاعدة الإسلامية ونظريتها من خطر الإنحراف .

القسم الثاني : ــ

قيام الحكم على أساس قاعدة كافرة ، وممارسة الحكم من خلال (نظرية من نظريات الجاهلية البشرية) .

فمثل هذا الحكم يشكل تحدياً سافراً وخطراً على الإسلام . وحينئذ فلا يمكن أن نفرض غير ظرفين : ــ

١ ـ ظرفاً يكون الإنحراف فيه مهدِّداً لنظرية الإسلام ومبادئه .

٢ ـ وظرفاً آخر تكون نظرية الإسلام بمنحى عن الإنحراف .

وهذان الإفتراضان ، غير ممكنين ، لأنه عندما يستند الحكم إلى قاعدة جاهلية في التشريع ، يعني أن الحكم قد تبنى قاعدتها ، ونظرتها للحياة ، فهو يدافع عن مفاهيمها وأفكارها ويبشر بأطروحتها وصيغتها للحياة مجنداً كل إمكانياته وطاقاته كحكم لإبعاد الأمة عن رسالتها وفصلها عن مفاهيم دينها ففي هذه الحالة تكون الخطورة ماحقة تهدد وجود الإسلام في الصميم .

وعلى ضوء ما تقدم من حقائق ، لا بد من محاولة فهم ثورة الحسين (ع) من خلال هذا المقياس وخصوصاً بعد أن عرفنا حقيقة انسحاب الإمام الحسن (ع) من المعترك السياسي مؤقتاً وإعلانه هدنة الصلح مع معاوية ، والتي جاءت نتيجة لعجز كامل من قيادة الإمام الحسن (ع) عن مواصلة التجربة الإسلامية وأطروحتها ، وذلك للأسباب المارة الذكر ، ولتفاقم وتضاعف ظاهرة الشك لدى الأمة والقواعد الشعبية التي تعتمد عليها تجربة الإمام علي (ع) والتي تضاعف شكلها في قيادة الإمام الحسن (ع) (وفقاً للظروف التي مرت بها) حتى أصبحت غير قادرة على مواصلة الجهاد قبل أن تكشف أعداءها ..

هذه الحقائق كانت تعني في وعي الإمام الحسن (ع) إيقاف العمل السياسي والعسكري الظاهر ولو مؤقتاً ، لكي يسترجع الإمام (ع) قيادته ، وثقة الجماهير به ، بعد أن ينكشف معاوية أمام الجماهير وتتضح معالم أطروحته الجاهلية لها . فمعاوية في أواخر حياته فقد كل رصيده الروحي وكل تلك المبررات التي اصطنعها لنفسه محاولاً تزييفها في نفوس المسلمين ، حتى أن يزيد ابنه وولي عهده لم يستطع أن يترحم عليه وأن يشايع عهده ولو بكلمة ثناء واحدة، وعندما صعد الضحاك بن قيس المنبر ، لينعي للناس نبأ وفاته ، لم يستطع هو الآخر أن يمدح معاوية أو أن يطري أعماله ، وإنما اكتفى بالقول « إن معاوية قد مات وذهب بعمله » .

فمعاوية عندما سيطر على الحكم نتيجة للهدنة مع الحسن (ع) بدأ يعمل بدأب من أجل تثبيت أطروحته وقيادته الجاهلية على مستويين : ـ

أ ـ على المستوى النظري

أخذ يعمل على طمس وتشويه النظرية الإسلامية ومحاولة تزييفها ، ولعل أخطر ما توصل إليه الأمويون من طرق التغلب على الشعور الإسلامي الثائر وتحطيم ما لأهل البيت من سلطان روحي على المسلمين وذلك بتخدير شعورهم الديني وإيجاد تبرير ديني لسلطان بني أمية أو على الأقل لكبح الجماهير عن الثورة ، برادع داخلي هو الدين نفسه ، وتمثلت أساليبهم في طمس النظرية

الإسلامية وتزييفها بالآتي :

١ ـ اختلاف الأحاديث ، وشراء الأكاذيب من بعض الذين كان لهم من الإستعداد في ذم علي (ع) والبراءة منه ، والكذب على الرسول (ص) في مقابل جَعْلٍ يرغب في مثله ، ووضع كل وسائل الترهيب والترغيب لشراء الكذب والنقل عن رسول الله (ص) والتركيز بشكل مشوه ومفتعل أحياناً ، عن حادثة السقيفة والحديث في تبعاتها ومضاعفاتها بشكل يحاول معه طمس النظرية الحقة للإسلام . باحثاً عن مبرر ولو هزيل لحكمه أولاً ، ومشلاً في الأمة الإسلامية أملها في أن ترتبط بأطروحة الإسلام الصحيحة وجاهداً لها أن تعيش الإسلام من خلال أثوابه المبرقعة التي برقع بها جاهليته ورواسبه .

أما بالنسبة للذين أبوا الإنصياع لأوامره في الدس والكذب على الرسول (ص) فقد حاول الضغط عليهم وإرهابهم بشتى الوسائل ليسكتوا عن المفاهيم والأفكار الإسلامية التي تعبر عن شعارات هذه النظرية في الحكم وأسلوبها في القيادة .

فقد كتب معاوية إلى ولاته بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرأون منه ، وكان أشد الناس بلاء على حكمه حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة ما بها من شيعة الإمام (ع) ، فاستعمل عليها زياد بن سمية وضم إليه البصرة ، فكان يتتبع الشيعة فيقتلهم تحت كل حجر ومدر ، وقطع الأيدي والأرجل ، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشردهم عن العراق »[1] .

---

(١) ثورة الحسين ظروفها لمحمد مهدي شمس الدين ص ١٦٤ .

وقد عملت أحاديث عمرو بن العاص ، وأبي هريرة ، والمغيرة بن شعبة وعمرو بن الزبير عملها السام ، وأعطت ثمارها الخبيثة في صورة تسليم تام وخضوع أعمى للحكم الأموي [1] .

٢ ـ اختلاق الفرق الدينية (السياسية) باسم الإسلام لتبرير حكمهم بعد أن توضع لها التفسيرات الدينية المضللة وتصاغ بأطر إسلامية مزيفة ، تتخذ اسم المرجئة تارة والجبرية أخرى ، هادفين من وراء هذا العمل الدنيء ، تحريم الثورة عليهم .

« فمعاوية أول من قال بالجبر ، ودافع عنه ، ليظهر أن ما يأتيه بقضاء الله ، ليجعله عذراً فيما يأتيه ، ويوهم أنه مصيب فيه وأن الله جعله إماماً وولاه أمره » [2] ، وقد كان معاوية يردد كثيراً الآية القرآنية ﴿ **يؤتي الملك لمن يشاء** ﴾ وبناء على ذلك وكل سلوك له يستمد شرعيته من هذا الإختيار » .

« أما المرجئة فكانوا عوناً وسنداً لحكم معاوية ، جاءت آراؤهم ومعتقداتهم تبريراً لخلافته ، وإقناعاً للمسلمين بوجوب طاعته ويرى المرجئة في مرتكب الكبيرة التوقف في الحكم وإرجاء الأمر له سبحانه » [3] . ويقولون « بأن الإيمان تصديق بالقول دون العمل » [4] . وكان حسان بن بلال المزني أول من دعا إلى مذهبه بين أهل البصرة [5] « فلقيت دعوته قبولاً إذ وجد البصريون في الإرجاء ضالتهم المنشودة ، لأنهم سئموا الحروب وآثروا السلامة والعافية من جراء ما لاقوه من أهوال في معارك الجمل وصفين والنخيلة ، وأصبح الإرجاء بمثابة

---

(١) الحركات السرية في الإسلام د . محمود إسماعيل ٩٣ والمغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار . ج ٨ ص ٤ .

(٢) اليمين واليسار في الإسلام ص ١٥٨ .

(٣) مقالات الإسلاميين للأشعري ص ١٤١ .

(٤) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني . ٤٦ ـ ٤٧ .

(٥) حركات الشيعة المتصرفين في العصر العباسي الأول لمحمد جابر عبد العال ص ١٧٥ وص ٧٦ .

الصيغة المذهبية التي تمنطق رغبتهم في الموادعة والركون إلى الراحة »[1] .

ولا غرو فقد تحول معظمهم إلى الإرجاء وعنوا بأمورهم الداخلية »[2] دون نظر إلى نوعية السلطة الحاكمة التي لم تكن حسب مذهبهم حكومة خارجة ضالة . وهم بمذهبهم هذا يرون فكرة الحياة عند الفتن ، ويستندون في دعواهم بحديث ينقلونه عن لسان النبي « ستكون فتن القاعد فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، ألا فإن نزلت أو وقعت ـ فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه » قال رجل من الصحابة : ومن لم تكن له أرض ولا إبل ولا غنم ؟. قال رسول الله : ليعمد إلى سيفه فليدعه على حده بحجر ثم لينج إن استطاع النجاة »[3] .

فهم يتركون أمر الحكم على جميع الملل لله رب العالمين[4] .

وفعلاً نرى أن ظاهرة التخدير الديني أخذت تتمكن من النفوس وتتجاوب معها ، وأخذ الوعي الإسلامي بالإنحسار ، حتى أصبح الإسلام مهدداً في وجوده كرسالة للحياة .

ب ـ على مستوى الامة

فقد مارس معاوية حكمه على هذا المستوى ألواناً كثيرة من الإذلال ، ومحاولات دؤوبة لتمييع شخصية الأمة ، وإثارة الضغائن والأحقاد القومية والإقليمية والقبلية داخل العالم الإسلامي .

حتى أخذنا نشاهد ذلك الإنسان المسلم الذي حارب طاغوت كسرى ووقف

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) جولد تسهير ص ٧٦ .

(٣) النظم الإسلامية د . صبحي الصالح ١٤٤ .

(٤) التبصير في الدين للأسفراييني ص ٩٠ .

أمامه متحدياً بكل إباء ، ذلك المسلم الذي عاش متحسساً هموم المظلوم في أقصى البلد الذي لم يعرفه نراه ينقلب بين عشية وضحاها إلى فرد لا يهمه إلا عطاءه ومصالحه الشخصية الحقيرة .

فبنو أمية استعانوا بكل وسائل القمع والقهر لتبديد قوة الخصوم وشرذمتها ، ولجم الجماعات المعارضة منهم ، واسكاتهم بالأساليب الآتية : ـ

١ ـ **الإرهاب** : وكان الرجل يؤخذ بمجرد الشبهة ، وسيرة ابن زياد لم تُنْسَ بعد ، فقد خطب فيهم مهدداً بأنه سيأخذ البريء بالمسيء ، حتى إذا رده حجر بن عدي في هذا وذكره بقوله تعالى :﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ ، فكانت حادثة حجر وأصحابه الشهيرة (١) .

٢ ـ التجويع : فكانت سياستهم الحط من جرايات أهل العراق (٢) ، وزيادة جرايات أهل الشام ، مبرراً عمله هذا بقوله « الأرض لله ، وأنا خليفة الله ، فما آخذ من مال الله فهو لي وما تركته كان جائزاً لي » .

٣ ـ إحياء النزعة القبلية والعنصرية : ـ كان يثيرها معاوية وذلك لسببين : أولاً ضمان ولاء القبائل له ، ولضرب بعضها ببعض حين يخشاها على سلطان من ناحية أخرى ، وأثار العصبية العنصرية عند العرب عموماً ضد المسلمين من غير العرب ، وهم الذين يطلق عليهم المؤرخون اسم الموالي (٣) .

٤ ـ الطرد والتهجير الجماعي : فقد حمل زياد بن سمية ـ والي العراق ـ خمسين ألفاً من الكوفيين وأجبرهم على النزوح من الكوفة إلى خراسان ، وبذلك حطم المعارضة في الكوفة وخراسان معاً (٤) .

* * *

(١) ثورة الحسين ظروفها لمحمد مهدي شمس الدين ص ٥٣ .

(٢) الدولة العربية وسقوطها يوليوس ولهاوزن ١٥٨ .

(٣) للتوسع يراجع ثورة الحسين ظروفها ٦٣ .

(٤) ثورة الحسين في الواقع التاريخي لمحمد مهدي شمس الدين ١٣ .

موقف الحسين (ع) تجاه مؤامرات معاوية الجاهلية

ومن خلال مؤامرات معاوية في تمييع الأمة ومصادرة شخصيتها كان لا بد للحسين (ع) أن يتخذ موقفاً تجاه أطروحة معاوية على المستويين : ـ

فالموقف الذي اتخذه تجاه المؤامرة على مستوى تزييف النظرية الإسلامية ، تمثل في جمع الحسين (ع) البقية الباقية من حملة تراث النبي محمد (ص) من أصحابه المهاجرين والأنصار والتابعين : ... وذلك في أحرج اللحظات وأقسى الظروف ، جمعهم في عرفات ، مستجيبين لدعوته (ع) فكان الواحد منهم يقف تلو الآخر ، لينقل ما يعرفه من أحاديث عن النبي (ص) ، وكانت لكل حديث يروى من تلك الأحاديث قيمتها الموضوعية والواقعية ، لأنها قيلت ، وسيف معاوية وبطشه يتهددان حياتهم .

وبمثل هذا الموقف والمبادرة الجريئة ، استطاع الحسين (ع) أن يثبت معالم النظرية ، وأن يركز في أذهان الأمة ، بأن البقية الصالحة من تراث محمد (ص) تقف بكل شجاعة وبسالة لكي تعبر عن خط الإسلام الصحيح متحدية بذلك جبروت الطغيان .

وأما الموقف الذي اتخذه الحسين (ع) على مستوى الأمة فكان من خلال الصراع السياسي الذي تحدى به حكم معاوية . ورأى الحسين (ع) أن من الضروري أن يمنح الأمة فرصة ، لكي تكتشف بنفسها أبعاد المؤامرة وحدودها وما تحتله من أفكار ومفاهيم جاهلية لا تمت إلى الإسلام بصلة .

وفعلاً أصبحت الأمة تعيش وتتحسس واقع الإنحراف وتتذكر بشوق حكم الإمام (ع) وتعيش العاطفة اتجاه ماضيها المشرق .

فرض الشك شفيت منه الأمة ، ولم يبق هناك من يتصور أن الإمام علي (ع) كان يعمل لنفسه أو لزعامته الشخصية بل أصبح واضحاً أن معركة الإمام علي (ع) مع معاوية هي معركة رسول الله (ص) مع الجاهلية والتي جعلت من الإسلام ثوباً لها كي تبرز من جديد على مسرح المعترك السياسي دون استفزاز لمشاعر الأمة المسلمة .

ولكن الأمة ـ وبفعل مؤامرات معاوية ـ منيت بمرض آخر اقوى وأخطر أثراً ألا وهو فقدان الأمة لإرادتها على التعبير ، فهي تدرك ولكنها لا تستطيع التغيير والتخلص من مرضها وأصبحت تتألم ولكنها لا تستطيع الرفض . فكل الأشياء أصبحت في نظرها رخيصة ، إلا حياتها المحسوسة والتي تعيشها في ذل وعبودية وإستكانة .

ومن هنا رأى الحسين (ع) أن كل شيء جاهز ، ليطلق الإسلام صيحته في حمم هذا الركام الذي يغط في نوم عميق لعلها تشق سمعه ولو بعد حين ، وكان الحسين (ع) أول من شق طريقه في وسط الأمة ورمى بثقله في إصلاح كيانها من الداخل ، ولم يبخل على مسيرته بما تحتاجه من وقود إن من دماء الأمة وآلامها وإن من قلبه ودمه .

موقف الحسين (ع) بعد هلاك معاوية

عندما طلب يزيد من الإمام الحسين (ع) أن يبايعه بعد أبيه معاوية ، كانت أمام الحسين (ع) أحد المواقف الأربع التي بالإمكان اقتراحها وهي : ـ

الموقف الأول : وهو أن يبايع يزيد بن معاوية كما بايع أبوه الإمام علي (ع) أبا بكر وعمر وعثمان .

الموقف الثاني : أن يرفض البيعة ويبقى في مكة أو المدينة ، في حرم رسول الله (ص) في بيته وبلده مستجيراً بحرم الله تعالى ، حتى يقضي الله ما هو قاض ..

الموقف الثالث : أن يلجأ عليه السلام إلى أحد أطراف العالم الإسلامي ، وكما أشار عليه ـ محمد بن الحنفية ـ بالذهاب إلى اليمن لتكوين جماعة تعمل على تأسيس مجتمع إسلامي ومن ثم يعلن انفصاله بعد ذلك .

الموقف الرابع : أن يرفض البيعة ويتحرك للذهاب إلى الكوفة ، مستجيباً للرسائل التي كانت تدعوه للمجيء إلى الكوفة ومن ثم يستشهد وهو في طريقه إلى العراق .

هذه المواقف العملية الأربعة ، هي التي كان بالإمكان للإمام (ع) أن يختار واحدة منها .. فالذي نريده هنا ، هو لماذا اختار الإمام الحسين (ع) الموقف الأخير دون سائر المواقف الأخرى .

جاء اختيار الإمام (ع) للموقف الأخير ، لإدراكه التام لطبيعة الظروف الموضوعية التي عاصرته ، والتي استمد منها أساس موقفه من الأحداث ، لأن

الإمام (ع) كان عليه أن يتخذ موقفاً يباشر من خلاله علاج عدة أصناف أو أقسام من أفراد الأمة الإسلامية وهذه الأصناف هي : ـ

الصنف الأول : وهم الجزء الأكبر من الأمة والتي فقدت إرادتها وقدرتها على مواجهة الأوضاع الفاسدة في عهد معاوية فقد كانت تشعر بالذل والتبعية للعهد الفاسد الذي حول الخلافة الإسلامية إلى حكم كسروي وهرقلي وملكاً عضوضاً [1] يتمتع بكل مواصفات المجتمع الجاهلي من موازين ومنطلقات .

فالأمة أصبحت فاقدة لإرادتها في رفض الإنحراف ، بل أصبحت يدها ولسانها ملكاً لشهواتها ، ولم تكن تملك عقلاً وقلباً تتحرك بهما لتغيير الأوضاع الفاسدة ، هذا القسم من الأمة يتمثل بقول الفرزدق المشهور « قلوبهم معك وسيوفهم عليك » [2] . فهم يدركون أن بني أمية ينتهكون ليل نهار حرمة الإسلام ولكنهم فقدوا إرادتهم وقدرتهم على الرفض والإحتجاج .

الصنف الثاني : ـ هو الذي لم يعد يحمل هم الرسالة ، بقدر اهتمامه بمصالحه الشخصية والأنانية ، حتى أخذت همومه الرسالية العظيمة تتضاءل بالتدريج ، لتحل محلها تلك الهموم الصغيرة .

والفرق بين الصنف الأول وهذا الصنف من الأمة أن الأول كان يشعر بالمصيبة ويحس بالإنحراف والظلم لكنه لا يستطيع الوقوف في وجهه ؛ أما الصنف الثاني فقد كان لا يحس ولا يشعر بالمصيبة أساساً .

الصنف الثالث :

وهو ذلك القطاع المغفل الساذج من الأمة والذي كان بالإمكان أن تنطلي عليه حيلة الحكام من بني أمية .

---

(١) النظم الإسلامية د . صبحي الصالح ٢٦٩ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٩٠ .

وقد عرفنا من قبل أن الخلافة الإسلامية بعد وفاة الرسول (ص) أخذت تنحرف عن مفهومها الشرعي الصحيح ، ولكن مفهوم الخلافة بقي بمنحى عن أي تغيير أساسي ، بينما نرى أن مفهوم الخلافة في عهد معاوية طرأ عليه تغييرٌ أساسي كبير ، ولم تعد الخلافة حكماً للأمة وإنما تحولت إلى حكم كسروي قيصري مستبد [1] .

وحاول معاوية بشتى الطرق أن يكسب حكمه ثوباً شرعياً أمام المسلمين ، ولو أن معاوية تم له هذا التلاعب أو التحويل الهدام في مفهوم الخلافة ، دون مجابهة الصحابة لهذا الحدث الخطير لأمكن وبكل سهولة أن تنطلي حيل معاوية على كثير من السذج والبسطاء ، وكانوا يقولون بشرعية هذا التحويل استناداً إلى سكوت الصحابة عليه وبالتالي قبولهم إياه .

الصنف الرابع : هذا القسم تبلورت مواقفه من خلال مسألة تنازل الإمام الحسن (ع) وقبوله هدنة الصلح ـ كطريق وحيد اتخذه الإمام (ع) من خلال ظروفه المعقدة كقائد جماعة وأمين على رسالة ومسؤول عن حفظ مستقبل الدعوة من الضياع والفناء ..

يبدو أن هذه الحقيقة الموضوعية التي سلكها الإمام (ع) في صلحه لم تكن واضحة بصورة كافية لهذا القسم أو الصنف من الأمة . وعلى الأغلب أن موقف الإمام الحسن (ع) لم يكن واضحاً إلا داخل دائرة التفاعل في الحواضر الكبرى من العالم الإسلامي التي عاشت وعانت مأساة الحسن (ع) عن قريب كالكوفة والعراق بشكل عام .

أما الإنسان المسلم الذي كان يقبع بعيداً في آخر حدود العالم الإسلامي وأطرافه كخراسان ، والذي لم تتح له فرصة معايشة المحنة ومعاناتها يوماً بعد يوم ، ولم

---

(١) رسالة في معاوية والأمويين للجاحظ تحقيق عزة البيطار ص ١٦ .

يكتوِ بنارها اللاهب ، كما عاناها واكتوى بنارها وعذابها أمامنا الحسن (ع) وهو بالكوفة ، فهذا الإنسان البعيد إنسان الحدود ، لم يكن يعرف أخبار المعركة وملابساتها المعقدة إلا أخباراً باهتة ومختصرة تصله من خلال بعض المسافرين ولم يدرك أبعادها بوضوح .

ومن هنا كان قدر الإمام الحسين (ع) واختياره للموقف الذي يعلن فيه لكل المسلمين وخصوصاً أولئك الذين عاشوا وسمعوا من بعيد أحداث تنازل أخيه الحسن (ع) وصلحه مع معاوية وليؤكد لهم أن تنازل أخيه وصلحه ، لا يعني أن أهل البيت (ع) أمضوا عملية التحويل وباركوا أموية حكم معاوية وأطروحتهِ الجاهلية .

فكان الحسين (ع) أمام هذا الإختيار لكي يتمكن من شرح كل هذه الملابسات والظروف ، ويعالج واقع الأمة من خلال أصنافها الأربعة ، ولم يكن لتحقيق أي هدف للحسين (ع) إلا أن يسلك أو يأخذ بالموقف الأخير .

فالموقف الأول : ـ وهو أن يبايع يزيد كما بايع الإمام علي (ع) أبا بكر وعمر وعثمان بالخلافة وهم لا يستحقونها هذا الموقف لم يكن بإمكان الحسين (ع) الأخذ به لأنه لم يكن ليقدم إليه أي مكسب على مستوى معالجة الأقسام الأربعة من صنوف الأمة .

وكما لا يمكن أن نسوي بين موقف يزيد وبين موقف أبي بكر وعمر وعثمان ، لأن التحول الذي أجراه يزيد كان خطيراً جذرياً على مستوى تغيير وتبديل مفهوم الخلافة الإسلامية ، ولم يتجه هذا التحويل لتغيير شخص واستبدال آخر ، بحيث يمكن أن نقول ببقاء الخلافة دون تحويل أو مساس بقاعدتها الإسلامية بل اتجهت نية يزيد والأمويين إلى التحويل المفهومي للخلافة والإعتداء على قواعدها الأساسية ، وأصبحت هي الشائع بعد هذا التاريخ الأسود للمسلمين .. ومن هنا جاءت ضرورة التصدي والإصطدام المسلح من قبل إمامنا الحسين (ع) وأهل

بيته وصحبه ، لإحباط هذا التحويل والمؤامرة الخطيرة .

أما الموقف الثاني : ـ وهو أن يظل الحسين (ع) في المدينة أو مكة رافضاً البيعة ليزيد ، ومعلناً شجبه واستنكاره لعملية التحويل ، حتى يقضي الله ما هو قاض ، فإن الظروف الموضوعية آنذاك ، كلها كانت تشير وتؤكد بشكل لا يقبل الشك ما أكده لنا الحسين (ع) بنفسه مراراً أنه لو بقي في المدينة أو مكة لتعقبته بنو أمية بالقتل والإغتيال حتى ولو تعلق باستار الكعبة المحرمة وهذا ما حدث بالفعل إذ دسوا له ثلاثين رجلاً ليغتالوه في موسم الحج مما اضطره لقطع حجه وجعله عمرة مفردة ثم خروجه والناس في المناسك ليحافظ على حرمة مكة وقداسة البيت فتنتهك بانتهاك حرمته .

وهذا القتل الضائع والبارد ، لم يكن ليحقق للإمام أي مكسب على مستوى أي من الأقسام الأربعة من أمته ، وفرق كبير من أن يقتل الإمام الحسين (ع) في سبيل الله وفي سبيل امتناعه عن بيعة يزيد الفاجر ، أو أن يقتل بعد أن استطاع أن يحول البقية الباقية من عواطف المسلمين ويلهبها تجاه رسالة نبيهم (ص) ويعيد إليهم إرادتهم وكرامتهم الممتهنة .

والناس عادة يؤمنون بالدين أو أي عقيدة أخرى بما تبقى عندهم من مجموعة العواطف بعد انطفاء وهج العقيدة في نفوسهم ، ولكي ترجع تلك النفوس إلى عقيدتها لا بد من عمل يحرك عواطفها ويلهبها .. وعملية تحريك العواطف وتأجيجها لا تتم في حادثة قتل عابر سهل من هذا القبيل . بل لكي تتحرك هذه العواطف لا بد من حشد كل المثيرات والمنبهات إلى درجة نجد أن عمر بن سعد نفسه أخذ يبكي الحسين (ع) وهو القائد القاتل الذي أصدر أوامره بسلب ونهب الإمام (ع) وصحبه البررة .

وأما الموقف الثالث : وهو أن يذهب إلى أحد ثغور المسلمين كاليمن ويبقى هناك لينشئ المجتمع الإسلامي فلو وقف الإمام (ع) هذا الموقف فسوف لن

يحقق هدفه المقصود بل سوف ينعزل ، ويتقوقع بينما كان مسرح الأحداث وقتئذٍ هو الشام والعراق والمدينة ومكة بالنسبة إلى كل أرجاء العالم الإسلامي .

ولكن الإمام (ع) أراد أن يباشر ثورته من على مسرح الأحداث ليجعلها تنعكس بنتائجها على كل الوطن الإسلامي ولتأخذ أثرها الروحي والتربوي والأخلاقي عند كل المسلمين .

ولماذا الذهاب إلى اليمن والإنعزال هناك بعيداً عن مسرح الأحداث الفاعل ، من أجل إقامة المجتمع الاسلامي ، فهذا المجتمع المقترح لم يتحقق في عهد أبيه الامام علي (ع) وهو في الكوفة ، فكيف تسمح الظروف بذلك للحسين (ع) وهو في اليمن ، تلك الرقعة النائية البعيدة عن قلب العالم الإسلامي آنذاك .

فهذا الموقف يتناقض مع موقف الإمام (ع) في مساهمته في عملية التغيير الروحي والنفسي والذهني للأمة الإسلامية .

ومن هنا كان على الإمام الحسين (ع) أن يختار الموقف الرابع والذي يستطيع أن يهز بها خمير الأمة على مختلف أصنافها وليحسسها بأهمية التمسك بالرسالة وأهدافها الكريمة في الحياة .

الحسين (ع) وأخلاقية الهزيمة

لقد ذكرنا شيئاً عن محاولات النصح التي كانت تقف بوجه الحسين (ع) وثورته ، تنصحه وتحذره من مواجهة الإنحراف ، فقد واجه عليه السلام هذه الأخلاقية ليس فقط من بعض العامة من المسلمين بل واجهها من قبل سادة المجتمع ، وبل من بعض أقاربه وأعوانه [1] .

جاءت كل هذه النصائح تعبيراً واضحاً عن واقع الإنهيار النفسي الذي شمل زعماء المسلمين وسادتهم ، وجماهيرهم الذين عاشوا انهياراً مروعاً في الأخلاق والسلوك والرغبات ...

وجد الإمام (ع) أن العلاج الوحيد لهذه الحالة المرضية في مجتمع فقد إرادته وفعاليته وانكمش عن بذل التضحيات ، أن يخرج عازماً على التضحية المفجعة مع قلة العدد وخذلان الناصر « ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلة العدد وخذلان الناصر » .

فبقدر ما يكون هذا المرض عميقاً في الأمة يجب أن تكون التضحية عميقة ومتكافئة معها .

أما أخلاق الهزيمة فإنها حتماً سوف تصبح قوة كبيرة بيد صانعي هذه الهزيمة لإبقاء روح التخاذل والعمل على استمراره وتعميقه وتوسيعه عند الأمة ، بحيث

(١) راجع محاولات تقف ص .

تجعل من الشجاعة تهوراً والتفكير بشؤون المسلمين استعجالاً وقلة أناة . والإهتمام بدرء الكوارث والمصائب عن الإسلام والمسلمين نوعاً من الخفة واللاتعقل .

فالإمام (ع) كان يريد أن يغير هذه الأخلاقية ويضربها في الصميم ويوحي إليها في نفس الوقت بأخلاقية أخرى جديدة تنسجم مع قدرتها في التحرك والإرادة .

وثمة أدلة كثيرة على استفحال هذه الأخلاقية السلبية نجدها في أحرج وأخطر المواقف التي تعرض لها الإمام (ع) .

فعندما استأذنه حبيب بن مظاهر الأسدي وذهب ليدعو عشيرته (بني أسد) للإلتحاق ومناصرة الثورة كانت نتيجة هذه المفاتحة أن غادرت هذه العشيرة المنطقة بأجمعها وإنسحبت إنسحاباً إجماعياً في نفس تلك الليلة .

أما ابن زياد فقد استطاع خلال اسبوعين بعد مقتل مسلم بن عقيل أن يجند الألوف من أولئك الذين كانوا لا يزالون إلى ذلك الوقت من حملة رسالة الإمام علي (ع) والموالين له ـ أن يجندهم ويضعهم في خط سلطان بني أمية .

ومحنة مسلم وهاني هي الأخرى توضح لنا مدى ما وصلت إليه هذه الأخلاقية عند المسلمين .

فقد أرسل ابن زياد على هاني بن عروة يدعوه لزيارته ، بعد أن عرف أنه يخفي مسلم بن عقيل في بيته ، وقد اتهمه ابن زياد بوجود مسلم عنده ، وما يبيته من مؤامرة الخروج على سلطان بني أمية وشق عصا الأمة فأجابه هاني بعصبية وحدة : بأنه لا يعلم من أمر مسلم شيئاً ، وهو بريء من هذه التهمة ، ولكن ابن زياد أصر على قوله وأجابه هذه المرة بتحدٍ واضح وقال له لا بد من أن تحضره وتسلمه للسلطة .

وفي هذه المرة أجابه هاني بكل شجاعة وبسالة « لو كان مسلم تحت قدمي لما رفعتها » فقد تكلم هاني هذا الكلام وكان يحسب أنه يملك رصيداً ضخماً وأن عشرات الألوف من خلفه سوف تسنده وتدافع عنه » وحينما اشتد الغضب بابن

زياد ، أمر بحبس هاني وانتشر خبر اعتقاله في الكوفة ممزوجة بإشاعة مفادها بأن هاني في طريقه للقتل .

وما هي إلا ساعات حتى جاء عمرو بن الحجاج ومعه أربعة آلاف من عشيرته لمعرفة صحة الخبر ، ووقفوا بباب قصر الإمارة يطالبون بحياة هاني .

وهنا بعث ابن زياد على شريح القاضي وطلب منه أن يكون وسيطاً ، فيدخل الغرفة التي حبس فيها هاني ، لكي يشهد بعدها أمام المتظاهرين بأن هانياً حي يرزق وأن الإشاعة لا صحة لها من الواقع وعندما لمح هاني شريحاً صاح في وجهه قائلاً : « أين ذهب المسلمون ؟ لو أن عشرة منهم يهجمون على القصر لأنقذوني ، لأن القصر ليس فيه جيش ولا شرطة » ويعني هاني أن عشرة لو كانوا مستعدين للموت في سبيل الله لتغير وجه الكوفة ، وعندما خرج شريحٌ القاضي ليطمئن الناس ويكلم عمرو بن الحجاج ويقدم شهادته أمامه ، بأن هانياً حي لم يقتل ويقول شريح رجعت ثانية لكي أبلغ عمرو بن الحجاج ما طلبه هاني وهو في السجن ، عندما طلب عشرة فقط يهجمون على القصر لينقذوه من ابن زياد ، يقول هممت على ذكر هذا الطلب ولكني التفت إلى جنبي وكان يقف أحد عيون ابن زياد من شرطته فأحجمت عن الكلام واكتفيت بأداء الشهادة المطلوبة ، ويرجع عند ذاك عمرو بن الحجاج وجماعته ، لأنهم لم يكن قصارى همهم إلا معرفة كون هاني حياً أم ميتاً .

وبرجوع عمروٍ وجماعته يبادر ابن زياد في اليوم التالي ويقتل هانياً في السجن ! !

أما مسلم بن عقيل فقد خرج في اليوم التالي ومعه أربعة آلاف ، أخذوا يطوفون قصر الإمارة ، وابن زياد ليس معه إلا عدد قليل من شرطة تحميه لا يتجاوز عددهم الثلاثين ، ولكن جيش مسلم انهزموا كلهم أجمعون ، ولم يبق حتى واحدٌ منهم لأنهم لا يملكون إرادة يقاتلون بها .

هذا الواقع المتناقض الذي كان يلف عواطف الأمة عبر عنه الفرزدق أدق

تعبير عندما قال : « قلوبهم معك وسيوفهم عليك » . فالشخص الذي لا يملك إرادته ، يمكن أن تتحرك يده على خلاف قلبه وعاطفته ولهذا وجدناهم يبكون ويندمون بعد أن قتلوا الحسين (ع) لأنهم يشعرون أن قتلهم الإمام (ع) معناه قتل مجدهم وأملهم الوحيد في الحياة الحرة الكريمة .. ومع ذلك فلقد رأيناهم يقتلون الحسين وهم يبكون عليه .

وفي مجرى عملية تحويل أخلاقية الهزيمة إلى أخلاقية جديدة واجه الحسين (ع) أدق مراحل عمله ، فهو في الوقت الذي أراد أن يبث في جسم الأمة وضميرها ووجدانها أخلاقية جديدة ، أراد أن لا يخرج خروجاً سافراً عن أخلاقيتها التقليدية التي عاشتها نتيجة لهزيمتها الروحية ، لأن الإمام (ع) لا يتمكن من هز ضميرها وتحريكها إلا إذا راعى في سيره وتخطيطه أخلاقية الأمة ، وأن لا يستفزها لكي يبقى محتفظاً لعمله بطابع (المشروعية) في نظر المسلمين الذين ماتت أخلاقهم وتبدلت مقاييسهم الإسلامية .

ولهذا فقد صمم الحسين (ع) منذ اللحظة الأولى أن يخوض المعركة . ومهما كلف الأمر من تضحيات ، بل يريق آخر قطرة من دمه الزكي حفظاً لمستقبل الإسلام من هذا الإنحراف .

فثورة الحسين (ع) وحركته لم تأت نتيجة لتفكير إيجابي مستقل بل هو الذي خطط في خلق ظروف وردود فعل مناسبة لكي يتحرك من خلالها .

وهكذا ظل الإمام (ع) يواصل تأكيده على الشعار الذي رفعه منذ بداية تحركه ، حيث لم تكن القضية قضية اقناع الحسين (ع) بالرجوع والعدول عن المعركة ، لأنه لم يتحرك وفقاً لردود فعل طلبات قواعده الشعبية في الكوفة ، لأنه عرف واطلع أثناء الطريق على تفاصيل تصرفات هذه القواعد التي خانته والتي سبق أن قتلت رسوله « مسلم بن عقيل » وهو ثقته من أهل بيته .

ومع معرفة الإمام (ع) لكل هذه التفاصيل ، واصل (ع) رحلته ، لأن الشعار الذي رفعه كان ينسجم وأخلاقية الأمة التي تعيشها بطابعها المشروع والوفاء

بالعهد (وفاء لرسائل أهل الكوفة) وكذلك عند أولئك الذين آثروا السلا والدعة .

وكان من جملة الأساليب التي اتخذها الإمام (ع) لكسب هذه الأخلاقية أن حشد لمعركته كل القوى والإمكانيات ، ولم يكتف بتقديم نفسه للإستشهاد بل قدم أولاده وأهل بيته حتى يقطع القول بالتبرير على أخلاقية الهزيمة ، لأن أخلاقية الهزيمة مهما أرادت التشكيك في مشروعية خروجه لمعركة يائسة فهي لا تستطيع التشكيك في أن هذا العمل الوضيع والوحشي والذي قامت به جيوش بني أمية ضد بقية النبوة لم يكن عملاً صحيحاً في ظل كل المقاييس والإعتبارات .

ومن هنا جاء دخول الحسين (ع) المعركة لا بدمه فقط بل بدم أولاده وأطفاله وأصحابه أدخلها (ع) وكل الاعتبارات العاطفية والتاريخية ، حتى عمامة جده رسول الله (ص) وسيفه كانت في حساب المعركة ومن ضمن تخطيطه .. لكي يسد على أخلاقية الهزيمة كل المنافذ والطرق للتعبير عن هزيمتها أو تبريرها .

وهكذا كان ، فقد استطاع الإمام (ع) بتخطيطه الرائع الدقيق أن يعيد للأمة المهزومة إرادتها وضميرها وأوضح (ع) أن عملية التغيير لأخلاق الأمة الفاسدة لا يجوز مجابهتها بشكل استفزازي مباشر ، لأن المجابهة المكشوفة الصريحة لأخلاقيتها الفاسدة ، معناها الإنعزال عن الأمة والإنكماش عن القيام بأي عمل مشروع لصالح الأمة .

هذا العمل هو ما فعله الحسين (ع) عندما أخذ المسلمون يدخلون بالتدريج إلى حالة ومستوى جديد من الأخلاقية ، تختلف عن أخلاقية الهزيمة ، وهذا الوضوع هو السبب في هز ضمير الإنسان المسلم آنذاك وإلى يومنا هذا .

* * *

نتائج الثورة وآثارها

والآن بعد أن أحطنا بالثورة ودوافعها ، يلح علينا هذا السؤال : هل آتت الثورة أُكُلَها ، وهل غيّرت واقعاً ، وهل صنعت نصراً ، وحطمت أعداء ؟! .

ولربما اتهمها كثيرٌ من المؤرخين بالفشل ، بحجة أنها لم تحقق نصراً سياسياً آنياً يطور الواقع الإسلامي إلى حالٍ أحسن من الحال التي كانت عليها قبل هذه الثورة [1] .

ولكي نفهم ثورة الحسين (ع) علينا أن نفتش عن أهدافها ونتائجها في غير النصر الآني الحاسم ، وفي غير الإستيلاء على مقاليد الحكم ، وأن لا نبحث عن نتائجها فيما تعودناه في سائر الثورات ، وإنما نلتمس نتائجها في الميادين التالية [2] :-

١ - تحطيم الإطار الديني المزيف الذي كان الأمويون وأعوانهم يحيطون به سلطانهم ، وفضح الروح اللادينية الجاهلية التي كانت أطروحة الحكم آنذاك .

بعد أن شاعت هذه الروح اللادينية في جميع طبقات المجتمع ، واستحكمت في أذهان الناس دون أن تكافح ودون أن يظهر في الناس من

---

(١) ثورة الحسين ظروفها لمحمد مهدي شمس الدين ص ١٥٤ .

(٢) اعتمدنا كلياً على النتائج التي استخلصها العلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين في كتابه - ثورة الحسين ظروفها ص ١٦٢ - ٢٢٨ نحيل القارئ إليها ليقف على التفاصيل التي أغفلنا ذكرها لضيق مجال الكتاب .

يفضح زيفها وبُعْدَها عن الدين . وكان الحسين (ع) هو الشخص الوحيد الذي يملك رصيداً كبيراً من المحبة والإجلال في قلوب المسلمين جميعاً ، والقادر على فضح الحكام وكشف حقائقهم وبعدهم الكبير عن مفاهيم الإسلام .

ولهذا كانت ثورته خطاً فاصلاً بين الإسلام والحكم الأموي وأظهر هذا الحكم بمظهره الحقيقي وكشف زيفه .

٢ ـ **الشعور بالإثم** : ـ لقد كان لاستشهاد الحسين (ع) الفاجع في كربلاء أن أثار موجة عنيفة من الشعور بالإثم في ضمير كل مسلم استطاع نصره فلم ينصره بعد أن عاهدوه على الثورة . ولهذا الشعور بالإثم طرفان ، فهو من جهة يحمل صاحبه على أن يكفر عن إثمه الذي ارتكبه ، ومن جهة أخرى يثير في النفس مشاعر الحقد والكراهية لأولئك الذين دفعوه إلى ارتكاب الإثم .. حتى كانت ثورات عديدة أججها مصرع الحسين (ع) وكان باعثها التكفير عن القعود عن نصرته والرغبة في الإنتقام من الأمويين .

وقد قدر لهذا الشعور بالإثم أن يبقى مشتعلَ الأوار حافزاً دائماً إلى الثورة والإنتقام ، وقدر له أن يدفع الناس إلى الثورات على الأمويين كلما سنحت الفرصة ثم لا يرتوي ولا يهدأ ولا يستكين ، وإنما يطلب من صاحبه ضريبة الدم باستمرار وكان سبيل ذلك هو الثورة على الظالمين .

٣ ـ **الأخلاق الجديدة** : ـ كان لا بد لثورة الحسين (ع) من أن تدعو إلى نموذج من الأخلاق أسمى مما يمارسه المجتمع ولا بد من تغيير نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى الآخرين ، وإلى الحياة ليمكن إصلاح المجتمع .

ولقد قدم الحسين (ع) وآله وأصحابهم ـ في ثورتهم على الأمويين ـ الأخلاق الإسلامية العالية بكل صفائها ونقائها ، ولم يقدموا هذه الأخلاق بألسنتهم ، وإنما كتبوها بدمائهم وحياتهم .

لقد اعتاد الرجل العادي إذ ذاك أن يرى الزعيم القبلي أو الديني يبيع ضميره بالمال ، وكان يرى الجباه تعنو خضوعاً وخشوعاً لطاغية حقير لمجرد أنه يملك أن يحرم من العطاء ..

هؤلاء هم الزعماء الذين كان الرجل العادي يعرفهم وقد اعتادهم وألفهم بحيث غدا يرى عملهم هذا طبيعياً لا يثير التساؤل .

لقد أصبح هم المسلم حياته الخاصة ، يعمل لها ويكدح في سبيلها ولا يفكر إلا فيها . أما المجتمع وآلامه فلم يكن ليستأثر من الرجل العادي أي اهتمام ، وكان يهتم غاية الإهتمام بعطائه فيحافظ عليه ، ويطيع توجيهات زعمائه خشية أن يمحى اسمه من العطاء ، ويسكت عن نقد ما يراه جوراً بسبب ذلك [1] وكان يهتم بمفاخر قبيلته ومثالب غيرها .

أما أصحاب الحسين (ع) فقد كان لهم شأن آخر .. لقد كانت العصبة التي رافقت الحسين (ع) في رحلة المصير ، رجالاً عاديين لكل منهم بيت وزوجة وأطفال ، وصداقات ولكل منهم عطاء من بيت المال وفي حياتهم متسعٌ للإستمتاع بالحب وطيبات الحياة ولكنهم جميعاً خرجوا عن ذلك كله وواجهوا مجتمعهم بعزمهم على الموت مع الحسين (ع) .

ولذلك فقد كان غريباً جداً على كثير من المسلمين آنذاك أن يروا إنساناً يخير بين حياة رافهة ، فيها الغنى والمتعة والنفوذ ، ولكن فيها إلى جانب ذلك كله الخضوع لطاغية والمساومة على المبدأ والخيانة له ، وبين الموت .

لقد كان غريباً جداً على هؤلاء أن يروا نموذجاً يتعالى ويتعالى حتى ليكاد القائل أن يقول : ما هذا ببشر .

ولقد هز هذا اللون من الأخلاق ، الضمير المسلم هزاً متداركاً وأيقظه من

---

(١) الطبري جزء ٤ ص ٣٣٤ .

سباته الطويل ، ليكسب الحياة الإسلامية سمة كانت قد فقدتها قبل ثورة الحسين (ع) بوقت طويل ، ثم أخذ المجتمع الإسلامي يشهد من حين لآخر ثورات عارمة يقوم بها الرجال العاديون على الحكام الظالمين ، وكانت روح كربلاء تلهب أكثر القائمين بها ، وتدفعهم إلى الإستماتة في سبيل ما يرونه حقاً .

الروح النضالية :

كانت ثورة الحسين (ع) السبب في انبعاث الروح النضالية في الإنسان المسلم من جديد بعد فترة طويلة من الهمود والتسليم ، فقد حطمت كل الحواجز النفسية والإجتماعية التي حالت دون الثورة .

فواقع الإنسان المسلم كان يدعوه إلى الاستسلام والمساومة والدعة ويقول له حافظ على ذاتك وعطائك ، حافظ على منزلتك الإجتماعية .. فجاءت ثورة الحسين ، وقدمت للإنسان المسلم أخلاقاً جديدة لتقول له : لا تستسلم ، لا تساوم على إنسانيتك ، ناضل قوى الشر ما وسعك ، ضح بكل شيء في سبيل مبدئك . كان الرضا عن النفس يحول بينه وبين أن يثور ويغريه بالقعود عن النضال ، فجاءت ثورة الحسين وخلفت في أعتابها لجماهير كثيرة شعوراً بالإثم وتأنيباً للنفس ورغبة عارمة في التكفير ، وجاءت لتعد الناس إعداداً كاملاً للثورة وإن الروح النضالية ، شأن كبير وخطير في حياة الشعوب وحكامها ، فحين تكون الروح النضالية هامدة ، وحين يكون الشعب مستسلماً لحكامه يشعر حكامه بالأمان ، فيرتكبون ما يشاؤون دون أن يحسبوا حساب أحد ، هذا من جهة الحاكمين وأما المحكومون فنلاحظ أنه كلما امتد الزمن بهمود الروح النضالية سهل التسلط على الشعب مما يجعل اصلاحه وتطويره أمراً بالغ الصعوبة .

ولكي نخرج بفكرة واضحة عن مدى تأثير ثورة الحسين (ع) في بعث روح الثورة في المجتمع الإسلامي ، يحسن بنا أن نلاحظ أن هذا المجتمع منذ مقتل الإمام علي (ع) إلى حين ثورة الحسين (ع) أخلد إلى السكون ولم يقم بأي ثورة أو أي احتجاج جدي جماعي على ألوان الإضطهاد والتقتيل وسرقة أموال

الأمة التي كان يقوم بها الأمويون وأعوانهم بل وقفت الجماهير موقف الخضوع والتسليم عشرون عاماً ـ من سنة أربعين إلى سنة ستين للهجرة .

أما بعد ثورة الحسين (ع) فقد انبعثت الروح النضالية في الأمة وبدأت الجماهير ترقب زعيماً يقودها وكلما وجد القائد وجدت الثورة على حكم الأمويين . ونلاحظ هذه الروح الثورية ، في كل الثورات التي حملت شعار الثأر لدم الحسين (ع) والتي جاءت صدى لثورته (ع) ونجمل هنا ذكر هذه الثورات وهي : ـ

١ ـ ثورة التوابين : ـ

اندلعت في الكوفة ، وكانت رد فعل مباشر لقتل الحسين (ع) ، وانطلقت من شعورها بالإثم لتركهم نصرة الحسين (ع) ، بعد أن استدعوه بكتبهم إلى الكوفة ورأوا أن يغسلوا عارهم بالانتقام من قتلة الحسين (ع) وكانت سنة ٦٥ للهجرة [١] .

٢ ـ ثورة المدينة : ـ

وهي ثورة تختلف في دوافعها عن ثورة التوابيين فهي لم تستهدف الإنتقام ، بل استهدفت تقويض سلطان الأمويين الظالم ، وقد ثارت المدينة على الأمويين ، وطرد الثائرون عامل يزيد والأمويين وقدرهم ألف رجل ، ولكن الثورة قمعت بجيش من الشام بوحشية متناهية [٢] .

٣ ـ ثورة المختار الثقفي : ـ

ثار المختار بن أبي عبيدة الثقفي سنة ٦٦ هـ في العراق طالباً ثأر الحسين ، وقد تتبع المختار قتلة الحسين وآله في كربلاء وقتلهم فقتل منهم في يوم واحد

---

(١) الطبري ، ثورة التوابين ج ٤ ص ٤٢٦ ـ ٤٣٦ .
(٢) الطبري ثورة المدينة ج ٤/ ص ٣٦٦ ـ ٣٨١ .

مائتي وثمانين رجلاً [1] .

٤ ـ **ثورة مطرف بن المغيرة : ـ**

وفي سنة ٧٧ هـ ثار مطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج بن يوسف ، وخلع عبد الملك بن مروان [2] .

٥ ـ **ثورة ابن الأشعث : ـ**

وفي سنة ٨١ هـ ثار عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث على الحجاج ، وخلع عبد الملك بن مروان ، وقد استمرت ثورته إلى سنة ٨٣ هـ وأحرزت انتصارات عسكرية ، ثم قضى عليها الحجاج بجيوش سورية [3] .

٦ ـ **ثورة زيد بن علي بن الحسين :**

وفي سنة ١٢٢ هـ ثار زيد في الكوفة ولكن سرعان ما أخمد أوار ثورته الجيش الشامي الذي كان مرابطاً في العراق [4] .

هذه نماذج من الثورات التي تأثرت بوضوح ونفذت بروح الثورة التي بثها الحسين (ع) في الشعب المسلم والتي استمرت طيلة الحكم الأموي ، حتى قضت عليه بثورة العباسيين ، والتي لم تكن لتنجح لو لم تعتمد على إيحاءات ثورة الحسين (ع) واستغلالها لشعار الرضا من آل البيت الذي أكسبها الكثير من القواعد الشعبية المؤيدة والعطف الجماهيري .

ولكن الثورات استمرت على حالها تتحدى الإنحرافيين الجدد ولم تخمد بل بقيت ناشبة أبداً يقوم بها الإنسان المسلم دائماً فيعبر بها عن إنسانيته التي خنقها

---

(١) نفس المصدر ج ٤ / ٤٢٤ .

(٢) نفس المصدر ثورة مطرف .

(٣) نفس المصدر ثورة الأشعث والدولة العربية لولهاوزن ص ١٨٩ ـ ٢٠٣ .

(٤) مقاتل الطالبيين للأصفهاني ص ١٣٩ .

الحاكمون وزيفوها [١] .

وكان ذلك بفضل الروح التي بثتها ثورة الحسين (ع) في كربلاء ، فقد كانت ثورته (ع) رأس الحربة في التاريخ الثوري فهي الثورة الأولى التي عبأت الناس ودفعت بهم في الطريق الدامي الطويل ، طريق النضال ، بعد أن كادوا أن يفقدوا إرادة النضال [٢] .

* * *

---

(١) محاضرات في التاريخ الإسلامي د . عواد الأعظمي ٣ ـ ٢٢ .

(٢) ثورة الحسين ظروفها محمد مهدي شمس الدين ص ٢٢٣ .

الامام علي بن الحسين (ع)

عاش الإمام السجاد (ع) أقسى فترة من الفترات التي مرت على قادة أهل البيت (ع) لأنه عاصر بداية قمة الانحراف الذي بدأ عقب وفاة الرسول (ص) ـ كما تحدثنا عنه سابقاً .

ولكن الذي يهمنا الآن من هذا الإنحراف ، أنه في زمن السجاد (ع) بدأ يأخذ شكلاً صريحاً ، لا على مستوى المضمون فقط بل على مستوى الشعارات والكلمات المطروحة من قبل الحكام في العمل والتنفيذ .

فقد انكشف واقع الحكام أمام كل الجماهير المسلمة ، بعد مقتل الامام الحسين (ع) نظرياً وعملياً ، ولم يبق ما يستر عورة حكمهم أمام الأئمة التي خبرت واقعهم وحقيقتهم المزرية .

وقد عاصر الامام السجاد (ع) كل المحن والبلايا التي وقعت أيام جده أمير المؤمنين ، وقد ولد قبل استشهاد الامام علي (ع) بثلاث سنوات وتفتحت عيناه وجده أمير المؤمنين في محنته في خط الجهاد في حرب الجمل ، ومن ثم عاش مع الحسن (ع) في محنته ، ومع أبيه الحسين عليه السلام وهو في محنته الفاجعة الى أن إستقل الامام السجاد بالمحنة وجهاً لوجه ، وقد وصلت به المحنة عندما رأى جيوش بني أمية تدخل مسجد رسول الله (ص) في المدئنة وتربط خيلها في المسجد ، هذا المسجد الذي كان من المنتظر أن يكون منطلقاً للرسالة وأفكارها الى العالم كله ، بل بالعكس نرى أن هذا المسجد قاسى ـ عهد الامام

السجاد (ع) ـ كثيراً من الذل والهوان على يد جيش الإنحراف الذي أعلن إباحة المدينة والمسجد ، وهتك حرمات النبي (ص) فيها .

هذه الفترة التي عاشها السجاد (ع) يمكن أن تعتبرها من أقسى الفترات التي مرت على السجاد (ع) ، فقد مثلت بداية انكشاف قمة الإنحراف ، وقد كان فيها الإمام (ع) ممتحناً أكثر من سائر الأئمة (ع) .

« وكان القتل هو أبسط الوسائل التي تستعمل في هذا الصراع إذ كان التمثيل الانتقامي بالجثث والصلب على الأشجار وتقطيع الأيدي والأرجل وألوان العقاب البدني المختلفة هي لغة الحديث اليومي » .

لقد كان لثورة أبيه الحسين (ع) ونهايته الفاجعة في كربلاء أثر في إطلاق الشعور بالإثم ، ومشاعر الحقد والكراهية لبني أمية .

وهذا ما نراه جلياً في الشعب المسلم بعد ثورة الحسين (ع) واستشهاده فقد دفع الشعور بالإثم كثيراً من الجماعات الإسلامية إلى العمل للتكفير وزادهم بغضاً للأمويين وحقداً عليهم ، وكان التعبير الطبيعي للرغبة في التكفير وللحقد هو الثورة وهكذا كان .

ولكن أغلب الثورات التي وقعت كان موقفها من الحكم الأموي موقفاً عاطفياً ولم يكن موقفاً عقلياً نابعاً من إدراك بُعْد الأمويين عن الدين [1] .

السجاد (ع) يلهب الشعور بالاثم

أما موقف الإمام السجاد من هذه الظاهرة ـ الشعور بالإثم ـ فقد وقف منها موقفاً إيجابياً مستغلاً هذا الشعور والعامل النفسي لدفع المسلمين إلى المزيد من التحدي وجعله عاملاً يحسب له حساب عند الحاكمين .

(١) ثورة الحسين محمد مهدي شمس الدين .

وحاول الإمام علي بن الحسين أن يلهب هذا الشعور بالإثم وأن يزيده حدة فقال مخاطباً حشداً هائلاً من أهالي الكوفة :

« أيها الناس ، ناشدتكم الله ، هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه ، وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة وقاتلتموه ؟ فتباً لكم لما قدمتم لأنفسكم وسوأة لرأيكم . بأي عين تنظرون إلى رسول الله إد يقول لكم ، قتلتم عترتي وانتهكتم حرمتي ، فلستم من أمتي » [1] .

« وقد قدر لهذا الشعور بالإثم أن يبقى مشتعل الأوار حافزاً دائماً إلى الثورة والإنتقام ، وقدر له أن يدفع الناس إلى الثورات على الأمويين كلما سنحت الفرصة ثم لا يرتوي ولا يهدأ ولا يستكين » [2] .

هذا الجو المضطرب المشحون بالثورات والإنتفاضات دفعت بني أمية إلى إحكام الرقابة الصارمة على تحركات الإمام السجاد (ع) وفرض الرقابة الجبرية عليه ، وكانت تفسر كل حركة تصدر منه ببادرة ثورة جديدة تستهدف بالضرورة حكمهم المنحرف .

ومن خلال هذا الوسط القلق المضطرب ، كان على الإمام السجاد (ع) أن يجد طريقاً وأسلوباً جديداً يواجه به مثل هذه الظروف القاسية . وفي نفس الوقت كان عليه أن ينظر ـ بحذر المسؤول والحامي للشريعة ـ خطط الحكام المنحرفين ومراقبتهم الشديدة المشوبة بالخوف والتحفز للإنتقام منه .

ولهذا السبب استعمل الإمام (ع) أسلوب الأدعية وأكثر منها ، وقد جاءت أدعيته معاناة تعبر عن أحداث عصره ومليئة بمعاني الدعوة وبناء الأمة « بعد أن رأى أن يجرد كلماته وآراءه من ثوب العنف والثورة وإن كانت في واقعها أشد

---

(١) أعيان الشيعة ص ٣٢١ ـ ٣٢٣ .

(٢) ثورة الحسين .

من العنف والثورة ، ولأنه (ع) رأى أن الآراء تفقد حرمتها وتصبح عرضة للحجر عليها إذا ألبس التعبير عنها ثوباً من الإيعاز والتحريض المباشر ، فجاءت كلماته شكوى ودعاء وبث فيها كل ما أراد من ثورة وتحريض » [1] .

دور الامام (ع) في الأمة

اتجه الإمام السجاد (ع) إلى سلوك طريقين من طرق العمل مع أمته وجماعته بالخصوص وهي : ـ

١ ـ تحريك الضمير الثوري عند الإنسان المسلم والتركيز على استفزاز شعورهم بالإثم وضرورة التكفير عنه ، وذلك للحفاظ على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية من الإنهيار والتنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين .

وكان من الضروري إعطاء هذه الصلاحيات والمبادرات إلى سائر المسلمين مع إسناد وتوجيه الإمام (ع) للمخلصين منهم .

ولذلك نرى الإمام السجاد (ع) يصدر بياناً عاماً وثناؤه الحار لكل مسلم يمارس عمل الثورة ضد الحكام المنحرفين ، وحينما ذهب محمد بن الحنفية مع رسول المختار الثقفي للإمام السجاد (ع) ليستشيره في طلب المختار في الثورة ، نرى الإمام ، يجيبه ببيان عام لم يكن يخص المختار فقط ، بل إن بيانه يشمل كل مسلم يقف ثائراً بوجه ظلم بني أمية وحكمهم المنحرف .

٢ ـ تخطيطه الفكري وتوعيته العقائدية والروحية للأمة « ويعتبر علي بن الحسين المؤسس الثاني للمدرسة الإسلامية ، وكان منزله وكان المسجد مدرسته يزدحم فيها الطلاب عليه ، وأصبح تلامذته فيما بعد بناة الحضارة الإسلامية

---

(١) زين العابدين ـ سيد الأهل .

ورجال فكرها وتشريعها وأدبها الإسلامي [١] .

وقد قام (ع) بدور مهم في تزويد العلماء والرواة بأحاديثه في مختلف العلوم والفنون ورووا عنه « الصحيفة السجادية » التي هي إنجيل آل محمد (ص) وذلك لما حوته من الثروات الفكرية المتميزة بوضع قواعد الأخلاق وأصول الفضائل وعلوم التوحيد وغيرها .

وقد جابه الإمام علي بن الحسين المشاكل والعقبات الفكرية التي كانت تهدد كرامة الدولة الإسلامية ، وتعجز الزعامات المنحرفة عن حلها بصفته الممثل الحقيقي للإسلام .

« كما في المشكلة التي أحدثها كتاب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان إذ عجز عبد الملك عن الجواب على كتاب في مستواه ، فملأ علي بن الحسين هذا الفراغ وأجاب بالشكل الذي يحفظ للأمة الإسلامية هيبتها [٢] . وهو في ذلك يتوخى المصلحة الإسلامية العليا بما يواجه المجتمع الإسلامي من مشاكل والدولة من أزمات ، فكان موقف الأئمة من صراع الدولة الإسلامية بما فيها الحاكم مع الكفر والأخطار المحدقة بالمسلمين من قبل الأعداء مادياً وعقائدياً ، موقف المؤيد للجهات الحاكمة تأييداً محترساً مقتضباً ، خشية أن تقع هذه الجهات في الإنحراف وتستغل تأييده لتعطي انحرافها مبرراً شرعياً .

ومن هنا كانت نشاطات الإمام (ع) تتسع أو تضمر بحسب الظروف التي يمر بها الإمام (ع) إذ أنها تتناسب تناسباً عكسياً مع ضغط الجهاز وضعفه .

تصورات خاطئة عن الامام (ع)

هناك ـ مع الأسف ـ تصور شائع عند بعض المؤرخين : « بأن أئمة الشيعة

---

(١) الموسوعة ٦٦٠ .

(٢) دور الأئمة ـ الصدر .

الإمامية من أبناء الحسين قد اعتزلوا بعد مذبحة كربلاء ، السياسة وانصرفوا إلى الإرشاد والعبادة والإنقطاع إلى الدنيا » (١) .

« وهنا نجد تصوراً خاطئاً آخر لدى كثير من الناس الذين اعتادوا أن يفكروا في الأئمة بوصفهم أناساً مظلومين فحسب قد أقصوا عن مراكز القيادة وأقرت الأمة هذا الإقصاء وذاقوا بسبب ذلك ألوان الإضطهاد والحرمان » (٢) .

ويدللون على قولهم هذا بتاريخ حياة الإمام السجاد (ع) وانعزاله عن الحياة الإسلامية العامة ، وتخليه الظاهري عن الجانب السياسي من قيادته ، ويبدو أن سبب هذه التصورات الخاطئة لدى المؤرخين وهو « ما بدا لهم من عدم إقدامهم على عمل مسلح ضد الوضع الحاكم مع إعطاء الجانب السياسي من القيادة معنى ضيقاً لا ينطلق إلا على عمل مسلح من هذا القبيل .

والإمام السجاد (ع) كان يؤمن بأن تسلم السلطة وحده لا يكفي من تحقيق عملية التغيير إسلامياً ما لم تكن هذه السلطة مدعمة بقواعد شعبية واعية تعي أهداف تلك السلطة وتؤمن بنظريتها في الحكم وتعمل في سبيل حمايتها وتفسير مواقفها للجماهير وتصمد في وجه الأعاصير » (١) .

وهذا الأمر ما كان يفتقده الإمام السجاد (ع) ويشكو منه لعدم وجود تلك القاعدة الشعبية المساندة له بوعي وإخلاص .

والإمام (ع) يبين لنا هذا الواقع في تحليل رائع دقيق قائلاً : ـ

« فنظرت يا إلٰهي إلى ضعفي عن احتمال الفوادح وعجزي عن الإنتصار من قصدني بمحاربته ووحدتي في كثير عدد من ناواني » (٢) .

---

(١) بحث في الولاية الصدر .
(٢) دور الأئمة .
(٣) دور الأئمة .
(٤) الصحيفة .

فالإمام (ع) يحدد موقفه الواعي من أعدائه ، وشروط الإنتصار عليهم ، إذ أن الإنتصار مرهون عند الإمام (ع) ببناء الأنصار والكتلة الواعية ، لتنقله من وحدته وضعفه إلى قوة النفوذ المنظم القادر على فرض الإسلام ، من خلال نفوذ القواعد الشعبية الواعية وقوة عملها القيادي التي أشار إليها الإمام (ع) بقوله : ـ « ووحدتي في كثير عدد » ، فشرط الإنتصار إذن ، هو أن تتحول هذه الأعداد العاطفية التي تحمل صفة الكم إلى أعداد واعية تحمل صفة النوع ، « وخصوصاً بعد أن نشأت أجيال مائعة في ظل الإنحراف ، لم يعد تسلم الحركة الشيعية للسلطة محققاً للهدف الكبير ، بل إن الأمر يتوقف قبل ذلك على إعداد جيش عقائدي يؤمن بأهداف الإمام ويدعم تخطيطه في مجال الحكم ويحرس ما يحققه للأمة من مكاسب » .

وأما ما يقال من أن أئمة أهل البيت من أبناء الحسين اعتزلوا السياسة وانقطعوا عن الدنيا ، فهو زعم يكذبه وينفيه واقع حياة الأئمة الزاخرة كلها بالشواهد على إيجابية المشاركة الفعالة التي كانوا يمارسونها .

فمن ذلك علاقات الإمام السجاد (ع) بالأمة والزعامة الجماهيرية الواسعة النطاق التي كان يتمتع بها على طول الخط ، فإن هذه الزعامة لم يكن يحصل عليها الإمام (ع) صدفة أو على أساس مجرد الإنتساب إلى الرسول ـ والمنتسبون إلى الرسول كثر ـ بل على أساس العطاء والدور الإيجابي الذي يمارسه الإمام في الأمة بالرغم من إقصائه عن مركز الحكم فإن الأمة لا تمنح على الأغلب الزعامة مجاناً ولا يمتلك الفرد قيادتها ويحتل قلوبها بدون عطاء سخي منه تستشعره الأمة في مختلف مجالاتها وتستفيد منه في حل مشكلاتها والحفاظ على رسالتها .

ونلاحظ بهذا الصدد المناسبة الشهيرة التي أنشد فيها الفرزدق قصيدته التي مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحل والحرم

أنشدها في علي بن الحسين زين العابدين (ع) ، نلاحظ كيف أن هيبة الحكم والسلطان لم تستطع أن تشق لهشام طريقاً لإستلام الحجر بين الجموع المحتشدة من أفراد الأمة في موسم الحج ، بينما استطاعت زعامة أئمة أهل البيت أن تكهرب تلك الجماهير في لحظة وهي تحس بمقدم الإمام القائد وتشق الطريق بين يديه نحو الحجر [1] .

كل هذه المظاهر للزعامة الشعبية التي عاشها أئمة أهل البيت على طول الخط تبرهن على إيجابيتهم وشعور الأمة بدورهم القيادي الفعال في حماية الرسالة .

وفي جانب آخر نرى أن السجاد (ع) يترك العمل المسلح بصورته المباشرة ضد الحكام المنحرفين إلى كل مسلم ثائر يحاول بتضحيته الحفاظ على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية من خطر التردي الى الهاوية .

ومن هنا كانت مبادرة الإمام السجاد (ع) في إعلانه العام وثنائه الحار الذي خاطب به كل مسلم يحثه على تحمل مسؤوليته الثورية ضد بني أمية لكي تتحصن الأمة ضد التنازل عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين .

وتخلي الإمام عن الجانب الثوري بشكله المباشر والإكتفاء بالتأييد والإسناد والثناء على القائمين به لا يعني تخليه عن الجانب السياسي من القيادة وانصرافه إلى العبادة ، وإنما كان يعبر عن اختلاف صيغة العمل السياسي التي تحددها الظروف الموضوعية التي عاشها الإمام » [2] .

هذه التصورات والأفكار التي تشاع على لسان بعض المؤرخين « بالرغم من أنها خاطئة تعتبر خطراً من الناحية العملية لأنها تحبب إلى الإنسان السلبية والإنكماش والإبتعاد عن مشاكل الأمة ومجالات قيادتها »[3] .

---

(١) دور الأئمة ـ الصدر .
(٢) بحث في الولاية .
(٣) دور الأئمة .

وهذا الفهم الخاطئ هو الذي دفع بعض المؤرخين إلى القول باعتزال الأئمة السياسة ، مما دعا بعض المفكرين مخاطبة علماء الدين والمتدينين بالإقتداء بالأئمة (ع) في ترك العمل السياسي لأنه يتنافى وطبيعة الدين الإسلامي » [١] .

« ولم تنشأ في الواقع هذه النظرة إلى الأئمة (ع) إلا بعد بروز النظرة التجزيئية إلى التشيع الروحي بصورة منفصلة عن التشيع السياسي ولم تولد في ذهن الإنسان الشيعي إلا بعد أن استسلم للواقع وانطفأت جذوة التشيع في نفسه كصيغة محددة لمواصلة القيادة الإسلامية في بناء الأمة وإنجاز عملية التغيير الكبيرة التي بدأها الرسول العظيم (ص) وتحولت إلى مجرد عقيدة يطوي الإنسان عليها قلبه ويستمد منها سلوته وأمله [٢] .

فالتشيع كما هو في واقعه .. صيغة معينة لمواصلة القيادة الإسلامية،والقيادة الإسلامية لا تعني إلا ممارسة عملية التغيير التي بدأها الرسول الكريم لتكميل بناء الأمة على أساس الإسلام ، فليس من الممكن أن نتصور تنازل الأئمة عن الجانب السياسي إلا إذا تنازلوا عن التشيع للإسلام [٣] .

والأئمة (ع) بالرغم من التآمر لإقصائهم عن مجال الحكم كانوا يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها ضد التردي إلى هاوية الإنحراف والإنسلاخ من مبادئها وقيمها إنسلاخاً تاماً . فكلما كان الإنحراف يطغى ويشتد وينذر بخطر التردي إلى الهاوية ، كان الأئمة يتخذون التدابير اللازمة ضد ذلك .

وكلما وقعت التجربة الإسلامية أو العقيدة في محنة أو مشكلة وعجزت الزعامات المنحرفة عن علاجها بحكم عدم كفاءتها بادر الأئمة إلى تقديم الحل ووقاية الأمة من الأخطار التي كانت تهددها .

(١) إشارة إلى محاضرة الدكتور صادق مهدي السعيد الذي ألقاها في الموسم الثقافي في النجف الأشرف .

(٢) و (٣) بحث في الولاية ــ الصدر .

الفصل الثالث

المرحلة الثانية

المرحلة الثانية :

في هذه المرحلة اتجهت جهود الأئمة (ع) إلى إبراز وتحديد الإطار التفصيلي الخاص للكتلة الشيعية بوصفهم الكتلة المؤمنة والمحافظة على الخط الحقيقي للإسلام .

فالإطار التفصيلي الخاص للكتلة الشيعية لم يكن متميز المعالم محدد الإطار لكل الناس أيام أئمة المرحلة الأولى ، فقد اتجه نشاطهم الرئيسي إلى مواجهة صدمة الإنحراف ومحاولة حماية الإسلام وإبقائه كشريعة دون تحريف يشوه محتواه ، والعمل على إعادة الروح النضالية التي افتقدتها الأمة عبر سنوات الإنحراف بعد وفاة الرسول (ص) .

أما المرحلة الثانية فكانت مجالاً خصباً للأئمة ، لإيجاد الطابع المميز للكتلة الشيعية أكثر مما توفر لأئمة المرحلة السابقة .

وقد أساء بعض المؤرخين فهم فكرة التشيع ، واعتبروها ظاهرة طارئة في التاريخ الإسلامي ، مستندين في قولهم هذا إلى بروز التشيع متدرجاً ومتطوراً من خلال أحداث اجتماعية دفعت بها في التاريخ الإسلامي إلى أن انجلت مظاهره إبان هذه المرحلة .

« أما التشيع في واقعه الصحيح فقد وجد في إطار الدعوة الإسلامية متمثلاً في الأطروحة النبوية التي وضعها الرسول (ص) بأمر من الله للحفاظ على مستقبل الدعوة ، وهكذا وجد التشيع لا كظاهرة طارئة على مسرح الأحداث ، بل كنتيجة ضرورية لطبيعة تكوّن الدعوة وحاجاتها وظروفها الأصلية وبمعنى آخر كانت تفرض على الإسلام أن يلد التشيع ، وبمعنى آخر كانت تفرض على القائد الأول للتجربة أن يعد للتجربة قائدها الثاني الذي تواصل على يده ويد خلفائه نموها الثوري » [1] .

---

(١) بحث في الولاية .

وكذلك جاء تخطيط الأئمة ، مختلفاً في اتجاهاته وتركيبه وتكوينه ، وذلك وفقاً لمتطلبات القضية الإسلامية ، ومستلزماتها في كل مرحلة .

وقد أعطى أئمة هذه المرحلة ، الباقر والصادق والكاظم عليهم السلام ، جهودهم لإبراز ذلك الإطار التفصيلي للكتلة الشيعية ، ومن خلال ظروف اجتماعية دقيقة بأروع ما يكون التخطيط .

* * *

الامام محمد الباقر (ع)

الإمام محمد الباقر (ع) يشكل تقريباً بداية المرحلة الثانية من مراحل عمل الأئمة (ع) . وذلك حسب التقسيم المرحلي الذي اتبعناه في البحث .

فبعد أن أنجز أئمة المرحلة الأولى مهمة تحصين الإسلام من خطر صدمة الإنحراف ، والإحتفاظ بالإسلام كتشريع .. بدأت جهود أئمة المرحلة الثانية ، بنشاط الإمام الباقر (ع) فتميزت جهوده وتمحورت حول إعطاء الكتلة الشيعية ، إطارها التفصيلي الخاص بها بوصفها الكتلة المؤمنة والمحافظة على الخط الحقيقي للإسلام .

والفرق بين الدورين ، هو أن أئمة المرحلة الأولى أظهروا معنى التشيع بالنطاق الضيق والخاص ، لأنهم انشغلوا بمعالجة هدفهم الرئيسي ألا وهو تحصين الإسلام من صدمة الإنحراف . بينما جاء أئمة المرحلة الثانية والإمام الباقر (ع) بالذات كي يمنح الكتلة الشيعية وعلى المستوى العامّ إطارها التفصيلي الشامل .

ولا يعني هذا أن أئمة المرحلة الأولى لم يعملوا لإبراز الكتلة الشيعية ، بل إن نشاطهم في هذا المجال كان ثانوياً وعلى مستوى خاص ، وقد سبق للإمام علي (ع) هذا النشاط وعلى المستوى الخاص جداً من كتلته من أمثال سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر ومالك الأشتر وغيرهم .

نظرة الأمة للإمام الباقر (ع)

كان مجيء الإمام الباقر (ع) إيذاناً بمباشرة مهامه التغييرية حيث كانت الأمة تتطلع إليه بوصفه واحداً من أبناء أولئك الذين ضحوا بأرواحهم ودمائهم لكي يوقفوا موجة الإنحراف التي كادت أن تطمس معالم الإسلام ، فهم وقفوا وضحوا من أجل أن يفهم المسلمون أن حكامهم الذين يحكمون باسم الإسلام ، بعيدون كل البعد عن تطبيقه حتى أصبحت مفاهيم الكتاب والسنة في واد والحكام المنحرفون في واد آخر .

إن مهمة كشف الحكام وواقعهم المنحرف وبعدهم عن الإسلام كانت من مهمة أئمة المرحلة الأولى ، وقد انجزت وتمت بنجاح من خلال جهودهم وتضحياتهم (ع) .

وهنا جاء الإمام الباقر (ع) ليستثمر تلك المعاني والجهود ويوضح للمسلمين أن تلك الإنجازات الكبيرة والتضحيات العظيمة لم تكن في وقت من الأوقات ، مجرد أعمال شخصية وعفوية قام بها أشخاص لنصرة الإسلام ، تدفعهم لذلك دوافع الغيرة على الإسلام فحسب بل إنها وجه واحد من وجوه النشاط الذي اتجه لبناء تكتل واعٍ يؤمن بالإسلام إيماناً صحيحاً واعياً ، وأن لهذا التكتل معالم وإطاراً وشروطاً خاصة ، ونظرة متميزة يحملها في مختلف شؤون الحياة الإسلامية .

ومن هنا يمكن اعتبار جهود الإمام الباقر (ع) استمراراً وتصعيداً لبناء بدأه آباؤه السابقون ، مستفيداً من المكاسب التي حققوها في هذا المضمار .

فالخط التاريخي المتمثل بتضحيات وجهود أئمة المرحلة الأولى أكسب الإمام الباقر (ع) المكانة الرائدة عند الأمة الإسلامية ، هذه المكانة عرفناها من خلال نصوص تاريخية كثيرة ، ففي سؤال لهشام حين يقول من هذا ؟ مشيراً إلى الإمام ، فيقال له هذا من افتتن به أهل العراق ، هذا إمام أهل العراق [1] .

وفي رواية حبابة الوالبية قالت : رأيت رجلاً بمكة بين الباب والحجر على صعدة من الأرض .. انثال عليه الناس يستفتونه عن المعضلات ويستفتحونه أبواب المشكلات ، فلم يرم حتى أفتاهم في ألف مسألة ثم نهض يريد رحله ومنادٍ ينادي بصوت مهل : ألا إن هذا النور الأبلج ... وآخرون يقولون من هذا ؟ فقيل : محمد ابن علي الباقر على العلم والناطق عن الفهم الإمام محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام [2] .

وعن الأبرشي الكلبي لهشام مشيراً إلى الباقر (ع) من هذا الذي احتوشته أهل العراق يسألونه ؟ قال : هذا نبي الكوفة ويزعم أنه ابن رسول الله وباقر العلم ومفسر القرآن فاسأله مسألة لا يعرفها [3] .

وفي موسم الحج كانت الآلاف من المسلمين ، من العراق وخراسان وغيرهما تستفتيه وتسأله في جميع شؤون المعرفة الإسلامية ، وهي دلائل ومؤشرات على شعبيته (ع) ومدى نفوذه الواسع في قلوب المسلمين ، ومدى تعاطف الجماهير معه .

وقد جرت محاولات كثيرة من قبل كبار الفقهاء المنتمين إلى مدارس فكرية في تحدي الإمام (ع) وإثارة الأسئلة الصعبة أمامه ، وطلب الإجابة عليها لإحراجه وتحديه أمام الناس . وقد كان يسافر الواحد منهم من بلد إلى بلد من أجل أن يلقي عليه السؤال .

كل هذه الدلائل تشير إلى دقة تخطيط الإمام ومدى تعاطفه ونفوذه الواسع

مع الأمة ، الذي أدى إلى ردود فعل مختلفة في كثير من البلدان .

ويبدو من بعض النصوص أنه (ع) كانت زعامته الشعبية فوق حدود العالم الإسلامي وانقسامات شعوبه ، فلم يكن زعيم شعب دون شعب ، بل إن كانت الشعوب الجديدة الداخلة في الإسلام أيضاً تعترف بزعامته وترتبط به روحياً ، بالرغم من وجود ذلك التناقض والتناحر العنصري والقبلي إبان الخلافة الأموية بين المضريين والحميريين والعداء الشديد المستعر بينهما ، وبالرغم من كل ذلك نرى أن أبناء كلا القبيلين هم في طليعة أصحاب الإمام (ع) حتى أصبح شعراء الشيعة الرسميين من هذين الطرفين ، فالفرزدق التميمي المغيري والكميت الأسدي الحميري اتفقا على الولاء للإمام ولأهل البيت (ع) .

هذا الرصيد من التعاطف الجماهيري ، والنفوذ الواسع ، ورثه الإمام الباقر (ع) من تلك الجهود والتضحيات التي تجسدت في أعمال أئمة المرحلة الأولى ، ونفس هذه الجهود والتضحيات أتاحت لأئمة هذه المرحلة العمل على إبراز وإعطاء الإطار التفصيلي والواضح للتشيع .

الامام (ع) يضع النقاط على الحروف

ذكرنا أن مهمة الإمام الرئيسية اتجهت في هذه المرحلة إلى توضيح الإطار التفصيلي للتشيع ، وكشف ملامحه المتميزة ، وإخراج العمل من أجله من مستوى أشخاص معدودين إلى مستوى أرحب بتنمية الكتلة كما ونوعاً . وتمثيلها للإسلام الحقيقي ومعالجتها لشؤون الحياة كافة .

وكانت ممارسات الباقر (ع) في هذا المجال تتجه لتحقيق مهامها التاريخية عن طريقين : ــ

الأول : طريق التثقيف الموسع من داخل مدرسته التي أسسها لهذا الغرض ولتزويد علمائها وطلابها بالعلوم الإسلامية وآدابها ، فقد كان الإمام الباقر (ع) المرجع الوحيد للعالم الإسلامي في عصره لعلوم الشريعة ، وكان علماء عصره

يتصاغرون أمامه [1] اعترافاً منهم بسمو منزلته العلمية التي لا يدانيها أحد .

وكانت مدرسته مدعاة لتخريج المئات من العلماء والمحدثين . يقول جابر الجعفي : حدثني أبو جعفر سبعين ألف حديث » . وقال محمد بن مسلم : « ما شجر في رأيي شيء إلا سألت عنه أبا جعفر (ع) حتى سألته عن ثلاثين ألف حديث » .

وقد عد ابن شهر آشوب من الرواة عن الإمام من بقايا الصحابة ووجوه التابعين ورؤساء فقهاء المسلمين ، فمن الصحابة جابر بن عبد الله الأنصاري ومن التابعين جابر بن يزيد الجعفي ، وكيسان السختياني ومن الفقهاء ابن المبارك والزهري والأوزاعي وأبي حنيفة ومالك والشافعي وزياد بن المنذر ومن المصنفين : الطبري والبلاذري والسلامي والخطيب في تواريخهم .

الثاني : عن طريق مجابهة الأمة بهذا الإطار ولأول مرة تقريباً في حياة الأئمة (ع) والتركيز بشكل واضح ومحدد لمفهوم التشيع باعتباره عقيدة كتلة واعية لها طريقتها الخاصة في تفسير الإسلام ولا بد من إشاعتها في صفوف المجتمع الإسلامي كله .

وكان الإمام (ع) يصف شيعته بقوله : « إنما شيعتنا ـ شيعة علي ـ المتباذلون في ولايتنا ، المتحابون في مودتنا ، المتآزرون لإحياء الدين ، إذا غضبوا لم يظلموا وإذا رضوا لم يسرفوا ، بركة على من جاورهم وسلمٌ لمن خالفهم » وقال أيضاً : « شيعتنا من أطاع الله » .

وفي بعض المناسبات كانت تتحول مجابهة الإمام (ع) إلى درجة التحدي لذهنيات غالبية أبناء الأمة ، الذين لم يكونوا مؤمنين بهذا الإطار الذي يعمل من أجله الإمام (ع) .

ولهذا كان الإمام (ع) يطرح شعاراته بكل صراحة ووضوح على مستوى

---

(١) مرآة الجنان ج ١ ص ٢٤٨ .

الأمة .. ففي رواية أن الباقر والصادق (ع) حجا بيت الله وقد اصطحب الإمام ابنه الصادق (ع) حتى إذا بلغ المسجد الحرام ، والألوف من الناس محتشدين في المسجد ، وبحضور هشام بن عبد الملك ، وقف الصادق (ع) بمحضر أبيه يوضح لهم المفهوم الشيعي عن أهل البيت (ع) ويقول لهم بكل صراحة ، بأنهم هم الذين يتمتعون بهذه الصفات والخصوصيات ، وهم أصحاب الزعامة الروحية والإجتماعية في المجتمع وهم وارثوه الحقيقيون .

هذه المعالنة الصريحة وعلى هذا المستوى الجماهيري وبحضور هشام بن عبد الملك ، لم تكن مجازفة أو مغامرة لم يحسب لها الإمام (ع) الحساب ، بل جاءت وفق تخطيط لمتطلبات هذه المرحلة ، والتي كانت تتطلب من الأئمة توضيحاً يعيه المسلمون بأن المسألة ليست مسألة الإمام الحسين (ع) حارب مخلصاً للإسلام ثم استشهد أو أنها مسألة الإمام (ع) حارب وقتل .. بل إن المسألة أرفع وأسمى من هذا التصور الساذج البسيط ، هي مسألة مبدأ وقيادة وتخطيط إلهي ذات معالم واضحة . هذه القيادة هي التي ظهرت عند الحسين (ع) وهي الآن تظهر مرة أخرى ، وسوف تبقى لتبرز في مختلف العصور والأجيال .

هذه المسألة كان لا بد من تنبيه الأمة إليها ، واستيعابها بشكل واضح وتفصيلي ، والعمل على هز الأمة هزاً عميقاً يتغير معه الواقع المعاش .

وليس أدل على ذلك حين دخل الإمام الباقر (ع) على الخليفة الأموي وحاول الخليفة أن يسأله مستهزئاً بقوله : هل أنت ابن أبي تراب ؟ .. ثم شرع يحاول الاستخفاف بالإمام ، ولكن الباقر (ع) لم يعر الأمر اهتمامه ، بل وقف بعدها خطيباً في مجلس الخليفة ، ليوضح زعامة أهل البيت ومشروعيتهم في الحكم .

والإمام (ع) بدعوته ومكاشفته هذه يمثل دوراً جديداً من خلال ذلك التخطيط الموسع والمجابهة الصريحة للأمة بأهدافه الواضحة .

عقبات في طريق تخطيط الامام (ع)

وقتئذٍ كانت الحياة الإسلامية العامة تتمخض في إعطاء مبدأ آخر محدد

المعالم ومعاكس لمبدا الإمام (ع) .

هذه الحالة التي بدأ يعاصرها الباقر (ع) كانت بداية جديدة تجسد فيها الإنحراف السياسي ولكن بشكل مبدأ فكري وهذا المبدأ هو امتداد لذلك الإنحراف السياسي الذي تحدثنا عنه في المرحلة الأولى من عمل الأئمة (ع) .

فالإنحراف السياسي الذي عاشه أئمة المرحلة الأولى أخذ يتحول ويتحدد خلال هذه الفترة وعلى امتداد ثمانين عاماً في مبدإ فكري يعاكس المبدأ الفكري لأطروحة الإمام (ع) وكان ما يأتي :

١ ـ تمثل هذا المبدأ ، بمرجعية الصحابة من المهاجرين والأنصار والتابعين ، نفس هذه المرجعية كانت تعلم ، أن الرسول (ص) إختار المرجعية السياسية والفكرية بأمر الله سبحانه وتعالى للإمام علي (ع) باعتباره ذلك الشخص الذي يرشحه عمق وجوده في كيان الدعوة . ومن ثم تكون لخلفائه من بعده ، وكانوا يعلمون أن المرجعية السياسية انتزعت إثر اجتماع السقيفة من الإمام علي (ع) بعد وفاة الرسول (ص) مباشرة .

٢ ـ أما المرجعية الفكرية كمرجعية رسمية فقد بقيت شاغرة ومعطلة ، ولم يكن هناك تخطيط واضح لملء هذا الفراغ وذلك في عهد أبي بكر وعمر وعثمان ؛ كان الخلفاء الثلاث « يحسون بضرورة الرجوع إلى الإمام (ع) واعتباره المفزع والمرجع لحل أي مشكلة يستعصي عليهم حلها ، بالرغم من تحفظاتهم في هذا الموضوع » [١] .

وبعد انتهاء عصر الصحابة ، بدأ عصر التابعين وذهب كثير منهم ليبدأ عصر جديد تابعي التابعين .. وفي هذا العصر ، أخذت الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي يواجه مشكلة ملء هذا الفراغ الفكري والسياسي بصورة جدية وملحة ،

---

(١) بحث في الولاية .

وسبب هذا الشعور يعود إلى العوامل الآتية : ـ

أ ـ ابتعاد أبناء عصر (تابعي التابعين) عن مصادر الإسلام من كتاب وسنة ، والمسافة الزمنية التي تفصلهم عن عصر النبي (ص) فقد ابتعدوا عن لغة وظروف ومناسبات الكتاب والسنة النبوية ، ولهذا أصبح الكتاب (القرآن) لا يخلو من غموض بفعل المسافة الزمنية الفاصلة وبعدها .

ب ـ اعتقادهم أن النبي القائد لم يتبنَّ ولم يمارس إعداداً رسالياً وتثقيفياً عقائدياً خاصاً لبعض الأشخاص بحيث يتهيأ ذلك الشخص أو الداعية للمرجعية الفكرية والسياسية . بل إن كل ما فعله الرسول (ص) ـ بنظرهم ـ أن جعل قيادة الدعوة متروكة للأمة والتي تضم مجموع المهاجرين والأنصار ، لتقود الدعوة من بعده

جـ ـ بعد اتساع الحياة الاسلامية ، وضمها لشعوب ودول بطريق الفتح العسكري ، إستجدت أنواع كثيرة من أحداث وظروف وملابسات وتعقيدات لم تكن في الحسبان ، حيث إنفتحت الدولة الاسلامية على مجالات رحبة متنوعة ، لم تكن تعرف لها حلاً لضآلة النصوص التشريعية التي نقلوهـا عن الرسول(ص) وهو الذي أدى بها بعد ذلك إلى الإحتياج إلى مصادر أخرى غير الكتاب والسنة كالإستحسان والقياس وغيرها من ألوان الإجتهاد التي يتمثل فيها العنصر الذاتي للمجتهد الأمر الذي أدى إلى تسرب شخصية الإنسان بذوقه وتصوراته الخاصة إلى التشريع » (١) .

هذه الأسباب الثلاثة هي التي أشعرت المسلمين بضرورة البحث عن مبدأ فكري يماشي ويستوعب هذه الظروف والملابسات الجديدة فيما لا نص فيه من المسائل الكثيرة . وفي ذلك يقول الشهرستاني : « إنا نعلم قطعاً أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد ، ونعلم قطعاً أنه لم

---

(١) نفس المرجع السابق .

يرد في كل حادثة نص ، ولا يتصور ذلك أيضاً ، والنصوص إذا كانت متناهية وما يتناهى لا يضبط ما لا يتناهى علم قطعاً أن الإجتهاد والقياس واجب الإعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة إجتهاد »[1] .

في مثل هذه الظروف ، لم يكن من الممكن أن تقرر هذه المرجعية الفكرية وتسند لأهل البيت (ع) على اعتبار أن المرجعية الفكرية تقود للمرجعية السياسية ، ولو أنهم منحوا المرجعية الفكرية لأهل البيت لأعطوهم أقوى سلاح يمكنهم من الوصول وبسهولة إلى المرجعية السياسية .

لذلك نجد في هذا العصر بدايات نشاط ونمو للمدارس التي اعتمدت الرأي تارة والقياس والإستحسان والمصالح المرسلة والعرف أخرى .

وكانت تيارات معادية بطبيعة نشأتها لخط المرجعية لأهل البيت (ع) وكانت تدل بوضوح على استفحال هذه الظاهرة وتغلغلها في المجتمع الإسلامي . وقد تولى أهل البيت (ع) تفنيد مزاعمها والرد عليها والتأكيد على خصائص مذهبهم الأركز والأقوى وذلك بمناسبة الرد على هذه المدارس .

يقول ابن جميع : (دخلت على جعفر بن محمد أنا وابن أبي ليلى ، وأبو حنيفة ، فقال لابن أبي ليلى : من هذا معك ؟ قال هذا رجل له بصر ونفاذ في أمر الدين ، قال : لعله يقيس أمر الدين برأيه ثم قال الإمام (ع) لأبي حنيفة : يا نعمان حدثني أبي عن جدي أن رسول الله (ص) قال : أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس ، قال الله تعالى : أسجد لآدم . فقال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس) .

ثم قال له جعفر ، كما في رواية ابن شبرمة : (أيهما أعظم قتل النفس أو

---

(١) سلم الوصول ص ٢٩٥ .

الزنا ؟ قال : قتل النفس . قال : فإن الله عز وجل قبل في قتل النفس شاهدين ، ولم يقبل في الزنا إلا أربعة . ثم قال : أيهما أعظم الصلاة أم الصوم ؟ قال : الصلاة ، قال : فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة ؟ فكيف ، ويحك يقوم لك قياسك ، اتق الله ولا تقس الدين برأيك) [١] .

وقد أفادت المعركة التي خاضها أهل البيت (ع) إلى التخفيف من حدة سير مدرسة الرأي ، كما أنها مهدت لظهور مدارس معارضة لها في الإتجاه كمدرسة الحديث والتي تعصبت لحفظ الأحاديث والسنة والآثار وفتاوى الصحابة والتابعين ، وأخذوا يدعون إليها ، في الوقت الذي يشجبون فيه مدرسة الرأي ، وقد قامت كرد فعل لما حصل لهذه المدرسة من تطرف في الأخذ بالرأي والإعراض عن الحديث [٢] .

وقد وقف أهل البيت (ع) ضد مدرسة الرأي بشعارهم المعروف (إن دين الله لا يصاب بالعقول) إذ كانت هذه المدرسة تتجه بالتشريع الإسلامي إلى التمييع وتفقده بالتالي خاصيته وصلابته وأصالته الإسلامية التي هي من خصائص التشريع الإسلامي ، بينما اتجهت مدرسة الحديث إلى تجميد الشريعة والأخذ بظاهر النصوص ، حيث تفقده خاصية المرونة والقابلية لمسايرة الظروف الإجتماعية المختلفة (٣)

* * *

---

(١) الأصول العامة للفقه المقارن ص ٣٢٩ نقلا عن حلية الأولياء ج ٣ ص ١٩٧ .
(٢) الإجتهاد والتقليد من مقدمة محمد مهدي الآصفي ص ١٧ ـ ١٨ .
(٣) نفس المصدر .

الامام جعفر بن محمد الصادق (ع)

لكي نكتشف العوامل المباشرة ، وغير المباشرة التي أملت على الإمام الصادق (ع) سلوكه في التخطيط ، وطريقته في العمل الدعوتي ، علينا أن نحيط ـ ولو بشكل عام ـ بالظروف والملابسات العامة للأمة في عصره ، ولواقع الحكام آنذاك ونتفهم موقع الإمام بصورة خاصة وموقفه الذي يخطط له من خلال هذه الظروف والملابسات التي تحدد لنا إكتشاف أبعاد حركة الإمام (ع) وأعماله وبالتالي نتفهم تاريخه (ع) بوعي ، والحكمة التي كانت تكمن وراء اختياره لهذا الأسلوب أو ذاك دون غيره من الأساليب .

الامة الاسلامية في عصر الامام الصادق (ع)

كانت الأمة تزخر بمظاهر الفساد ، والبعد الفكري والعقائدي عن الحياة الإسلامية التي ينشدها الإمام (ع) في جميع المجالات في الحياة السياسية أو الإجتماعية أو الأخلاقية أو غيرها .

فعلى الصعيد النظري والعملي لم تكن الخطوط العامة للعقيدة واضحة في أذهانهم وسلوكهم ، نتيجة لمحاولات التمييع العباسية الجديدة التي أخذت تقوم بتزوير صورة الفقه والدين عن طريق الوضع في الحديث ، والفتيا بالرأي ، وتمييع التشريع الإسلامي بإدخال عناصر غريبة في مصادره التشريعية كالقياس والإستحسان والمصالح المرسلة وغيرها من الأمور التي أفقدت التشريع خاصيته وأصالته الإسلامية ، ومحاولات الحكام لتشجيع الغلاة والمتصوفة ... مما أدى إلى ظهور حركات غريبة ، ومبادئ فاسدة ، هيأت لها الظروف والأوضاع العامة

أن تستشري زمن الإمام (ع) حتى أصبحت خطراً على وجود وكيان الاسلام التشريعي والعقيدي، بالإضافة إلى ما يعتمد داخل الأمة من صراع سياسي ومذهبي عنيف بحيث لم تترك فرصة لتتعرف الأمة على واقع الإسلام أو تحياه.

فكان لا بد للإمام الصادق (ع) أن يواجه كل هذه التناقضات والتيارات المنحرفة التي تعيشها الأمة في أوضاعها وفي تصوراتها والتي تهدد الإسلام في الصميم.

وكان الإمام (ع) يواجه لونين من الإنحراف، انحرافٌ على الصعيد السياسي متمثلاً بالجهاز الحاكم والدولة، وإنحراف خطير في اتجاهات الأمة وجهلها بواقع الرسالة.

فالسؤال الآن هو كيف خطط إمامنا (ع) وهو يعالج كل هذه الأوضاع والظروف البالغة التعقيد، وهو يعيش رقابة صارمة ومطاردة جادة من قبل الحكام آنذاك ؟! ..

اختيار وتخطيط

بعد أن إستوعب إمامنا (ع) واقع أمته الفكري والعملي والظروف السياسية المحيطة به، مقارناً ذلك بواقع ما يملك هو من قوى وإمكانات المواجهة والتحدي السياسي، رأى أن التفكير بذهنية المواجهة السياسية للحكم ـ في مثل ظروفه وواقعه ـ من الأمور التي لا تقع في حدود ما يملك من استعداد وقدرات « فالإمام (ع) لم يكن يرى أن الظهور بالسيف والإنتصار المسلح الآني، يكفي لإقامة حكم الإسلام فإن إقامة الحكم وترسيخه، لا يتوقف في نظره على مجرد تهيئة حملة عسكرية، بل يتوقف قبل ذلك على إعداد جيش عقائدي يؤمن بالإمام وعصمته إيماناً مطلقاً ويعي أهدافه الكبيرة ويدعم تخطيطه في مجال الحكم ويحرس ما يحققه للأمة من مكاسب » [1].

---

(١) دائرة المعارف دور الأئمة للسيد الصدر.

وللإمام الصادق حوار مع أحد أصحابه يوضح لنا مضمون ما قلناه .. « عن سدير الصيرفي قال :

دخلت على الصادق (ع) فقلت له ، والله ما يسعك القعود ، فقال : ـ ولم يا سدير ؟ قلت لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك فقال : وكم عسى أن يكونوا ؟ قلت : مائة ألف ، قال : ومائة ألف ؟! قلت نعم ومائتي ألف . قال : مائتي ألف ؟! . قلت نعم ونصف الدنيا . قال فسكت عني ... وذهبا معاً إلى ينبع فقال له الإمام وهو ينظر إلى قطيع من الجداء : والله يا سدير لو كان لي شيعة بعدد هذه الجداء ما وسعني القعود » [1] .

ونستنتج من هذا النص « أن الإمام (ع) كان يؤمن بأن تسلم السلطة وحده لا يكفي ولا يمكن من تحقيق عملية التغيير إسلامياً ما لم تكن هذه السلطة مدعمة بقواعد شعبية واعية تعي أهداف تلك السلطة وتؤمن بنظريتها في الحكم وتعمل في سبيل حمايتها وتفسير مواقفها للجماهير وتصمد في وجه الأعاصير » .

وأمام هذا الواقع كان لا بد من تخطيط سريع يتجه نحو هدفين :

أحدهما : العمل من أجل بناء هذه القواعد الشعبية والإشراف عليها وتنظيم أساليب عملها في مواجهتها للإنحراف ، وجعلها « كتلة مترابطة لها أساليبها الخاصة في التنظيم .

فبناء القاعدة الشعبية المتينة ذات الأساليب المنظمة هي التي تكفل للإمام ولحركته أرضية صالحة لتسلم السلطة .

وثانيهما : العمل على تحريك ضمير الأمة الإسلامية وإرادتها والإحتفاظ للضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية بدرجة من الحياة والصلابة تحصن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين وهذا ما سوف نفصل

---

(١) الكافي للكليني ج ٢ ص ٢٤٢ .

الحديث عنه .

« فتخلي الإمام (ع) عن ممارسة العمل المسلح بصورة مباشرة ضد الحكام المنحرفين ، جاء تعبيراً عن اختلاف صيغ العمل السياسي التي تحددها الظروف الموضوعية ، وإدراك عميق لطبيعة العمل التغييري وأسلوب تحقيقه » [١] .

ورأينا في حديث الإمام الصادق قبل قليل مع سدير الصيرفي أن الإمام كان مستعداً دائماً لخوض عمل مسلح إذا وجدت لديه القناعة بوجود الأنصار والقدرة على تحقيق الأهداف الإسلامية من وراء ذلك العمل المسلح غير أن ملابسات وظروف عصره كانت لا تشجعه على التفكير أو الدخول في صراع مكشوف مع السياسة الحاكمة ، فهي قضية غير مضمونة النتائج ، إن لم تكن مؤكدة الفشل ، ومن هنا جاء رفض الإمام لقبوله أي عرض عسكري يستهدف الإطاحة بالحكم ـ كما سنتحدث عنه بالتفصيل ـ .

ولهذا رأى الإمام (ع) أن ينصرف شخصياً وبصورة كلية عن ممارسة التحدي السياسي ، ليمارس العمل داخل الأمة ويبني فيها قواعده الشعبية بناءً واعياً لتكون أداة تنظيمية لنشر أفكاره وبث مبادئه ، وإعداد القوة الفكرية وطليعتها المؤمنة لكي تتابع السير بقناعة وإيمان من أجل إقامة حكم الله في الأرض أو على الأقل لإبقاء الأسس النظرية لمثُله محفوظة لدى الأمة ، ولا يهم الإمام كثيراً أن لا يحصل هو على نتيجة سعيه في هذا المجال ، فقد سبقه آباؤه في العمل على هذا المستوى ، مبشرين الأمة ، أن دولتهم ستظهر يوماً ما ما دامت أسسها النظرية محفوظة لدى الأمة .

والإمام الصادق (ع) واجه في تخطيطه لعملية البناء الإسلامي مشكلتين رئيسيتين ، كان عليه أن يضعهما موضعاً مهماً في حسابه :

---

(١) بحث في الولاية الصدر

١ ـ الواقع الفاسد والوضع الإجتماعي والأخلاقي المائع الذي أخذ بالهبوط والتدني مهدداً بذلك واقع الإسلام وتشريعاته . كما نشطت جميع المبادئ الهدامة على شكل حركات فكرية كحركات الزندقة ، فقد جمع العباسيون الزنادقة حولهم ولم ينبذوهم إلا فيما بعد [١] وقد انطلقت كثيراً من الدعوات الإلحادية باسم المانوية ، المزدكية والخرمية والزرادشتية [٢] .

٢ ـ الرقابة الشديدة التي طوق بها الإمام (ع) وحملات العنف والمطاردة والإضطهاد ، الموجهة ضد أصحابه والمنتمين لحركته ، وقد أفرد أبو الفرج الأصفهاني [٣] كتاباً خاصاً يعرض فيه كل ما جرى عليهم من المحن والتنكيل الذي لا يوصف ، محاولة منهم لشرذمة أصحاب الإمام ومصادرة فعالية الحركة ، وقد أثمرت محاولاتهم هذه إلى ظهور النزعات والمحاور المختلفة بين الشيعة ، ولم يكن للإمام الصادق (ع) أي مجال لتوحيد صفوف الشيعة ومصادرة النزعات المذهبية الحادثة فيما بينهم لتعذر الإتصال بهم وإسراف السلطة في القسوة على الشيعة وسومهم أشد العذاب [٤] .

عناصر نجاح الحركة

وقبل أن نتحدث عن أساليب الإمام (ع) العملية نود أن نتعرف ، على شروط نجاح حركته وهو يعيش ظروف عصره فحركته (ع) اعتمدت في تخطيطها واستراتيجيتها الحقيقتين التاليتين :

أولاً : ـ بناء القواعد الشعبية والتركيز على بنائها الداخلي والإشراف عليها في حدود الإرتباط الخاص بينه وبين شيعته ليجعلها قاعدته الإرتكازية ، يمتد

---

(١) الدولة العربية فلهاوزن ص ٤٨٩ .
(٢) الجذور التاريخية للشعوبية الدوري ص ٤١ .
(٣) المقاتل للأصفهاني .
(٤) عقائد الزيدية نقلاً عن حياة الإمام موسى الكاظم للقرشي .

من خلالها إلى صفوف الأمة والإنتشار في أوساطها ، والتأثير على مجرى الأفكار والأحداث فيها بسبيل تحقيق الهدف الأكبر الذي يعمل من أجله الإمام (ع) [1] .

ثانياً : ـ كسب ثقة الأمة بحركته (ع) « فالدعوة ـ أي دعوة ـ مالم تكن منتمية لمطالب الجماهير معبرة عن آمالها فصيرها الفشل لا محالة ، ومن ناحية أخرى لا جدوى على الإطلاق في دعوة ما مهما كان نبل أهدافها مالم تستند على الجماهير المناصرة لها ... ولذا نجحت الدعوة العباسية لإستغلالها المكيافيلي لشعار ـ الرضا من أهل البيت ـ » [2] .

فبناء القواعد وكسب ثقة الأمة ، هما الشرطان الرئيسان في توفير الحماية لعمل الإمام (ع) والإبتعاد بحركته (ع) عن محاولات واحتمالات الإحتواء ، وتجييرها لصالح الحكم العباسي .

وعلى أساس هاتين الحقيقتين ، بادر الإمام (ع) إلى شكلين من أشكال العمل : ـ

أولهما : أعماله الحركية : ـ ونعني بها علاقات التفاعل بقوى الأمة ـ الخارجية ـ واستمدت مجالها من أمرين :

أ ـ توجيه عواطف الأمة تجاه أطروحة أهل البيت .

ب ـ محاولة تعبئتها بطاقات روحية وفكرية ، لترتفع بوعيها إلى أهداف الإسلام .

ثانيهما : أعماله البنائية : ـ وتشمل قواعد الإمام الشعبية المتغيرة والواعية والمتحملة لمسؤولياتها ، والمرتبطة بالإمام في مجالات الإشراف والعمل المنظم والتنفيذ .

---

(١) مجلة النجف دور الإمام الصادق عدنان البكاء .

(٢) الحركات السرية ص ٦١ .

« وعلى هذا الأساس بالإمكان فهم عدد من النصوص التي وردت عن الإمام (ع) بوصفها تعليم أساليب للجماعة التي يشرف على سلوكها الإمام (ع) وكانت تختلف هذه الأساليب باختلاف الظروف الشيعية والملابسات التي يمرون بها ، تبعاً لصيغ العمل السياسي التي تحددها الظروف الموضوعية » [1] .

ومن هنا لا يمكن الفصل بين أعمال الإمام الحركية عن مجال عمله البنائي داخل قواعده أو الكتلة المرتبطة به .

مع الامام الصادق (ع) في تخطيط

باشر الإمام (ع) عمله التغييري بشكلين من أشكال العمل :

١ ـ أعماله الحركية ، وكان طابعها علنياً .

٢ ـ أعماله البنائية ، وكان طابعها سرياً (التقية) .

فأعماله الحركية : ـ تشمل علاقات التفاعل بقوى وإمكانيات الأمة وقد امتازت نشاطاته الحركية بالعلنية ، لأن فترة الإنتقال التي جاءت مباشرة بعد زوال حكم بني أمية جعلت الإمام (ع) في مأمن من بطش الحكام ، ورقابتهم الشديدة ، وكذلك إقبال المسلمين على الفقهاء والعلماء للتعرف على التشريع الإسلامي في حل مشاكلهم الفردية والإجتماعية ، هذه العوامل وغيرها ساعدت الإمام (ع) في أن يباشر عمله بالأسلوب العلني الظاهر ولكن دون أن يصحب عمله العلني هذا بعمل سياسي مكشوف.. بل إن الإمام (ع) افتتح نشاطه الحركي في صفوف الأمة بجهوده العلمية الجبارة ومدرسته الفكرية الرائدة ، التي تخرج منها أكابر الفقهاء والمفكرين ، مخلفاً بذلك للأمة من بعده ثروة ثقافية من تلامذته العقائديين ، أمثال هشام بن الحكم ومؤمن الطاق ، ومحمد بن مسلم ، وزرارة بن أعين وغيرهم .

(١) الصدر دور الأئمة الايمان .

« حتى أن حركته العلمية اتسعت اتساعاً هائلاً شملت جميع المناطق الإسلامية » [1] .

« ونقل عنه الناس من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان » [2] .

ويقول الجاحظ في الإمام (ع) : « وفجّر الإمام الصادق (ع) ينابيع العلم والحكمة في الأرض ، وفتح للناس أبواباً من العلوم لم يعهدوها من قبل وقد ملأ الدنيا بعلمه » [3] .

وكان يهدف الإمام (ع) من وراء أسلوبه العلني ، وجهره بنشاطه العلمي والفكري ، معالجة جهل الأمة بالرسالة ، عقيدة ونظاماً ، والوقوف أمام موجات الإلحاد وشبهاتهم المضللة وحل المشاكل التي نشأت بفعل تأثير الإنحراف .. واتخذت أعمال الإمام (ع) الحركية في مجالها العلني أسلوبين من أساليب العمل : ـ

أسلوب الهدم :

وتمثل في تصديه ووقوفه الحاسم للشبهات المغرضة في العقائد والنظريات الدينية المفتعلة لأغراض سياسية ، من أجل وأد الروح الإسلامية الصحيحة لدى الجماهير .

وجاء أسلوبه في الهدم بما يلي من الأعمال : ـ

ـ مقابلته للتيارات الغريبة الفاسدة التي أوجدتها الأوضاع السياسية الفاسدة في العهدين الأموي والعباسي ، وما ارتبط بالعهدين من صراعات مذهبية وقبلية

---

(١) تاريخ العرب سيد أمير علي ص ١٧٩ .

(٢) الصواعق المحرقة ابن حجر ص ١٢٠ .

(٣) رسائل الجاحظ للسندوبي ص ١٠٦ .

وقومية ، ونتيجة لظهور الفكر الأجنبي عن طرق ترجمة الكتب الإغريقية والفارسية والهندية ، مما مهد أرضية صالحة لظهور فئات خطرة على الإسلام. من هذه الفئات : الغلاة ، والزنادقة ، والوضاعون ، وأهل الرأي والمتصوفة ، وقد قاوم الإمام الصادق (ع) هؤلاء جميعاً وصارعهم على صعيد العلم ، وكشف خطورة اتجاهاتهم للأمة » [1] .

أسلوب البناء :

وقد تمثل بجهود علمية وفكرية دائبة ، في مجالات نشر الفكر الإسلامي وتعميق مبادئه وأحكامه ، وكانت مباشرته لهذا الجانب تتلخص بالآتي :

ـ نشر مفاهيم العقيدة وأحكام الشريعة ، وبث الوعي العلمي وتجنيد جمهرة كبيرة من العلماء للقيام بتثقيف المسلمين ، وقد افتتح الإمام (ع) معهداً من أكبر المعاهد الإسلامية في عصره واختار يثرب دار الهجرة ومهبط الوحي مركزاً لمعهده ، وجعل من الجامع النبوي محلاً لتدريس محاضراته التي خاض فيها جميع الفنون » [2] .

وكان من جملة تلامذته أئمة المذاهب الإسلامية السنية كمالك بن أنس ، وسفيان الثوري ، وابن عينية ، وأبي حنيفة وكمحمد بن الحسن الشيباني ، ويحي بن سعيد وغيرهم من العلماء والمحدثين والفقهاء أمثال أيوب السجستاني وشعبة بن الحجاج وعبد الملك بن جريج وغيرهم [3] .

وقد بلغ مجموع تلامذة الإمام (ع) أربعة آلاف تلميذ [4] .

ـ فتح باب التخصص العلمي في الفلسفة وعلم الكلام والرياضيات والكيمياء .

---

(١) مجلة النجف دور الإمام الصادق .

(٢) حياة الإمام موسى للقرشي ص ٧٦ .

(٣) و (٤) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة د . أسد حيدر ج ٣ ص ٢٧ ـ ٢٨ و ص ٤٦ .

فقد تخصص المفضل بن عمرو ومؤمن الطاق وهشام بن الحكم وهشام بن سالم في الفلسفة وعلم الكلام ، وتخصص جابر بن حيان بالرياضيات والكيمياء ، وزرارة ومحمد بن مسلم وجميل بن دراج وحمران بن أعين وأبي بصير وعبد الله بن سنان في الفقه وأصول التفسير [٤] .

ـ وضع القواعد لمسائل الأصول ، والفقه ، ليربي في تلامذته ملكة الإجتهاد والإستنباط ، ومن القواعد الأصولية التي وردت عن الإمام (ع) قاعدة البراءة والتخيير ، والإستصحاب . ومن القواعد الفقهية ، قاعدة الفراغ والتجاوز وقاعدة اليد والضمان وغيرها » [١] .

والإمام (ع) استهدف بعمله هذا ثلاثة أمور مهمة : ـ

أ ـ بناؤه لقاعدة متينة للتشريع الإسلامي ، وركيزة قوية للعقيدة الإسلامية ، وضمان استمرار وبقاء الإسلام ، وسط التيارات المختلفة .

ب ـ تصحيحه للمفاهيم الخاطئة والأحاديث المكذوبة .

ج ـ تركيز وتوضيح لمرجعيته القيادية من الناحية العلمية والفقهية وفرض إمامته من هذه الناحية ، بحيث لا يملك كبار العلماء من المذاهب الإسلامية الأخرى إلا أن يعترفوا بذلك كإعتراف أبي حنيفة قائلاً : « ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد ، لما أقدمه المنصور بعث إليَّ فقال : يا أبا حنيفة إن الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد فهيء له من المسائل الشداد ، فهيأت له أربعين مسألة ، ثم بعث إلي أبو جعفر المنصور فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه ، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر ما لم يدخلني لأبي جعفر المنصور فسلمت وأومأ فجلست ثم التفت المنصور فقال : يا أبا حنيفة ألق مسائلك على أبي عبد الله .

---

(١) الإمام الصادق للمظفر ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) فرائد الأصول للأنصاري ، وقواعد الفقه لمحمد تقي الفقيه .

فجعلت ألقي عليه فيجيبني فيقول : أنتم تقولون كذا ، وأهل المدينة يقولون كذا ، ونحن نقول كذا فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا حتى أتيت على الأربعين مسألة ما أخل منها مسألة واحدة ، ثم قال أبو حنيفة : أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس »[1] .

ومن الواضح أن هذا الإعتراف بإمامة الصادق ما كان ليحدث لولا نشاطه العلمي ، وبروزه على صعيد المعارف على المستوى الذي تحدثنا عنه [2] .

والصادق (ع) بكلا أسلوبيه الهدم والبناء ، كان يمهد لمناخ ملائم لتثبيت دعوته الإسلامية الشاملة ، ويمنحها إمكانية القوة لكي تنتقل إلى مراحل عملٍ أخرى ربما اختلفت في أسلوبها وطابعها .

أما أعماله البنائية : فهي تشمل نشاطاته التغييرية ، في حدود إشرافه ورعايته للكتلة المرتبطة به والتنسيق معها للعمل الموحد ، وكان طابع العمل معها (سرياً) ويسمى بالمصطلح الفقهي (بالتقية) .

وأراد الإمام (ع) بالعمل السري أو التقية ضمان وحماية دعوته أمام مقاومة الأعداء إلى حين اكتمال مقومات مرحلته بعد أن يمنحها فاعلية الصمود ومرونة التحرك ، والتقية كما فهمها الإمام (ع) ـ كانت تعني استمرار العمل مع خفائه .

وقد تناولت أعماله البنائية بالدرجة الأولى « جوانب الإشراف المباشر على الشيعة بوصفهم الجماعة المرتبطة بالإمام (ع) والتخطيط لسلوكها وحماية وجودها وتنمية وعيها وإمدادها بكل الأساليب التي تساعدها على الصمود والإرتفاع بها إلى مستوى الحاجة الإسلامية »[3] .

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة د . أسد حيدر ج ٤ ص ٩٢ ـ ٩٣ .
(٢) مجلة النجف البكاء ص ٢٤ .
(٣) دائرة المعارف دور الأئمة للصدر .

وتمثلت أعمال الإمام (ع) البنائية بما يلي من الأساليب التنظيمية :

ـ الإشراف المباشر على شيعتهم بوصفهم الجماعة الموالية له والتخطيط لسلوكهم وتنمية وعيهم ، وحماية وجودهم ، والإرتفاع بهم إلى مستوى الحاجة الإسلامية إلى جيش عقائدي وطليعة واعية وكان يصل الإشراف إلى درجة تنظيم أساليب لحل الخلافات الشخصية بين أفراد الكتلة ورصد الأموال لها كما يحدث بذلك المعلّي بن خنيس :

« وقد كان الإمام (ع) يقيم أحكام الله تعالى داخل هذا الكيان الخاص من شيعته ، فكان يتسلم الضرائب المالية من مواليه ويوزعها على شؤون عمله ، وقد جلبه المنصور عدة مرات بموجب هذه التهمة » [1] .

كما كان الإمام (ع) يأمر أتباعه بعدم اللجوء إلى الحاكم المنحرف ومقاطعتهم إياه ، وتجنب التعامل معه .

يقول الصادق (ع) بهذا الصدد :

« إياكم أن يخاصم بعضكم بعضاً إلى أهل الجور » . أيما مؤمن قدم مؤمناً في خصومة إلى قاضٍ أو سلطان جائر فقضي عليه بغير حكم الله فقد شركه في الإثم » .

ويقول (ع) : « أيما رجل كان بينه وبين أخ له مماراة في حق فدعاه إلى رجل من إخوانكم ليحكم بينه وبينه فأبى إلا أن يرفعه إلى هؤلاء كان بمنزلة الذين قال الله تعالى فيهم : ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به » [2] .

وقد أمر الإمام (ع) أتباعه بمقاطعة الحكومة المنحرفة،فيقول :

---

(١) مجلة النجف البكاء ص ٢٧ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ٤ ابن بابويه .

« لا تعنهم على بناء مسجد » [1] .

وبجانب أوامر المقاطعة السلبية ، كان يوضح لقواعده :

« اتقوا الحكومة فإن الحكومة للإمام العالم بالقضاء العادل بالمسلمين كنبي أو وصي نبي » .

وبهذا يؤكد الإمام (ع) حقه في الحكم ، ويثبت وجهة نظره في الأوضاع وينجح في صيانة أصحابه عن الإندماج في جسم الوضعية القائمة أو التأثر بها ، لقد عبأهم نفسياً ـ بهذه العملية ـ ضد الوضع الراهن في وقته ، فكانت أسلوباً للبناء بالنسبة لهم ، وأسلوباً للهدم بالنسبة للحكم القائم [2] .

وقد وصل إشراف الإمام (ع) في إدارة شؤون قواعده أن نصب لهم القضاة ، وأمرهم بالرجوع إليهم وتقبل ما يأمرون به وما يقضون .

قال (ع) : « انظروا إلى رجل منكم يعلم شيئاً من قضايانا فاجعلوه بينكم قاضياً فإني قد جعلته قاضياً فتحاكموا إليه » [3] .

والإمام (ع) كان يوصي أصحابه وقواعده بالحذر والمحافظة التامة على طابع العمل السري (التقية) في كل عمل ينفذونه حذراً من تربص القوى المناهضة . ويقول لهم (ع) : « كونوا لنا دعاة صامتين » [4] .

وقال يوصي المعلّى بن خنيس : « يا معلّى أكتم أمرنا ولا تذعه » [5] .

وقال لعبد الله بن جندب : « رحم الله قوماً كانوا سراجاً ومناراً ، كانوا

---

(١) المكاسب المحرمة الخميني ج ٢ ص ١٠٢ عن الوسائل أيضاً كتاب التجارة ص ٤٢ .
(٢) مجلة النجف البكاء ص ٢٠ .
(٣) فقه الإمام الصادق محمد جواد مغنية ص ٧١ .
(٤) الصادق والمذاهب الأربعة أسد حيدر ج ٤ ص ٧١ .
(٥) وسائل الشيعة ج ١١ ص ٤٤٥ .

دعاة إلينا بأعمالهم ومجهود طاقتهم ، ليس كمن يذيع أسرارنا » [1] .

وللإمام وصية لمحمد بن النعمان الأحول في تحف العقول ، يؤكد له على العمل بخفاء ، والإلتزام بالتقية ، حتى أن الأمر كاد أن يتم للإمام (ع) لولا إخلال بعض أصحابه بالسرية وإفشائهم عنه ما لا يريد إفشاءه .

ومنها قوله : « المذيع علينا سرنا كالشاهر بسيفه علينا ، رحم الله عبداً سمع بمكنون علمنا فدفنه تحت قدمه ..

يا ابن النعمان : إني لأحدث الرجل منكم بحديث فيتحدث به عني ، فأستحل بذلك لعنه والبراءة منه ، فإن أبي كان يقول : وأي شيء أمرّ للعين من التقية . إن التقية جُنَّة المؤمن ، ولولا التقية ما عُبِدَ الله ..

يا ابن النعمان : إن المذيع ليس كقاتلنا بسيفه بل هو أعظم وزراً بل هو أعظم وزراً ، بل هو أعظم وزراً .

يا ابن النعمان : ... لا تعجلوا فوالله لقد قرب هذا الأمر ثلاث مرات فأذعتموه ، فأخره الله ، والله مالكم سر إلا وعدوكم أعلم به منكم .

يا ابن النعمان : لا يكون العبد مؤمناً حتى يكون فيه ثلاث سنن ، سنة من الله وسنة من رسوله ، وسنة من الإمام ، فأما السنة من الله عز وجل فهو أن يكون كتوماً للأسرار » [2] .

« وقد استمر هذا العمل بالنسبة لأهل البيت (ع) جميعاً ورغم أن الدولة تعلم بوجوده أساساً ، فإنها لا تعلم بحدوده ومدى خطورته ، ومن هنا كان الإمام (ع) ومن قبله آباؤه يتعرضون للملاحقة والمراقبة والإضطهاد ، وقد كاد المنصور مرات عديدة أن يفتك بالإمام (ع) لولا أنه كان يتخلص منه بما أوتي

---

(1) تحف العقول لابن شعبة ص ٢٢١ .

(2) نفس المصدر السابق ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩ .

من حكمة وحسن أسلوب » [1] .

ـ تأييده للحركات الثورية المخلصة « لتحريك ضمير الأمة الإسلامية وإرادتها والإحتفاظ للضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية بدرجة من الحياة والصلابة تحصن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين ، وهذا العمل مارسه ثائرون علويون كانوا يحاولون بتضحياتهم اليائسة أن يحافظوا على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية وكان الأئمة يسندون المخلصين منهم .

وفي رواية أنه ذكر بين يدي الإمام الصادق (ع) من خرج من آل محمد فقال لا أزال أنا وشيعتي بخير ما خرج من آل محمد ولوددت أن الخارجي من آل محمد خرج وعليّ نفقة عياله » [2] .

وقال الإمام علي بن موسى الرضا للمأمون وهو يحدثه عن زيد بن علي الشهيد أنه كان من علماء آل محمد غضب لله فجاهد أعداءه حتى قتل في سبيله ولقد حدثني أبي موسى بن جعفر أنه سمع أباه جعفر بن محمد يقول : « رحم الله عمي زيداً إنه دعا إلى الرضا من آل محمد ولو ظفر لوفى لله في ذلك إنه قال : أدعوكم إلى الرضا من آل محمد » [3] .

وقد كان الإمام الصادق (ع) يحض الناس ويدفعهم للوقوف مع زيد في ثورته ضد الدولة الأموية ، وعندما بلغه مقتل زيد (بلغ ذلك منه كل مبلغ وحزن له حزناً شديداً عظيماً حتى بان عليه وفرق من ماله على عيال من أصيب مع زيد من أصحابه ألف دينار) [4] .

---

(١) مجلة النجف للبكاء ص ٢٣ .

(٢) بحث في الولاية نقلاً عن السرائر لابن إدريس .

(٣) أعيان الشيعة جزء ٣٣ ص ٧٣ .

(٤) أعيان الشيعة ج ٣٣ ص ١١٣ نقلاً عن الإرشاد للمفيد .

وحين خسرت حركة بني الحسن (ع) تألم الإمام لذلك وبكى وحمل الناس مسؤولية التقصير إزاءهم .

ويقول ابن عمر الكندي : « دخلت على أبي عبد الله (ع) فقال : هل لكم علم بآل الحسن ؟ وكان قد اتصل بنا خبرهم فلم نحب أن نبدأه به ، فقلنا نرجو أن يعافيهم الله ، فقال : وأين هم من العافية ؟ ثم بكى حتى علا صوته وبكينا »[1] .

« فهذا الثناء من الإمام (ع) على القائمين بأمر هذه الحركات وهذا الألم والبكاء عليهم لا يمكن أن يلتئم مع وجهة نظر الإمامية إلا على أساس كونها واجهات ظاهرة لعملهم ترتبط بهم بشكل أو بآخر أو هي كما قيل في شأن زيد لا تعمل إلا من أجل انتزاع الأمر للرضا من آل محمد ولو كانت تدعو لنفسها في عرض الإمامة لما جاز الثناء عليهم أو البكاء لهم ، ولما اختلف حسابهم عن الآخرين من بني أمية أو بني العباس من مغتصبي الحكم »[2] .

الامام (ع) ورفض العروض العسكرية

ـ ناقشنا ـ سابقاً ـ حقيقة مهمة ، وهو أن تحقيق انتصار حاسم للإمام (ع) على واقعه ، مرهون بنجاح عمله التغييري في مجال بناء كتلة مرتبطة بقيادته المعصومة مؤمنة به وبنظريته في الحكم ، واستبعدنا في الوقت نفسه حقيقة تقول : إن فكرة الإستيلاء السياسي المسلح ، قضية غير مضمونة النتائج إن لم تكن مؤكدة الفشل ولهذا أبى الإمام (ع) أن يدخل طرفاً في مثل هذا الصراع .

وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكن تفسير رفض الإمام (ع) لتلك العروض العسكرية والمساومات السياسية لاحتواء حركته ، واستغلالاً ميكيافيلياً من قبل الغير ، أو على الأقل حرفها عما رسمه الإمام (ع) من مرحلة عمل تنسجم وظروف

---

(١) البحار ج ٤٧ ص ٣٠٢ .

(٢) مجلة النجف البكاء ص ٢١ .

الأمة الموضوعية والتي ترتبط ارتباطاً مصيرياً بواقع عمله التغييري .

فمناهج الأئمة (ع) في ممارسة التغيير لم تكن في أي وقت مناهج مغامرات تتخذ العفوية والإرتجال أساساً في تقرير العمل التغييري الشامل بل كانت خططهم كلها ومناهج التغيير عندهم قائمة على أسس علمية وموضوعية واضحة .

فإمكانيات الإمام (ع) والأوضاع الفكرية والسياسية العامة جعلته يرفض جميع العروض العسكرية المسلحة والمساومات السياسية التي كانت تهدف احتواء عمله من الداخل وإجهاض حركته متى شاءوا خصوصاً وهي في مبتدإ سيرها .

والعباسيون لم تكن تنجح حركتهم بقلب نظام الحكم الأموي إلا بعد أن رفعوا شعار الرضا من آل البيت واستغلوه استغلالاً مكيافيلياً لإمتصاص العواطف العلوية وقواعدها الشعبية باعتبار « أن آل البيت كانوا يمثلون أقوى الأحزاب المعارضة للسياسة الأموية من ناحية ، فضلاً عن تبنيهم قضية العدالة الإسلامية من ناحية أخرى » [1] .

« ولم يعترفوا قط بحكومة الأمويين المغتصبين للحكم ، وكان إخلاصهم لآل البيت وتعلقهم بهم داعياً لأن يكسبوا العطف العام » [2] .

« وكما حاول الدعاة العباسيون جلب كل المقاومة الشيعية العلوية إلى صفوفهم وأظهروا غايتهم الأولى وهي قلب الحكم الأموي وأخفوا سعيهم لأخذ الخلافة ، وتجنبوا كل ما يظهر أنهم قاموا لأخذ محل العلويين بل إنهم أعلنوا بأنهم جاءوا لأخذ ثأر من استشهد منهم » [3] .

« وبادئ ذي بدء تجدر الإشارة إلى أن البيت العباسي لم يضع أصول الدعوة

---

(١) الحركات السرية ص ٦٧ .
(٢) محاضرات في التاريخ الإسلامي ج ٣ ص ٢٢ .
(٣) نفس المصدر السابق .

ولم يبذر بذورها وإنما الظروف وحدها هي التي ساقت إليه قيادة نظام سري محكم له أجهزته ودعاته وأتباعه ، فجنوا ثماراً زرعها بنو عمهم العلويون وركبوا موجة المد الثوري كما يقال وقلبوا ظهر المجن للرواد الذين امتحنوا أشد المِحَن من أجل إرساء هذا النظام السري المحكم » [١] .

فقد أدرك العباسيون حقيقة العواطف العلوية وحاولوا احتواءها عندما طرحوا « شعاراً ذكياً يكفيهم مشقة الخلاف (ويميع القضية) فدعوا للرضا من آل محمد ، وهو شعار مبهم يثبت لهم حقاً في الإمامة ويجنبهم خطورة ما يمكن أن يثار من مشكلات لو أنهم جعلوا الدعوة مقصورة على بيتهم فقط .. فقد عقدوا العزم على ذلك ، لكنهم لم يفصحوا عما في أنفسهم ولم يكن بوسعهم أن يفعلوا ذلك ، ولو فعلوا لتألب عليهم البيت العلوي ودعاته المخلصون فضلاً عن الجماهير التي افتتنت بفضائل بني علي وفاطمة » [٢] .

وقد كتب أبو مسلم الخراساني كتاباً للصادق (ع) جاء فيه :

« إني أظهرت الكلمة ودعوت الناس عن موالاة بني أمية إلى موالاة أهل البيت ، فإن رغبت فلا مزيد عليك .. » [٣] .

فانظر ماذا أجابه الإمام (ع) عندما كتب إليه رداً على كتابه هذا مخاطباً الخراساني : « ما أنت من رجالي ولا الزمان زماني » [٤] .

وبهذا الرد يكشف لنا الإمام (ع) أن الدافع في رفض هذا العرض كان علمه بعدم واقعيته وصدقه من جهة (ما أنت من رجالي) ومعرفته بعدم وجود القوة الكافية التي تسنده في طلب الحكم (ولا الزمان زماني) .

---

(١) الحركات السرية ص ٦٦ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) الملك والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٤١ .
(٤) نفس المصدر .

وبعد أن باءت محاولات العباسيين مع الإمام (ع) بالفشل ، فكروا في أن يبعثوا بنفس مضامين الرسالة إلى جهات علوية أخرى من أجل مساومتهم على الحكم وكسب عواطف الجماهير من خلال مراكزهم ـ العلوية ـ « فراسلوا عمر الأشرف بن زين العابدين ولكنه رفض دعوتهم ، ومن ثم كتبوا إلى عبد الله بن الحسن ، وقد قبل كتابهم ، فحذره جعفر الصادق فلم يحذر » .

« ويذكر اليعقوبي في تاريخه (إن عبد الله بن الحسن قال : أنا شيخ كبير وابني محمد ـ ذو النفس الزكية ـ أولى بهذا الأمر ، وأرسل إليه جماعة من بني العباس وقال : بايعوا لابني محمد » [1] .

ويذكر الجهشياري « أن الصادق نصح عبد الله بن الحسن ألا يقبل دعوة بني العباس قائلاً :

« يا أبا محمد ومتى كان أهل خراسان شيعة لك ؟ أنت أرسلت أبا مسلم إلى خراسان ؟ وأنت أمرته بلبس السواد ؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وجهت فيهم ؟ وهل تعرف منهم أحداً ؟! » [2] .

بل إن الإمام تنبأ على ضوء تقديره لمجريات الأمور وإحاطته بملابسات الأوضاع بانتهاء الخلافة إلى العباسيين ، فحين جاءه عبد الله بن الحسن قال له : « إن الدولة ستتم لهؤلاء القوم ولا تتم لأحد من آل أبي طالب » [3] .

وكانت محاولة ثانية من قبل ـ أبي سلمة الخلال ـ وهو أحد نقباء الدولة العباسية والعضو الفعال في قيادة الثورة العباسية ، عندما بعث إليه رسولاً يحمل معه كتاباً يذكر فيه للإمام (ع) استعداده للدعوة وتخليه عن بني العباس فكان

---

(١) محاضرات في التاريخ الإسلامي ص ٦٧ الأعظمي .
(٢) نفس المصدر نقلا عن المسعودي والجهشياري .
(٣) الإمام الصادق علم وعقيدة رمضان لاوند ٨٩ .

جواب الإمام (ع) : ــ ما أنا وأبو سلمة ، وأبو سلمة شيعة لغيري .

قال رسول أبي سلمة : إني رسول فتقرأ كتابه وتجيبه . فدعا أبو عبد الله بسراج ، ثم أخذ كتاب أبي سلمة فوضعه على السراج حتى احترق ، وقال للرسول عرّف صاحبك بما رأيت » (١) .

ومن هنا نعرف خطأ من يزعم بأن رفض الإمام للحكم مع مواتاة الظروف له يعني تخليه عن الجانب السياسي من قيادته ، بل إن كل ما في الأمر أن موقفه الرافض جاء تعبيراً عن صيغة من صيغ العمل السياسي التي حددتها له الظروف الموضوعية .

« ولذلك رأى الإمام (ع) أن يظهر الإنصراف شخصياً بصورة كاملة عن مسألة الحكم ليمارس العمل داخل الأمة ، ويعدها على المدى لإنشاء هذا الحكم ، بعد أن تؤدي دورها التغييري في الأمة والتأثير على مجرى أفكارها والأحداث المهمة فيها ، وتصحيح الإنحرافات المختلفة التي أفرزها الواقع السياسي والإجتماعي .

* * *

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٢٥٤ .

الامام موسى بن جعفر (ع)

استمر الإمام موسى بن جعفر (ع) يعمل على نفس محاور العمل والتخطيط الذي اعتمده الإمام الصادق (ع) في مواجهته للمجتمع .

المحور الأول : الإستمرار المتصاعد في التخطيط الفكري والتوعية العقائدية ، ومعالجة الإتجاهات العقائدية المنحرفة ، والنزعات الشعوبية والعنصرية والنحل الدينية .

وكانت من أخطر تلك الدعوات المحمومة هي الدعوة إلى الأفكار الإلحادية والتي أخذت تنشط وتبث سمومها في نفوس الناشئة الإسلامية وكان موقف الإمام موسى (ع) من هذه الدعوى موقف المتصدي والناقد لها بالأدلة العلمية الرصينة وتبيان تهافتها وبعدها عن منطق الواقع ، حتى اعترف قسم كبير من حملة تلك المبادئ بخطئهم وفساد اتجاههم وقد لمعت بسبب ذلك حركة الإمام (ع) وذاعت مقدرتها العلمية ، حتى دان بها قسم كبير من المسلمين وقد ثقل ذلك الأمر على المسؤولين فتصدوا لهم بالإضطهاد والتنكيل ومنعوهم من الكلام في مجالات العقيدة مما اضطر الإمام موسى (ع) أن يبعث إلى هشام (وهو أحد أصحابه) أن يكف عن الكلام نظراً لخطورة الموقف فكف هشام عن ذلك حتى مات المهدي [1] .

---

(١) رجال الكشي ص ١٧٢ .

ولقد التف بالإمام أثناء إقامته في يثرب جمع غفير من كبار العلماء ورواة الحديث ممن تتلمذوا في جامعة أبيه الكبرى ، وقد زود الفقه الإسلامي بطاقاتٍ كبيرة من آرائه الحصيفة ، وتنسب له مجموعة كثيرة من الأحكام الإسلامية ، وقد دونت في موسوعات الحديث والفقه ، وكان العلماء والرواة لا يفارقونه ولا يفترقون عنه يسجلون أحاديثه وأبحاثه وفتاواه ، فقد روى السيد ابن طاووس أن أصحاب الإمام وخواصه كانوا يحضرون مجلسه ومعهم في أكمامهم ألواح آبنوس وأميال فإذا نطق بكلمة أو أفتى في نازلة بادروا إلى تسجيل ذلك [1] وقد روى عنه هؤلاء العلماء جميع أنواع العلوم على اختلافها وتباعد أطرافها ، وقد عمت جهوده العلمية جميع المراكز الإسلامية ، وأصبح عطاؤه العلمي يتناقله العلماء جيلاً بعد جيل .

المحور الثاني : الإشراف المباشر على قواعده الشعبية ومواليه والتنسيق معها في اتخاذ المواقف السلبية تجاه الحكم لإضعافه سياسياً ومقاطعته وحرمة الإتصال به ، وعدم الترافع إلى مجالس قضائه تمهيداً لإسقاطه وإزالة وجوده سياسياً .

ومما شجع الإمام على هذا الموقف الصارم ذلك التحول الواضح من التوسع والإنتشار لقواعده الشعبية ، والتي أخذت تتعاطف مع حركة الإمام (ع) ونشاطاته السلبية من الحكم العباسي المنحرف ودعوته في تحريم التعاون مع الحكم في أي مجال من مجالاتها ، وقد ظهر هذا الموقف في حواره مع أحد أصحابه (صفوان) فقد قال له الإمام (ع) : ـ

« يا صفوان ، كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً .

ـ جعلت فداك أي شيء ؟.

ـ كراؤك جمالك من هذا الطاغية ـ يعني هارون ـ .

---

(١) الأنوار البهية ص ٩١ .

ـ والله ما أكريته أشراً ، ولا بطـراً ، ولا للصيد ولا للهو ولكن أكريته لهذا الطريق ـ يعْني طريق مكة ـ ولا أتولاه بنفسي ، ولكن أبعث معه غلماني .

ـ فقال له الإمام : يا صفوان ، أيقع كراك عليهم ؟

ـ نعم جعلت فداك .

ـ أتحب بقاءهم حتى يخرج كراك ؟

ـ نعم .

ـ فقال (ع) : من أحب بقاءهم فهو منهم ، ومن كان منهم كان وارداً للنار .

واستمر الإمام (ع) يعرب عن نقمته وسخطه الشديدين على حكومة هارون ، ودعوته إلى حرمة التعاون معهم بأي لون كان ، وقد منع (ع) الركون إليهم مستشهداً بقوله : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » وقد حرّم على المسلمين الميل إليْهم وضرورة مقاطعتهم حتى لو كان ذلك مستنداً إلى بعض المصالح الشخصية وحذر أصحابه من الدخول في سلك حكومة هارون أو القبول لأي وظيفة من وظائف الدولة . فقال (ع) لزياد بن أبي سلمة :

« يا زياد ، لأن أسقط من شاهق فأتقطع قطعة قطعة أحب إلي من أن أتول لهم عملاً أو أطأ بساط رجل منهم » [1] .

وقد استثنى الإمام (ع) علي بن يقطين أحد أصحابه الكبار أن يتولى منصب الوزارة أيام هارون ومن قبلها منصب الأزمة أيام المهدي [2] وقد تقدم إلى الإمام موسى (ع) يطلب منه الإذن في ترك منصبه والإستقالة منه فنهاه (ع) عن ذلك وقال له : « لا تفعل فإن لنا بك أنساً ، ولإخوانك بك عزاً ، وعسى الله أن يجبر بك كسيراً أو يكسر بك ثائرة المخالفين عن أوليائه .

(١) المكاسب للشيخ الأنصاري باب الولاية من قبل الجائر .

(٢) الجهشياري .

يا علي كفارة أعمالكم الإحسان إلى إخوانكم ، اضمن لي واحدة أضمن لك ثلاثاً . اضمن لي أن لا تلقى أحداً من أوليائنا إلا قضيت حاجته وأكرمته وأضمن لك أن لا يظلمك سقف سجن أبداً ، ولا ينالك حد السيف أبداً ولا يدخل الفقر بيتك أبداً ، يا علي من سر مؤمناً فبالله بدأ ، وبالنبي ثنى وبنا ثلث »[1] .

المحور الثالث : الموقف العلني والصريح في احتجاجه على الحاكم بأنه أحق بالخلافة من غيره وأولى بها من جميع المسلمين .

وقد جرى احتجاجه (ع) مع هارون الرشيد وهو في مرقد النبي (ص) أمام حشد غفير من الأشراف وقادة الجيش وكبار الموظفين في الدولة ، فقد أقبل هارون بوجهه على الضريح المقدس وسلم بقوله :

« السلام عليك يا ابن العم » معتزاً ومفتخراً على غيره بصلته من النبي (ص) وأنه إنما نال الخلافة لقربه من الرسول (ص) وكان الإمام ـ آنذاك ـ حاضراً فسلم على النبي (ص) قائلاً :

« السلام عليك يا أبتِ » .

ففقد الرشيد صوابه واستولت عليه موجات من الإستياء ، حيث قد سبقه الإمام إلى ذلك المجد والفخر ، فقال له بنبرات تقطر غضباً وحقداً : « لم قلت إنك أقرب إلى رسول الله (ص) منا ؟

فأجابه (ع) برد مفحم قائلاً : « لو بعث رسول الله (ص) حياً وخطب منك كريمتك هل كنت تجيبه إلى ذلك ؟

فقال هارون : سبحان الله !! وكنت أفتخر بذلك على العرب والعجم .

فانبرى الإمام (ع) قائلاً : لكنه لا يخطب مني ولا أزوجه لأنه والدنا لا والدكم

---

(١) المكاسب للأنصاري .

فلذلك نحن أقرب إليه منكم »[1].

واضطر هارون بعدما أعياه الدليل إلى منطق العجز ، فأمر باعتقال الإمام (ع) وزجه في السجن [2].

وقد كان موقف الإمام موسى (ع) من هارون صريحاً وواضحاً فقد دخل عليه في بعض قصوره المشيدة الجميلة التي لم يُرَ مثلها في بغداد ولا في غيرها ، فانبرى إليه هارون وقد أسكرته نشوة الحكم قائلاً :

ـ ما هذه الدار ؟

فأجابه الإمام غير مكترث بسلطانه وجبروته قائلاً له :

« هذه دار الفاسقين ، قال الله تعالى : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في ألارض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يـروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً » .

ومشت الرعدة في جسم هارون واستولت عليه موجة من الإستياء فقال للإمام : دار من هي ؟

ـ هي لشيعتنا فترة ولغيرهم فتنة .

ـ ما بال صاحب الدار لا يأخذها .

ـ أخذت منه عامرة ولا يأخذها إلا معمورة .

ـ أين شيعتك ؟

ـ فتلا الإمام (ع) قوله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة » .

فثار هارون غاضباً « أنحن كفار » ؟.

---

(١) أخبار الدول ص ١١٣ .

(٢) تذكرة الخواص ص ٣٥٩ .

ـ لا ولكن كما قال تعالى : « الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار » .

وهكذا فقد كان يرى الإمام أن هارون غاصب لمنصب الخلافة ومختلس للسلطة والحكم ، مما أثار غضب هارون عليه وأغلظ في كلامه على الإمام (ع) [1] بعد أن سمعه يتحداه بموقف لا لين فيه .

وفي موقف آخر ، حينما سأله هارون عن فدك وحدودها لكي يرجعها إليه ، فأبى عليه السلام أن يأخذها إلا بحدودها ، فقال الرشيد : ـ ما حدودها ؟

فقال (ع) إن حددتها لم تَرُدَّها .

فأصر هارون عليه أن يبينها له ، ولم يجد الإمام (ع) بدأ من إجابته فقال له : « أما الحد الأول فعدن » فلما سمع الرشيد ذلك تغير وجهه ، واستمر الإمام (ع) في بيانه قائلاً : « والحد الثاني سمرقند » فاربد وجه هارون ، واستولت عليه موجة من الغضب الهائل ، ولكن الإمام (ع) استمر قائلاً « والحد الثالث إفريقيا » فاسود وجه هارون وقال بنبرات تقطر غيظاً « هيه » وانطلق الإمام يبين الحد الأخير قائلاً : « والحد الرابع فسيف البحر مما يلي الجزر وأرمينية .

فثار الرشيد ، ولم يملك أعصابه قائلاً :

ـ لم يبق لنا شيء .

ـ قد علمت أنك لا تردها [1] .

المحور الرابع : تحريك الضمير الثوري للأمة عن طريق تشجيعهم ومباركتهم للثورات والإنتفاضات التي مارسها علويون ثائرون حفاظاً على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية من الإنهيار أمام الحكام المنحرفين ، وكان الأئمة (ع) يسندون المخلصين منهم .

---

(١) المناقب جزء ٢ ص ٣٨١ .

وعندما عزم الحسين بن علي بن الحسن ـ صاحب واقعة فخ الشهيرة ـ أن يثور على الأوضاع الفاسدة التي وصلت إلى حد الإذلال والإضطهاد الشديد لكل من هو شيعي وعلوي يوالي الإمام (ع) ، أقبل إلى الإمام موسى (ع) يستشيره في ثورته وعرض عليه فكرة الثورة ، فالتفت إليه الإمام (ع) قائلاً :

« إنك مقتول فأحد الضراب ، فإن القوم فساق يظهرون إيماناً ، ويضمرون نفاقاً وشركاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون وعند الله أحتسبكم من عصبة » .

ولما سمع الإمام موسى (ع) بمقتل الحسين (رض) بكاه وأبّنه بهذه الكلمات :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، مضى والله مسلماً صالحاً صواماً قواماً ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، ما كان في أهل بيته مثله » [1] .

ولما استأصل موسى الهادي شأفة العلويين أخذ يتوعد الأحياء منهم بالقتل والدمار ، وقد ذكر الإمام موسى فقال :

« والله ما خرج حسين إلا عن أمره ، ولا اتبع إلا محبته لأنه صاحب الوصية في أهل هذا البيت » [2] .

فأسرع إلى الإمام أصحابه مسرعين فزعين ، يشيرون عليه أن يختفي ليسلم من شر هذا الطاغية ، فتبسم (ع) وتمثل بقول الشاعر كعب بن مالك :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... وليغلبن مغالب الغلاب

عمل الإمام (ع) ومجالاته

كان عمل الإمام (ع) يجري في مجالين أحدهما سري وثانيهما علني .

---

(١) المقاتل ص ٤٥٣ .

(٢) بحار الأنوار جزء ١١ ص ٢٧٨ .

العمل السري : مقاومة الإمام (ع) للأوضاع سلكت طريقتين أولاهما : الطريقة السلبية ـ التي تحدثنا عنها ـ وقد تمثلت في أمره لقواعده ومواليه والمرتبطين به بمقاطعة الحكم ، وتجنب أي معاملة معهم على أي مستوى من المستويات (كما في حديثه مع صفوان المار الذكر) .

« وهذه المعارضة بالرغم من أنها اتخذت مظهر السلبية والمقاطعة في أكثر الأحايين بدلاً من مظهر الإصطدام الإيجابي والمقابلة المسلحة غير أن المعارضة حتى بصيغتها السلبية كانت عملاً إيجابياً عظيماً في حماية الإسلام والحفاظ على مثله وقيمه لأن انحراف الزعامات القائمة كان يعكس الوجه المشوه للرسالة فكان لا بد للقادة من أهل البيت أن يعكسوا الوجه النقي المشرق لها وأن يؤكدوا عملياً باستمرار المفارقات بين الرسالة والحكم الواقع ، وهكذا خرج الإسلام على مستوى النظرية سليماً من الإنحراف وإن تشوهت معالم التطبيق [١] » .

وكانت بعض التنظيمات الشيعية تعتمد على نظام الخلايا ، وكانت هناك سجلات خاصة سرية بأسماء الشيعة عند بعض أصحاب الأئمة [٢] وقد جهدت السلطات الحاكمة آنذاك للعثور عليها فلم تتمكن .

وعلى أي حال فإن تلك الخلايا هي التي عملت على نشر التشيع في جميع الأقاليم الإسلامية بعيداً عن أعين السلطة ورقابتها حتى أصبح قوة كبيرة وصار من العسير إرغام معتنقيه وإخضاعهم إلى رغبات السلطة ، مما سوف تضطر السلطات ـ فيما بعد كما سنرى في عهد الإمام الرضا (ع) ـ كيف أن المأمون لجأ إلى الإمام الرضا وأولاه ولاية العهد [٣] .

وبهذا الأسلوب من العمل السري يؤكد الإمام (ع) حقه في الحكم ويعمل

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مقال دور الأئمة للصدر ص ٩٦ .

(٢) رجال النجاشي .

(٣) حياة الإمام موسى باقر شريف القرشي ج ٢ ص ١٨٨ .

على صيانة أصحابه وقواعده من الإندماج في الوضع الفاسد والإشراف عليهم والتخطيط لسلوكهم وتنمية وعيهم وإمدادهم بكل أساليب الصمود والإرتفاع بهم إلى مستوى الطليعة الواعية المتفهمة لدورها ورسالتها .

وتتمثل الطريقة السرية في عمله بجانبين :

أ ــ تأييده للحركات الثورية ، وإسناده للمخلصين منهم والتي قادها ثوار من أهل بيته أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، كما رأينا في موقفه (ع) من وقعة ــ فخ ــ التي قادها الحسين بن علي بن الحسن الذي يرجع نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) .

فهذه الثورات كانت ترتبط بشكل من أشكال الإرتباط بإذن الإمام (ع) وموافقته ، فهي واجهات ظاهرة لعملهم ترتبط بهم ، وتعمل من أجل انتزاع الأمر للرضا من آل محمد .

ب ــ ممارسة الإمام للقيادة والإشراف المباشر على شؤون شيعته وتوجيههم توجيهاً عقائدياً وفكرياً وسلوكياً خاصاً ليصنع منهم قاعدة صلبة لحركته تمتد داخل الأمة لتحقيق أهداف الإمام وتصحيح الإنحرافات التي تقع داخل الأمة .

ومن هنا كان الإمام (ع) ومن قبله آباؤه يتعرضون للملاحقة والمراقبة والإضطهاد .

ونظراً للمحن الشاقة والخطوب العسيرة التي واجهتها الشيعة في تلك الظروف السود ، فقد كانوا لا يجدون سبيلاً للتعبير عن آلامهم وبث شكواهم حتى التجأ البعض منهم إلى أن يكتب على الجدران ، ليطلع على ذلك الجمهور من الناس [1] ويعرّفوا مدى ما لحقهم من الضيم والإضطهاد .

وكانت بعض الشعارات المكتوبة تصور جانباً من احتجاج العلويين في

---

(١) حياة الإمام موسى القرشي ص ١٩٠ .

أحقيتهم للخلافة ورعاية شؤون المسلمين ، فهم أولى الناس بالنبي (ص) وأنهم خلفاؤه على أمته [1] .

العمل العلني : وقد أتاح العمل العلني للإمام (ع) أن يباشر علاج جهل الأمة بالإسلام عقيدة وأحكاماً ، ورد الشبهات الإلحادية التي أخذت تبثها الحركات التي تولدت نتيجة لإنفتاح العالم الإسلامي آنذاك على التيارات الأجنبية والغربية [2] وهي من المشاكل الكبرى التي كانت تواجه الإمام (ع) وتباعد بينه وبين هدفه ولهذا بادر إلى مقاومة هذه العقائد وإبطال نظرياتها المخالفة للإسلام .

وفي مجال آخر كان الإمام يعقد المناظرات والإحتجاجات العلنية مع أئمة المذاهب الإسلامية وقادتها للتدليل على فكرة الإمامة وأطروحتها وكانت تلك المناظرات تعقد في الأماكن العامة ، وكان يقوم بتلك المناظرات كل من هشام بن الحكم وهشام بن سالم ، ومؤمن الطاق مما أدى إلى انتشار الفكر الشيعي وذيوع أفكاره بين المسلمين بفضل تلك الحجج القوية والبراهين الحاسمة ، التي كانت تقوم على المنطق والبحث الموضوعي المجرد ، وقد نعتهم (كرادي فوا) بأنهم أصحاب الفكر الحر [3] .

ولا شك أن عمله (ع) في هذين المجالين الآنفين كان يقربه من الهدف بما يفرضه من إمامته العلمية وبما يهيئه من سلطان لمبادئه وقوة لأفكاره وبما يشيعه في أوساط الأمة من مناخ ملائم لدعوته .

الوشاية بالامام (ع)

كانت بعض أخبار نشاط الإمام (ع) تتسرب عن طريق الواشين إلى هارون الرشيد ، فيثير هذا حقده وغضبه ، وقد أخبر مرة بأن الإمام موسى بن

---

(١) راجع الشعارات بالتفصيل في مقاتل الطالبيين ٤١١ ـ ٤١٢ .

(٢) راجع هذه التيارات الالحادية في كتاب حياة الإمام موسى للقرشي ص ١٢٦ وما بعدها .

(٣) الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٢٧ .

جعفر (ع) تجبى له الأموال الطائلة من شتى أقطار العالم الإسلامي" وتحمل إليه من المشرق والمغرب وأن له بيوت أموال [1] وقد أمر هارون بإلقاء القبض على الإمام وإيداعه السجن [2].

وقد سعى يحيى البرمكي إلى هارون فأوغر صدره على الإمام عندما أخبره بأن الإمام (ع) يعمل على طلب الخلافة إلى نفسه وأنه كتب إلى قواعده في سائر الأقطار الإسلامية يدعوهم إلى نفسه ويحفزهم إلى الثورة ضد حكومته.

وعمل هارون من جانبه على سجن الإمام (ع) وعزله عن شيعته وقضى الإمام (ع) زمناً طويلاً (ربما ستة عشر سنة) في السجون حتى لقي ربه فيها وقد عانى أمر الآلام وأدهى العذاب. وقد سئم الإمام من السجن وضاق صدره من طول المدة، وكان ينقل من حبس إلى حبس تراقبه الشرطة والعيون خوفاً من إتصال أحدٍ من شيعته به.

وقد مكث الإمام (ع) زمناً طويلاً في سجن هارون وقد هدّ السجن صحته وأذاب جسمه حتى أصبح حين يسجد لربه كالثوب المطروح على الأرض فيدخل عليه رسول الزعامة المنحرفة فيقول إن الخليفة يعتذر إليك ويأمر بإطلاق سراحك على أن تزوره وتعتذر إليه، أو تطلب رضاه، فيشمخ الإمام (ع) وهو يجيب بالنفي بكل صراحة ويتحمل مرارة الكأس إلى الثمالة لا لشيء إلا لكي لا يحقق للزعامة المنحرفة هدفها في أن يبارك الإمام (ع) خطها فتنعكس معالم التشويه [3].

وأرسل الإمام (ع) وهو في السجن رسالة إلى هارون يعرب فيها عن سخطه البالغ عليه، وهذا نصها: «انه لن ينقضي عني يوم من البلاء حتى ينقضي عنك

---

(١) عيون أخبار الرضا.

(٢) الفصول المهمة ص ٢٥٢.

(٣) دائرة المعارف دور الأئمة للصدر ص ٩٦.

يوم من الرخاء حتى نفنى جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء ، وهناك يخسر المبطلون »[1]

ولقد عانى الإمام (ع) من سجنه ألوان العذاب والتنكيل ، فتكبيل بالقيود ، وتضييق شديد ، وأذى مرهق ، وبعدما صب عليه الرشيد جميع النكبات الموجعة دس إليه سماً فاتكاً ، فقضى عليه ومضى لربه شهيداً سعيداً وكانت وفاته سنة ١٧٣ هـ لخمس بقين من شهر رجب[2] .

المرحلة الثالثة

ذكرنا بأن المرحلة السابقة .. اتجهت فيها جهود الأئمة (ع) للتخطيط ولبناء الكتلة الشيعية المرتبطة ، لتربية سلوكها وحماية وجودها وتنمية وعيها ورصف قواعدها الشعبية وتوسيعها وإعطائها إطارها ومعالمها الفكرية والإجتماعية في العالم الإسلامي .

وقد انتهت هذه المرحلة باستشهاد الإمام موسى بن جعفر ـ شهيد السجون ـ لكي تبدأ مرحلة عمل جديد ، يبدأها الإمام علي الرضا (ع) ، حيث أصبحت الكتلة الشيعية وقواعدها الشعبية بمستوى يقربها من تسلم زمام الحكم وممارسة العمل السياسي وكذلك سوف نجد في هذه المرحلة أن القواعد الشعبية واتساعها أخذت تشكل خطراً سياسياً يهدد الحكام آنذاك .

وقد اتسمت هذه المرحلة بإزدياد التلاحم بين الإمام كقائد وقواعده التي شهدت ألواناً من التنكيل والقتل والتشريد وكذلك الخطط الماكرة التي خرج بها الحكام آنذاك لعزل الإمام (ع) وإحراجه أمام قواعده الشعبية وفض الناس عنه بكل طريقة ممكنة ...

---

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٨٣ وتاريخ بغداد .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٧٣ وتاريخ بغداد .

الامام علي بن موسى الرضا (ع)

تمهيد :

حياة الإمام الرضا (ع) تمثل حلقة من حلقات المرحلة الثالثة في حياة أئمة أهل البيت ، وهي مرحلة التوسع في القواعد الشعبية والتي بلغت في عصره أوج عظمتها واتساعها نتيجة لجهود أئمة المرحلة الثانية ، حيث ارتفع رصيد ـ مدرسة الإمام علي (ع) ـ في العالم الإسلامي وتحددت فيها ملامح الكتلة الشيعية المجاهدة وأطروحتها المتمثلة بالإسلام الصحيح .

وجاءت كل هذه المكاسب نتيجة لجهدين متوازيين عاشها التخطيط عند أئمة المرحلة الثانية وذلك من خلال الصيغ والأشكال العملية المتعددة وهي : ـ

١ ـ جهد التخطيط الفكري والتوعية العقائدية التي مارسها الأئمة (ع) ممارسة مباشرة ، وهذه الممارسة في التوعية والتثقيف قد أعطت الكتلة الشيعية معالمها وخصائصها الفكرية ونتاجها الروحي ومفاهيمها لكل جوانب الإسلام .

٢ ـ وهناك جهد آخر كان يسير موازياً مع هذا الجهد ونعني به الجهد الذي استمد ثوريته وانطلاقته من دم الحسين (ع) واستشهاده الفاجع ، والذي تكفل بتسلم زمام الثورة والمقابلة السياسية للأوضاع الحاكمة المنحرفة .

إلا أن أئمة المرحلة الثانية لم يكن بمقدورهم مواصلة العمل المسلح أو خوض معركة تحريك الضمير الثوري عند الأمة الإسلامية انطلاقاً من دم جدهم الإمام الحسين (ع) ، بل تركت ممارستها وتفجيرها لثائرين علويين والذين حاولوا

بتضحياتهم أن يحافظوا على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية بدرجة من الحياة والصلابة تحض الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين . ومن هنا كان من الضروري إعطاء هذه الصلاحيات إلى سائر المسلمين مع التزام أهل البيت (ع) مسؤولية التوجيه والمراقبة وإسناد المخلصين منهم .

هذا اللون من التوجيه والمساندة ، نراه بشكل واضح في كثير من نصوص التاريخ متجسداً بمواقف أهل البيت (ع) في مرحلتها الثانية ـ وقد تطرقنا إلى بعضها تفصيلاً في حياة الصادق (ع) فنحيل القارئ إليه ـ وتتضح المساندة والتوجيه في كتاب للإمام الصادق (ع) ذلك الكتاب الباكي المفجوع الذي أرسله إلى ابن عمه ـ عبد الله بن الحسن النقب ـ وصاحب ذو النفس الزكية وإلى أهله وذويه .

تقول الرواية : ـ إن الإمام (ع) لما نظر إلى ـ عبد الله بن الحسن وإبراهيم بن الحسن وبقية أهلهم مقيدين وهو في مسجد رسول الله (ص) هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته ثم أقبل عليَّ فقال : « يا أبا عبد الله ، والله لا تحفظ لله حرمة بعد هذا والله ما وفت الأنصار لرسول الله (ص) ، أعطوه من البيعة على العقبة على أن يمنعوه وذريته مما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم » (١) .

وكذلك موقفه (ع) من عمه زيد (رض) عندما قال : « رحم الله عمي زيداً لو ظفر لوفّى إنما دعا إلى الرضا من آل محمد وأنا الرضا » (٢) .

هذه النصوص تدل بكل وضوح أن الإمام (ع) كان يعيش آلام هؤلاء الثوار ويبارك عملهم وجهدهم .

وكذلك فعل قبله الإمام السجاد (ع) حينما ذهب إليه محمد بن الحنفية

---

(١) الإمام الصادق علم وعقيدة رمضان لاوند ٩٠ نقلاً عن مقاتل الطالبيين

(٢) أعيان الشيعة ج ٣٣ ص ٧٣ .

مع رسول المختار ليستشيره في طلب المختار في الثورة وما كان من الإمام (ع) إلا أن أصدر وقتئذٍ بياناً عاماً لم يكن يخص المختار الثقفي فقط بل إن بيانه وثناءه جاء لكل مسلم يمارس عمله ضد الطواغيت الحاكمين والوقوف ضد سلطانهم الجائر .

وتدلنا هذه النصوص ، على وجود خطين ممتدين في المرحلة الثانية ـ كما بيّنا ـ وهما خط التوعية والتثقيف الرسالي والآخر خط مواصلة تحريك الضمير الثوري للأمة الإسلامية باعطاء الكتلة الشيعية طابعها الجهادي . وباستمرار هذين الخطين المتوازيين في المرحلة الثانية أمكن لمدرسة الإمام علي (ع) وأطروحته أن تتخذ رصيداً ضخماً وواسعاً يغطي كل أرجاء العالم الإسلامي .

ولا أدل على هذا من النواحي الكثيرة ، الفكرية منها والروحية والإجتماعية التي كانت تخرج على الأمة الإسلامية في بداية المرحلة الثالثة في عصر الإمام علي الرضا (ع) .

وقد عاصرت الإمام الرضا (ع) عدة ثورات وانتفاضات قام بها تلامذة من مدرسة الإمام علي (ع) وحملة أطروحته وقد ملأوا العالم الإسلامي من الكوفة والبصرة والمدينة ومكة حتى اليمن ، رفعوا فيها شعارات مدرسة الإمام وحكموا مناطقها باسم الإمام (ع) وذلك بالرغم من أن بغداد كانت تحت تبعية الخلافة العباسية إلا أنها طوقت بهذه الحركات الثورية وهددت حكمهم .

الامام الرضا (ع) والثورات العلوية

ومن أهم الثورات وأخطرها التي واجهت العباسيين هي ثورة ـ محمد بن إبراهيم الحسين ـ المعروف ـ بابن طباطبا العلوي .

وكان القيم بأمره أبو السرايا السري بن منصور .

وقد خرج ابن طباطبا من المدينة قاصداً الكوفة ليشعل فيها فتيل ثورته ضد العباسيين ، وقد التفت حوله جماهير الكوفة بعد أن وجدته يدعو ـ إلى الرضا

من آل محمد ـ [1] ويعلن البيعة لهم ، وعلى أن يكون الحكم بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الإمام علي (ع) .

وقد اعتمد ـ ابن طباطبا ـ في إعلان ثورته على رصيد القواعد الشعبية الموالية ، لمدرسة الإمام علي (ع) هذا الرصيد الذي استكشفناه من خلال ردود الفعل القوية لثورة أبي السرايا في العالم الإسلامي .

فكان أول رد فعل لثورة ـ ابن طباطبا ـ أن انهزمت أمام جيشه الثائر كل الجيوش التي أرسلها العباسيون لإخماد ثورته !!.

هذه الكوفة نفسها التي خانت الحسين (ع) وتركت زيد بن علي (رض) وحده يقاتل مع عصبة من أصحابه ، وقفت مع ابن طباطبا موقفاً بطولياً تدافع عن ثورته وأهدافه ببسالة فائقة .

فهذه الإستجابة الثورية العظيمة ، دليل على نمو القاعدة الشعبية وتنامي وعيها للإسلام .

وبعد أن قضى على ثورة ـ ابن طباطبا ـ استقل عماله العلويون بالحكم في المناطق التي كانوا يتولونها .

وفي اليمن وثب إبراهيم بن موسى بن جعفر واستولى على السلطة بعد إخراج عامل المأمون منها .

وفي مكة وثب الحسين بن الحسن الأفطس .

وفي البصرة وثب زيد بن موسى بن جعفر ، والمسمى بزيد النار لكثرة ما أحرق بالبصرة من دور العباسيين وأتباعهم وكان إذا أتى رجل من المسودة أحرقه ، وأخذ أموالاً كثيرة من أموال التجار سوى أموال العباسيين ، فسار إليه

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢٠٨ .

علي بن سعيد فاستأمنه زيد فأمنه وأخذه [1] وأرسله إلى الحسن بن سهل فأمر بضرب عنقه .

شعبية الامام (ع) وتعاطف الجماهير معه

وهناك شواهد كثيرة أخرى على نمو القاعدة الشعبية وتعاطفها مع قضية الإمام (ع) .

فالفضل بن سهل يرسل رسولاً إلى الكوفة يطلب منه أن يأخذ البيعة ـ بولاية العهد ـ للإمام الرضا (ع) ولكن جماهير الكوفة امتنعت للطلب وقالت بأنها لا تبايع الإمام بولاية العهد ، إنما تبايعه بالخلافة وإلا فإنها لا تبايعه على ولاية العهد [2] .

وكثيراً ما كان يلجأ المأمون إلى الإمام الرضا (ع) لحل كثير من المشاكل التي كانت تعصف بدولته ، وقد استدعى المأمون الرضا (ع) ليبلغه ؛ بأن شيعته في كل مكان ناقمون على حكمه ، وطلب منه أن يكتب إليهم لكي يسكتوا عنه [3] .

ومرة أخرى يظهر رصيد الرضا (ع) الشعبي ، وذلك إثر حادثة اغتيال الفضل بن سهل ، حيث راجت شائعات عقب اغتياله ، بأنها تدبير ومؤامرات حيكت على يد المأمون [4] ، وقد خرجت الجماهير متظاهرة مستنكرة ، واتجهت صوب قصر المأمون لتصب في وجهه جام غضبها وانتقامها ، فاضطر المأمون للخروج من باب قصره الخلفي ليدخل بيت الإمام (ع) المجاور لقصره ، مستنجداً بالإمام (ع) ويرجوه تهدئة غضب الجماهير فيخرج الإمام (ع) على

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٥ ـ ١٧٧ وعيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٤١ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) الطبري ج ٨ ص ٥٦٥ وعيون أخبار الرضا ج ٦ ص ١٥٩ .

الجمهور ويفرقه بأمر واحد فيطيعه .

وهذا يعني أن الإمام (ع) كان يملك رصيداً شعبياً وإجتماعياً ضخماً في نفس البلد الذي يحكمه المأمون بالقوة .

الامام (ع) يقود نشاطاً علنياً .

كل هذه الشواهد التأريخية تثبت لنا أن القاعدة الشعبية لمدرسة الإمام علي (ع) من الناحية العلمية والإجتماعية ، قد بلغت درجة كبيرة من الإتساع والنمو ـ خلال هذه المرحلة من العمل ـ والتي تسلم زمام مسؤوليتها القيادية الإمام الرضا (ع) .

وعلى ضوء هذا التحول واتساع النفوذ والتعاطف الجماهيري الكبير قاد الإمام الرضا نشاطاً غير اعتيادي ، انطلاقاً من متغيرات عصره ، حتى أن بعض الجماعات الشيعية حاولت اتهامه (ع) بمخالفة ـ التقية ـ وأوفدوا له جماعة يحذرونه من هارون الرشيد قال صفوان بن يحيى « لما مضى أبو الحسن موسى (ع) وتكلم الرضا (ع) خفنا عليه من ذلك وقلنا له إنك أظهرت أمراً عظيماً ، وإنا نخاف عليك من هذا الطاغي . فقال : ـ يجهد جهده فلا سبيل له عليّ »[1] .

وعن محمد بن سنان قال : « قلت لأبي الحسن الرضا (ع) في أيام هارون إنك قد شهرت نفسك بهذا الأمر وجلست مجلس أبيك ، وسيف هارون يقطر دماً »[2] .

وجاءه اخرون يذكرونه بقولهم « لو سكت ، كما سكت أبوك وجدك واخرون يحاولون إقناعه بضرورة التقيد بالتقية وإنه قد خالفها والتقية دين جده الصادق (ع) ، إلى غير ذلك من التحذيرات التي تشير إلى أن الإمام (ع)

---

(١) الكافي ج ١ ص ٨٧ وذكره في العيون والمناقب والإرشاد .

(٢) روضة الكافي ص ٢٥٧ .

كان يقوم بدور فعال ونشط قد استفز هؤلاء الجماعات لأنهم لم يدركوا بعد طبيعة التحول والمتغييرات وطبيعة اتساع القواعد الشعبية ونموها وازدياد نفودها في نفوس المسلمين ، وتجاوبهم السريع مع نشاطات الإمام ومبادراته العلنية .

وهناك روايات تأريخية كثيرة تلقي ضوءاً على حقيقة ما قلناه ، فعندما تسلم الرضا مسؤولية القيادة والإمامة بعد أبيه ، قام بجولة واسعة في العالم الإسلامي ، وقد ابتدأ جولته من المدينة إلى البصرة لكي يجتمع مباشرة مع قواعده الشعبية ويحدثها في كل شيء ، وكان من عادته قبل أن يصل تلك المنطقة أن يرسل إليها رسولاً يخبرهم بمقدمه إليهم خلال الأيام القلائل الاتية .. ثم يأتي إليها الإمام (ع) والجمهور متهيء لإستقباله والإجتماع به ، فيعقد معهم اجتماعاً واسعاً يلقي عليهم الحجة بإمامته وقيادته ويطلب منهم بعد ذلك أن يسألوه ، لكي يجيب على أسئلتهم في مختلف جوانب المعرفة الإسلامية ، ويطلب بعد ذلك الإجتماع بالعلماء من مجادلين وكلاميين وعلماء غير إسلاميين ، ليناقشهم في كل شيء . وبعد الانتهاء يخبر أهل الكوفة بأنه سوف يكون عندهم خلال ثلاثة أيام ، وهناك أيضاً يتصل بقواعده ، ومن ثم تدور مناقشات وأسئلة متنوعة مع مجادلين ومتكلمين ويهود ونصارى ممن كانوا وقتئذٍ يشكلون بداية خط فكري في العالم الإسلامي ومن هنا جاء إهتمام الإمام (ع) بهم فأولى حركتهم وأفكارها العناية لأن حركتهم – من ترجمة وجدل كلامي – بدأت تستقطب العالم الإسلامي إليها . وقد شهد رحلاته هذه ألواناً من الحوار المفتوح مع كل التيارات والأوساط العلمية ويقول محمد بن عيسى اليقطيني : « جمعت من مسائله مما سئل عنه وأجاب فيه ثمانية عشر ألف مسألة» ويقول إبراهيم بن العباس الصوري : «ما رأيت الرضا (ع) سئل عن شيء إلا علمه » [1] .

كل هذا النشاط الظاهر الملحوظ ، لم يكن يباشره أو يباركه آباء الرضا

---

(١) راجع للتفصيل حديث سلسلة الذهب في الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي .

(ع) ، فآباؤه لم يسافروا بأنفسهم لكي يتصلوا بقواعدهم الشعبية بصورة مباشرة وبشكل واضح .

أما بالنسبة للإمام الرضا (ع) فهو أمرٌ طبيعي وذلك لما وصلت إليه مرحلته من إتساع في القواعد وإزدياد لنفوذ مدرسة الإمام علي (ع) روحياً وفكرياً وإجتماعياً في نفوس المسلمين الذين بدأوا يتجاوبون بوعي مع هذا النشاط .

ولكن الذي حدث هو أن زمرة من أصحابه لم يربطوا بين هذا التحول المظهري في تصرف الإمام السائر في خط آبائه وبين الظروف الطبيعية الجديدة للمرحلة ، ومن هنا جاءت اعتراضاتهم عليه .

الامام (ع) والمطالبة بالحكم

بعد أن تسلم الرضا (ع) مسؤولية الإمامة بعد أبيه جسَّد خصائص هذه المرحلة من حيث اتساع القواعد الشعبية ونموها المطرد . ولكن نمو هذه القواعد وتعاطفها مع قضية الإمام (ع) لم تكن تعني تسلم زمام الحكم ، وبالرغم من كل هذا النمو المتزايد في القواعد الشعبية كان الإمام (ع) يعلم وكذلك كل من خبر الظروف الموضوعية لمجتمعه ، أن حركة الإمام (ع) ليست على مستوى تسلم زمام الحكم ، لأن الحكم الذي يريده الإمام (ع) غير الحكم الذي يمتلك مثل هذه القواعد الشعبية ـ ونعني بشكل أوضح أن هذه القواعد الشعبية الموجودة في العالم الإسلامي ، كانت تهيىء الرضا (ع) لأن يتسلم زمام الحكم على مستوى ما يتطلبه أي طالب للحكم ، أي أنه (ع) بإمكانه أن يتسلم زمام الحكم على النحو الذي يتسلمه المنصور أو المأمون .

هذا اللون من الحكم كان بإمكان الإمام (ع) الوصول إليه ، حيث القواعد الضخمة ، التي تسنده وتواليه ، لكن مثل هذه القواعد لم تكن تصلح قاعدة لحكم الإمام (ع) لأن ارتباطها بالإمام (ع) كان ارتباطاً فكرياً غامضاً وعاماً ، متسماً بالحماس العاطفي .

هذه العاطفة الحرارية كانت في يومها هي القاعدة التي استند إليها بنو العباس وركبوا موجها للوصول إلى الحكم .

ولكن طبيعة هذه القواعد وأمثالها لا يمكن أن تمهد لحكم الرضا (ع) واستلامه لزمام السلطة السياسيين ، ولهذا رأينا أن أغلب الثورات التي عاشها المسلمون والمخلصون لأطروحة الإمامةعلي (ع) كانت في كثير من الأحيان ، تتخبط في تناقضات داخلية حتى من قبل قواعدها الشعبية والتي كثيراً ما تصدعت وانشقت على نفسها ، وذلك بسبب بسيط هو أن القاعدة ليست واعية لأطروحتها وظروفها الموضوعية ، بل كانت تأتي ثوراتهم عاطفية حارة ، ولم تكن واعية متفتحة ، والعاطفة بطبيعتها لا تنتج بناء حقيقياً للإسلام ، وإنما البناء الحقيقي يقوم على أساس الوعي الكامل للأهداف .

فالإمام الرضا (ع) كان يتهيأ في هذه المرحلة لتسلم زمام الحكم، بالشكل الدي كان يطرحه ويريده هو لا بالشكل الذي أراده المأمون ، حينما عرض عليه ـ ولاية العهد ـ فامتنع عنها ورفضها . ويروي في الإرشاد أن المأمون خاطب الرضا في حديث ولاية العهد فقال له :

إني رأيت أن أوليك العهد ـ أي الخلافة ـ .

فقال له : اعفني من ذلك يا أمير المؤمنين ، إنه لا طاقة لي بذلك ، ولا قوة لي عليه .

قال له : فإني موليك العهد من بعدي .

فقال له : اعفني من دلك يا أمير المؤمنين .

فقال له المأمون كلاماً فيه كالتهديد له على الإمتناع عليه وقال في كلامه : إن عمر بن الخطاب جعل الشورى في ستة ، أحدهم جدك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وشرط فيمن خالف عنهم أن يُضْرَبَ عنقه ، ولا بد من قبولك ما

أريده منك فإني لا أجد محيصاً عنه » [1] .

فأجابه الإمام إلى ما التمس .

ويروى أيضاً أنه جرى بينهما حديث آخر عرض فيه المأمون على الإمام (ع) الخلافة فامتنع ، ثم عرض ولاية العهد فامتنع أيضاً فقال له :

إنك تتلقاني أبداً بما أكرهه ، وقد أمنت سطوتي فبالله أقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلا أجبرتك على ذلك ، فإن فعلت وإلا ضربت عنقك » [2] .

دوافع المأمون تجـاه الامام

ويمكن تفسير دوافع المأمون وموقفه من الإمام الرضا (ع) بعوامل نفسية وإيمانية عند المأمون ، فالمأمون انفرد بنفسه بإيمانه بخط الإمام علي (ع) وعطفه على العلويين ورده فدكاً إليهم ومحاولته جعل شتم معاوية سنة جارية ، وفرضها على العامة فقد أعلن يقول : أن برئت الذمة ممن يذكر معاوية بخير ، وإن أفضل الخلق بعد النبي (ص) علي بن أبي طالب [3] ..

وتشيع المأمون ناشئ من عوامل متعددة تأثرت بها نفسه ابتداء من طفولته عندما كان يشرف على تأديبه مؤدب شيعي وانتهاءاً باستقراره في جهات خراسان التي يغلب عليها طابع التشيع لأهل البيت (ع) .

وقال المأمون لأصحابه يوماً : أتدرون من علمني التشيع قالوا : لا ، قال علمنيه الرشيد ، قالوا كيف ؟ وكان الرشيد ، قال : لما دخل الإمام موسى بن جعفر على الرشيد في المدينة رأيت تواضع الرشيد له ، وتعظيمه إياه بما ألفت نظري قال : « فلما خلا المجلس قلت : يا أمير المؤمنين من هذا الرجل الذي

---

(1) الإرشاد ٢٩٠ وفي مقاتل الطالبيين للأصفهاني ٣٧٥ .

(2) المقاتل ٣٧٥ .

(3) علل الشرائع ج ١ ص ٢٦٦ .

عظمته وأجللته وقمت من مجلسك إليه ، فاستقبلته وأقعدته في صدر المجلس وجلست دونه ، وأمرتنا بأخذ الركاب له ؟

قال : هذا إمام النّاس ، وحجة الله على خلقه ، وخليفته في عباده . فقلت : يا أمير المؤمنين أليست هذه الصفات كلها لك وفيك ؟ فقال : أنا إمام الجماعة في الظاهر بالغلبة والقهر ، وموسى بن جعفر إمام حق . والله يا بني إنه لأحق بمقام رسول الله (ص) مني ومن الخلق جميعاً ، والله لو نازعتني هذا الأمر ، لأخذت الذي فيه عيناك ! فإن الملك عقيم » [1] .

ولكن هذا الدافع التشيعي لخط الإمام علي (ع) ليس هو الذي دفع المأمون لإتخاذ هذا الموقف بل هناك عوامل ودوافع أكبر وأوسع في نفس المأمون تمثلت بمصالحه السياسية وأغراضه الوقتية ويمكن التعبير عنها بأربع نقاط هي :

١ ـ أراد المأمون أن يلبس خلافته ـ الثوب الشرعي ، ويضفي على حكمه عناصر الهدوء والإستقرار ، لأن القواعد الشعبية المؤمنة بالخلافة العباسية كانت تنظر بنظرات من الشك والريب إلى خلافة المأمون ، بعد أن قتل خليفتها الشرعي (الأمين) وفعل بأخيه الأفاعيل وجيء برأسه إليه .

هذه النقطة أثارت نوعاً من الهواجس والشكوك ـ عند القواعد الشعبية المؤمنة بخلافة بني العباس ـ في أصل مشروعية خلافته مما زعزع الثقة بمركزه وقوته ، بحيث لا يمكن أن تكون خلافته أمراً متسالماً عليه عند الجميع ، وفعلاً فقد المأمون كل رصيده عند العباسيين .

أما القواعد الشعبية الأخرى التي كانت تدور في فلك الإمام علي (ع) فكانت لا تؤمن أصلاً بخط العباسيين في الخلافة ، فهي لا تنظر إلى خلافة أي منهم بعين المشروعية . حتى أن المأمون اقتنع بأن خلافته التي اغتصبها وسيطر

---

(١) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ٨٨ .

عليها بالقوة بحاجة إلى ثوب شرعي يسنده وهو في الحكم .

ولهذا بادر المأمون إلى استدعاء الإمام الرضا (ع) الذي كانت له ـ الخلافة الشرعية ـ وذلك على مستوى إيمان كثير من الجماهير في العالم الإسلامي بأن الرضا هو المرشح الطبيعي والمتمتع بحق الخلافة الشرعي ، ويجب الإشارة إلى أن هذا المستوى من الايمان بإمامة الرضا وأحقيته الشرعية للخلافة ، لم تكن على مستوى واحد من الوضوح فبعضها كانت تؤمن بإمامته على أساس النص والتعيين وأخرى على أساس أن الرضا هو أحد أولاد الإمام علي (ع) أو أنه أفضل المسلمين .

فكانت خطة المأمون ، في البحث عن الشرعية وكسب الجماهير إليها ، أن يبعث على الرضا (ع) لينتزع الخلافة ويعطيها للإمام (ع) لكي يردها الإمام الرضا على المأمون بعد ذلك ، فيكون هذا الرد من قبل الإمام (ع) كسباً للثوب الشرعي الذي تمناه المأمون لخلافته والتخلص من شبح عقدة عدم الشرعية .

ولكن الإمام أدرك خطة المأمون ومناورته في امتطائه لجماهيريته عليه السلام واستغلاله الماكر لقواعد الإمام الشعبية وقوة مركزها السياسي .

وكانت خطة المأمون ذات أهداف ثلاثة :

أ ـ أن يجعل من الإمام ورقة مساومة بينه وبين العباسيين في بغداد من جهة .

ب ـ وبينه وبين العلويين من جهة أخرى .

جـ ـ وبينه وبين الشيعة في خراسان من جهة ثالثة .

وحينما قام المأمون بمناورته المكشوفة هذه قال له الرضا (ع) :

« هل إن الخلافة هي ثوب ألبسك الله إياه ، فإن كان ثوباً ألبسك الله إياه فلا يكون بإمكانك أن تنتزعه منك وتمنحه إياي ، وإن لم يكن شيئاً أعطاك الله

إياه فكيف تعطيني ما لا تملك » [1] .

وبهذا الحوار والمعالنة أكد الإمام (ع) بأنه لا يريد أن يعلن عن شرعية خلافة المأمون ، وإن رفضه لقبول الخلافة ليس معناه إرجاع الخلافة إليه .. ولهذا سجلت هذه المحادثة أثراً كبيراً في زمن خلافة المأمون ، وفي المستقبل لنزع ثوب الشرعية عن خلافته .

٢ ــ إن المأمون كان يعيش مشاكل القواعد الشعبية الموالية للرضا (ع) ولمدرسة الإمام علي (ع) وانتفاضاتها الثورية وقد امتلكت من القوة ما جعلها خطراً حقيقياً على عرش المأمون ، وكانت منتشرة في كل أرجاء العالم الإسلامي .

مثلاً لذلك انتفاضات الشيعة في خراسان سنة ١٩٨ وهي نفس السنة التي استقل المأمون فيها بالخلافة ، وكذلك ثورة ابن طباطبا في الكوفة سنة ١٩٩ هـ ــ والتي مر ذكرها ــ وقد قام الحسين بن هرش في خراسان وقام ابن طباطبا في الكوفة ، وكان كل منهما يدعو للرضا من آل محمد وثورة زيد بن موسى بن جعفر وغيرها من الثورات والإنتفاضات .

كل هذه الأوضاع الثورية وكل هذه الإرهاصات كانت ترتبط بشكل أو بآخر بزعامة الإمام الرضا (ع) وكان شبح هذه الإرهاصات شبحاً مرعباً مفزعاً للمأمون ، يقض مضجعه ، وحاول جاهداً إخمادها وكسب رضاها ، ومواكبتها للوضع الحاكم ، عن طريق ضم قائدها الفكري وأمثولتها العليا إلى نظامه وجهازه الحاكم .

وأراد المأمون من خلال إناطة ولاية العهد بالإمام الرضا أن يحقق عدة أغراض في آن واحد :

أ ــ تطويق الإمام الرضا (ع) ورصد تحركاته وعزله عن قواعده الشعبية

---

(١) راجع عيون أخبار الرضا .

وكل هذا يتم إذا استقر الإمام في (مرو) .

ب ـ زرع الريب والشكوك في طريق زعامة أهل البيت ، فما معنى القبول بأنصاف الحلول ، وما معنى القبول بولاية العهد .. وهذا أمرٌ لا ينسجم مع الشعارات التي طرحتها مدرسة أهل البيت .

جـ ـ تهدئة الخواطر وتأمين ولاء العرش له ، لأنهم سيشحنون هذا الإنعطاف نحو الرضا (ع) وبالتالي سيأمن غوائلهم وانتفاضاتهم .

د ـ احتواء الحركات الثورية ومحاولة كسب عواطفها العلوية .

كل هذه الأغراض كان يمكن أن تتم فيما لو نجح المأمون بمشروعه وأراد المأمون أن يغطي على كل الفجوات والثغرات في هذا المشروع وتقمص ثوب الراغب الحقيقي بتسليم الحكم إلى الرضا (ع) من بعده وقام بما يلي من الأعمال :

ـ خلع أخاه المؤتمن من ولاية العهد .

ـ زوج الإمام (ع) من ابنته ـ أم حبيبة ـ .

ـ بدل شعار العباسيين وهو السواد بالخضرة وهي شعار العلويين .

ـ أمر ولد العباس وأركان دولته وقواد جيشه مبايعة الإمام ولياً للعهد .

ـ ضرب النقود باسم الإمام الرضا (ع) .

ولكن الإمام أثبت أنه لا يمكن أن تنطلي عليه أحابيل هذا المشروع ، وأهم الإجراءات المضادة التي اتخذها الإمام تتلخص بالآتي :

أ ـ أعلن منذ اليوم الأول رفضه لهذه الفكرة وعرف المأمون بنواياه الحقيقية وقال له : « تريد أن يقول الناس أن علي بن موسى لن يزهد في الدنيا بل الدنيا زهدت به ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الدنيا وطمعاً في الخلافة » [1] .

---

(١) علل الشرائع الصدوق ج ١ ص ٢٢٦ .

ومن هنا جاء رفض الإمام (ع) وإعلانه الصريح بأنه لم ينضم إلى جهاز حكم المأمون .

وكان الإمام (ع) يدرك هذا الغرض ، وحين أجبره المأمون على قبول ـ ولاية العهد ـ لم يبق دلك الإجبار طي الكتمان ، فأعلن (ع) أنه لم يقبل ولاية العهد مختاراً وإنما قبلها بعد إكراه وتهديد .

عن الهروي أنه قال : « والله ما دخل الرضا في هذا الأمر طائعاً ، وقد حمل إلى الكوفة مكرها ، ثم أشخص منها على طريق البصرة إلى مرو »[(1)] .

ويروي عن المأمون عندما عرض على الإمام الخلافة فامتنع ثم عرض عليه ولاية العهد فامتنع أيضاً فقال له :

« إنك تتلقاني أبداً بما أكرهه ، وقد أمنت سطوتي فبالله أقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلا أجبرتك على ذلك فإن فعلت وإلا ضربت عنقك »[(2)] .

وذكر نحوه أبو الفرج « فعرضا دلك عليه ، فلم يزالا به ، وهو يأبى ذلك ويمتنع منه ، إلى أن قال له أحدهما إن فعلت وإلا فعلنا بك وصنعنا ، وتهدده » !

ثم قال له أحدهما : « والله أمرني بضرب عنقك إذا خالفت ما يريد »[(3)] .

إلا أن الإمام (ع) كان يظهر عدم ارتياحه وكراهته لولاية العهد منذ خروجه من المدينة وحتى تاريخ إسناد ولاية العهد له ، وذلك من خلال بعض التصريحات التي توحي بما كان يعتمل في أعماقه من المرارة والألم ، ومن خلال بعض الحالات الإنفعالية المعبرة عن الجهد النفسي الذي كان يعاني منه . « ... وكان الرضا إذا رجع يوم الجمعة من الجامع ، وقد أصابه العرق والغبار ، رفع يديه وقال : اللهم

---

(1) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٤١ .

(2) علل الشرائع ج ١ ص ٢٦٦ .

(3) مقاتل الطالبيين ص ٣٧٥ والإرشاد ص ٢٩١ .

إن كان فرجي مما أنا فيه بالموت فعجل لي الساعة ولم يزل مغموماً مكروباً حتى قبض (ع) » [1] .

وبإمكان الناس أن يستنتجوا من هذا الألم والإنكماش ما يستنتجون !

ب ـ اشترط الإمام (ع) على المأمون بوثيقته التأريخية التي كتبها (ع) « على أن لا يمارس أي نوع من أنواع السلطة في حل وعقد وفي عزل وتعيين » .

ولكن المأمون في بعض الفترات كان يتناسى شرطه مع الإمام ويحاول زجه في خضم بعض المسؤوليات ، ولكن الإمام يمتنع مذكراً إياه بلزوم الوفاء بشرطه .

يقول الإمام للمأمون عندما أقنعه بالقبول : « وأنا أقبل ذلك على أن لا أوليٍّ أحداً ولا أعزل أحداً ولا أنقض رسماً ولا سنة ، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً ، فرضي منه بذلك » [2] .

ومرة أخرى يحاول المأمون اقحام الإمام في مسؤوليات الحكم عندما طلب منه المأمون في أن ينظر فيمن يثق بهم لتوليتهم بعض البلدان التي فسدت على حكم المأمون ، فأجابه الإمام (ع) بقوله : « تفي لي وأفي لك ، إنما دخلت فيما دخلت على أن لا آمر ولا أنهى ولا أعزل ولا أولي ولا أسير حتى يقدمني الله قبلك .. فقال له المأمون : أفي لك » [3] .

فموقف الإمام السلبي كان بمثابة إيحاء أو دعوة صريحة للأمة بالإنفتاح على رسالتها والتفافها حول الإمام وإدانة لواقع الحكم الفاسد الذي لا بد من تغييره .

---

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٤١ .
(٢) علل الشرائع ج ١ ص ٢٢٦ .
(٣) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٦٧ .

وهذا يعني أنه غير راض عن الوضع الحاكم كله ، ولذا فإنه لا يمارس فيه أي نوع من أعمال السلطة السياسية بل إن الوضع يحتاج إلى تغيير وبناء من جديد .

فالإمام إذن يعلن منذ اللحظة الأولى براءته من حكم المأمون ومن كل تبعاته ، وإنه لا يمكن له أن يعمل في وسط يحتاج إلى تغيير وتبديل من الجذور .

وعندما باءت كل محاولات المأمون بالفشل أرسل الفضل بن سهل ومعه مئات الالاف من الدنانير إلى الكوفة وهي المدينة التي تتواجد فيها أضخم قواعد الإمام الشعبية ليأخذ البيعة منها للمأمون ، لأن المأمون لم يكن بعد قد بويع بيعة رسمية في كل العالم الإسلامي فجاءت محاولته في هذه المرة مع المال لكي يأخذ البيعة للمأمون ، وولاية العهد للرضا (ع) لكي يكسب القواعد الشعبية لخلافته .. ولكن قواعد الإمام (ع) أبت هذه الحيلة الرخيصة ، وقالت انها لا تبايع الإمام بولاية العهد بل تبايعه بالخلافة .

فالقواعد هي أيضاً كانت مدركة لموقفها عندما رفضت ولاية العهد ، وردته على أعقابه .

ومن هنا أدرك المأمون بأنه لا يستطيع أن يشتري هذه القواعد لا بالأموال ولا بالحيلة ، فطلب المأمون من الإمام أن يكتب إلى شيعته بأن يسكتوا ، وما كان من الإمام (ع) إلا أن يرفض طلبه مشيراً إليه « بأنه قد كتب شرطاً ، وهل يريد أن ينقض شرطه ، فقال له المأمون مستفسراً وما هذا الشرط ؟ قال له (ع) : اشترطت عليك أن لا أكتب في أمر ولا أحل ولا أعقد فأنا لا أكتب » [1] . وامتنع الإمام من أن يكتب إلى قواعده أي شيء .

٣ ــ عرف المأمون بأن مجيء الرضا (ع) إلى جهازه الحاكم ، سوف لن

(١) راجع علل الشرائع ج ١ ص ٢٢٦ .

يستطيع تغييره أو إصلاحه ، لأن هذا الجهاز كان مصاباً بانحراف كبير تعيشه الأمة الإسلامية كلها ، ولا يمكن لهذا الإنحراف أن يتبدل أو يتغير بيوم أو يومين .

والمأمون أراد من ضم الإمام (ع) إلى جهازه الحاكم تشويه سمعته وإظهاره أمام قواعده الشعبية ، بالمصلحي التاجر ، وإنه ليس بصاحب أطروحة حقيقية ، وبذلك يقضي على أمل المسلمين في قيادة «آل علي» وهذا أيضاً ما أمكن الإمام (ع) أن يتحصن ضده بكل ما أعلنه من سلبية تجاه الجهاز الحاكم ورفضه المستمر بالمشاركة والتعاون مع المأمون بأي شكل من أشكال التعاون .

ولكن لننظر إلى منطق بعض الباحثين المتعصبين ، كيف يفسر لنا الموقف بكل سطحية وعصبية ومناوءة لفكرة التشيع ، يقول أحمد أمين :

« أن الأئمة العلوية تزعم كل حين أنهم إذا ولّوا أمور الرعية ، ساسوها بالعدل المطلق ، وفرق كبير بين الدعوى والواقع ، وقد شكا المأمون من هذا ، فقد رأى أن الأئمة يختفون عن الأعين ، ويرتكبون من الإثم ولا من يراهم ، ويعرف قيمتهم فقال : إن من الخير للناس أن تظهر هذه الأئمة حتى يعرفوا زلاتهم ، ولا يقدسوهم هذا التقديس علماً بأنهم إذا ظهروا على مسرح الحياة وبان للناس كيف يحكمون ، وكيف يرتكبون ما حرم الله ، سقطوا من أعينهم ، ولكن ما داموا مضطهدين مختفين بالدعوة ، بقي العطف عليهم في الناس ، ولذلك اعتزم أن يولي بعده عليًّا الرضا » [1] فتأمل !

٤ ـ هذه النقطة كان لها دور كبير في محاولة المأمون عزل الإمام (ع) وإبعاده عن قواعده الشعبية وصهره في الجهاز الحاكم . ووضعه في سياج محكم يمنع اتصاله بالقواعد وبالتالي تمييع حركة التشيع وقضيتها ضمن إطار الخلافة العباسية .

---

(١) سلسلة اقرأ المهدي المهدوية ص ٦١ ـ ٦٢ أحمد أمين .

ومحاولات عزل الأئمة (ع) عن قواعدهم الشعبية كانت من الخصائص العامة للمرحلة الثالثة من عملهم (ع) فكان الرضا والهادي والجواد والعسكريان عليهم السلام، على الأغلب معزولين عن قواعدهم الشعبية ومطاردين سياسياً من قبل حكام زمانهم، وعملية عزل الأئمة (ع) وإبعاد خطرهم كانت تتم عادة بطريقتين:

١ ـ فرض الإقامة الجبرية عليهم إلى حد السجن والإعتقال كما حصل ذلك مع الإمام الكاظم (ع) أو اعتقالهم في المدينة التي كان يسكن فيها الخليفة، بشكل من أشكال الترهيب والتعذيب، وقد وضعوهم (ع) تحت الرقابة المستمرة. وهناك رواية تأريخية تدل على أن الرضا (ع) عندما كان يتنقل من المدينة إلى فارس، كان يصحبه خادم ـ يبدو أنه من الذين باعوا دينهم وضميرهم للحاكم ـ كان جاسوساً وعيناً على أخبار تحركات واتصالات الإمام (ع).

وكانت هناك محاولات أخرى كثيرة من قبل المأمون لفصل الإمام عن قواعده الشعبية، وكان لهذا الخادم الدور الكبير في رصد تحركات الإمام (ع) ومحاولة عزله عن قواعده في العالم الإسلامي.

٢ ـ صهر الأئمة (ع) في الجهاز الحاكم وتمييع حركتهم ضمن إطار الحكم المنحرف كما حصل مع الإمام الرضا والجواد والهادي عليهم السلام.

وفعلاً استطاع المأمون أن ينجح في محاولة عزل الرضا (ع) عن قواعده، بعد أن دشن الإمام (ع) وضعه بنشاطات واتصالات واسعة بقواعده الشعبية. ولكن عندما وُضِع الإمام (ع) أمام محنة هذه التجربة لم يستطع أن يقوم بأي اتصال مع قواعده الشعبية التي كانت بحاجة إلى اتصاله لكي ينمو فكرها ووعيها، وتتعمق في ولائها لمدرسة الإمام علي (ع).

لماذا رفض الإمام (ع) الخلافة؟
ألم تكن فرصة للتغيير؟

في ختام الحديث عن الإمام الرضا (ع) يطالعنا هذا السؤال ، لماذا رفض الرضا (ع) الخلافة ، حينما عرضها عليه المأمون ؟ ألم تكن فرصة في تنفيذ مبادئه وقيمه ؟ ولماذا ضيع من يده هذه الفرصة ؟

ونجيب بالنقاط الآتية :

١ - إن المأمون لما عرض الخلافة على الإمام (ع) لم يكن مأموناً في نظر الإمام الرضا (ع) .

٢ - إن تولي الإمام الرضا للخلافة معناه أنه سيسأل عن إدارة الأمور في كل أرجاء الدولة الإسلامية ، وهذا يحتاج إلى جهاز واعٍ يملك أن يطبق مفردات المنهج الإسلامي في الحكم بكل أمانة وإخلاص ، وهذا ما كان يحرص الرضا (ع) على إيجاده وإن كانت قواعده تملك أحر العواطف ، ولكنها لم تكن قد وصلت إلى حد من العمق والوعي المتفتح لأطروحتها .

والمسألة في الواقع ليست مسألة تغيير شكلي بمقدار ما هي مسألة تغيير وبناء مضموني قائم على أساس الوعي والتفهم المخلص فهل بإمكان الإمام (ع) أن يعمد إلى الأجهزة العباسية الموبوءة بكل ما اتسمت من فساد وانحراف ويطلب منها أن تطبق الإسلام وتقيم حدوده ! إن مثل هذا الأمر لا يمكن أن يقبل بحال ، أما قبوله لولاية العهد فهو كما قدمنا ، لم يكن عملاً اختيارياً ، بل كان إكراهاً واضطهاداً سياسياً مغلفاً ، عانى منه الرضا (ع) بعد أن وُلِّي العهد لأنه كان يعلم

أن المأمون لم يعزم على هذا الأمر إلا ليركز حكمه المنهار بفعل الأحداث الصاخبة التي عاصرت حكمه ، بعد أن يكسب الإمام (ع) وقواعده الشعبية لتكون عوناً لحكمه المنهار (١) ولم تكن ولاية العهد إلا شرطاً نصبه المأمون لإصطياد بعض المكاسب السياسية التي توفر عليه الكثير من متاعب الحكم ، ولم يكن صادقاً في سلوكه مع الإمام ، بل هو مجرد دور مرحلي كان عليه أن يتقنه بدقة ليتخلص إلى النتائج المطلوبة (٢) .

وقد عانى الرضا (ع) مرارة الغربة والتطويق ، وكان تطويقاً من طراز خاص ، لم يكن تطويقاً في غياهب السجون كما صنع الرشيد مع الكاظم (ع) وإنما كان تطويقاً في أضخم القصور والمباني ومع زمرة من الحشم والخدم ، الذين هم عيون المأمون على الرضا (ع) يزودون السلطة بجميع الأخبار أولاً بأول ويمنعون الناس والموالين من الوصول إلى الرضا .

وكان الرضا شديد الوطأة على المأمون ، إذ دخل عليه يوماً وهو يتوضأ للصلاة ، فرأى غلاماً يسكب الماء على يده ليتوضأ فقال له الإمام « لا تشرك بعبادة ربك أحداً » بمثل هذه الصراحة والصرامة كان يتخذ المواقف مع المأمون ، وكان ينقد العديد من مواقفه والمأمون يتظاهر بقبول مواعظه ونصائحه ، إلا أنه كان يضمر في نفسه حقداً وبغضاً ــ ولهذا فالمأمون عندما قرر أن ينقل مركز خلافته من مرو إلى بغداد ، وعندما توجه إليها قضى على الإمام (ع) ودس إليه السم وجعل ذلك ثمناً لصلحه مع العباسيين ، بعد أن بذل الإمام الرضا (ع) كل جهده وإمكاناته من أجل قضية الإسلام وإعلاء كلمته .

* * *

---

(١) و (٢) راجع الإمام الرضا تاريخ ودراسة محمد جواد فضل الله ص ١٠٧ .

الإمام محمد الجواد (ع)

حياة الإمام محمد الجواد (ع) استمرار لخطة أبيه الرضا (ع) ويبدو ذلك من علاقة المأمون نفسها بالإمام الجواد (ع) ومحاولة المأمون وخطته لقهر الإمام الجواد وتقريبه من أروقة الحكم ، استمرار لمؤامرته لتمييع حركة التشيع وقضيتها ضمن إطار الخلافة العباسية ، ومستهدفاً بذلك حجز الإمام وعزله عن قواعده الشعبية بشكل لا يثير الأمة وخصوصاً وهو يعيش معززاً مكرماً في قصور المأمون ومبانيه الفخمة ، وبعدها سوف يجعله تحت رقابة القصر المحكمة والتي تحصي عليه كل تحركاته وسكناته بدقة تامة .

ولهذا بادر المأمون إلى خطته القديمة في الظهور أمام الناس بالشخص المشفق المحب للإمام (ع) فزوجه ابنته أم الفضل [1] لكي يضمن تأييد الإمام له ، ولذلك عرض عليه البقاء ، لكن الإمام الجواد أصر على الرجوع إلى المدينة ، ليحبط خطة المأمون في كسب تأييده لخلافته المغتصبة فهي من جانب الإمام (ع) استنكار لخلافة المأمون وإيحاء للآخرين بعدم شرعية حكمه ، ومن جانب آخر إثبات لإمامته وانفصال أطروحته عن أطروحة السلطة الحاكمة .

فقبول الإمام (ع) بالبقاء مع المأمون في بلاطه وحاشيته معناه أن تندمج الأطروحتان ، وتبدو للجمهور أنهما غير متناقضتين مما يضيع على أطروحة الإمام

---

(١) أنظر خبر تزويجه البحار جزء ٥٠ ص ٧٣ .

معالمها الفكرية الخاصة التي تميزها عن أطروحة الحاكم المنحرف .

والإمام الجواد (ع) استمر في خط أبيه ، في تخطيطه الفكري وتوعيته العقائدية ، فكان في المدينة يجمع عنده الفقهاء من بغداد والأمصار ليسألوه ويستنيروا بهديه « وكان وقت موسم الحج فاجتمع من فقهاء بغداد والأمصار وعلمائهم ثمانون رجلاً فخرجوا إلى الحج وقصدوا المدينة ليشاهدوا أبا جعفر» [١] .

وكان الإمام الجواد (ع) يمارس مهام مسؤولياته الجهادية لتوسيع قواعده الشعبية ، حتى سمع به المعتصم واستدعاه إلى بغداد بالقوة ليغدر به ، وينهي حياته الشريفة بالسم ، وقال ابن بابويه : سمه المعتصم [٢] .

فالإمام (ع) إذن كان يشكل خطراً على حياة السلطة ويسلط الأضواء على مواضع انحرافهم وبعدهم عن الإسلام ، وليس ذلك وحده بل كان الكل يعرف منزلته وتفوقه العلمي والفكري على صغر سنه ، وتحديه للفقهاء وللقضاة في عصره ، ودليل على تحرك الإمام وتبنيه لشؤون الأمة الفكرية والعقائدية (ففي مجلس واحد سألوه عن ثلاثين ألف مسألة فأجابهم فيها وله تسع سنين) [٣]

قال المفيد إن المأمون كان قد شغف بالجواد لما رأى من فضله مع صغر سنه وبلوغه من الحكمة والعلم والأدب وكمال العقل ما لم يساوه فيه أحد من مشايخ أهل الزمان ».

وقال الطبري في (أعلام الورى) إنه كان (ع) قد بلغ في وقته من الفضل والعلم والحكم والآداب مع صغر سنه منزلة لم يساوه فيها أحد من ذوي الأسنان من السادة وغيرهم » [٤] .

---

(١) البحار المجلسي جزء ٥٠ ص ١٠ .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ج ٢ ص ٩٢ .
(٣) البحار جزء ٥٠ ص ٨٦ .
(٤) دائرة المعارف ج ٢ ص ٩٢ .

تنهي حديثنا عن عمل وتخطيط الإمام الجواد وبهذا القدر المختصر وذلك لتشابه دوره مع دور أبيه الرضا (ع) . لنتوفر على دراسة ظاهرة اعجازية ، وجدت مع الإمام الجواد (ع) وقد أثارت حولها كثيراً من التساؤلات والأقاويل . ألا وهي ظاهرة توليه مرجعية الإمامة والقيادة وهو في سن الطفولة وكان عمره آنذاك ثماني سنين .

الامام (ع) وصغر سنه

وهي من الظواهر الإعجازية التي وجدت مع الإمام الجواد (ع) والتي كان لها أثرها الكبير على واقع الحكام آنذاك .

وقد أجمعت المصادر التأريخية أن الإمام الجواد توفي أبوه الرضا (ع) وعمره (ثماني سنين أو سبع سنين وأربعة أشهر) [1]، وتولى الإمامة بعد أبيه وهو في سن الطفولة .

هذه الظاهرة تواجدت لأول مرة في حياة أئمة أهل البيت (ع) في شخص الإمام الجواد (ع) وكان تحدياً صارخاً للحكام المنحرفين ورهاناً أكيداً وإعجازياً على حقيقة امتداد خط إمامة ومرجعية أئمة أهل البيت الذي يمثله الإمام الجواد (ع) .

ولو اعتمدنا حساب الإحتمالات لوجدنا أن صغر سن الإمام (ع) وحده سبباً كافياً للإقتناع بحقيقة إمامته وتمثيله لخط إمامة أهل البيت ، وإلا كيف نفسر توليه للزعامة الشيعية في كل المجالات النظرية والعملية .

ولربما يتبادر افتراض يقول إن الطائفة الإسلامية الشيعية ربما لم ينكشف لديها بوضوح إمامة وزعامة هذا الصبي لأهل البيت ، ولربما زادوا هذا الافتراض زعماً آخر كما جاء على لسان الباحث أحمد أمين « باختفاء الأئمة عن

(١) نفس المصدر السابق ص ٩٢ .

الأعين ، واكتفاؤهم بالدعوة سراً ، ليبقى العطف عليم في الناس » [1] .

وردنا على هذا الإفتراض والزعم ، نقول ، إن زعامة الإمام الجواد (ع) كانت زعامة مكشوفة وعلنية أمام كل الجماهير ولم تكن زعامة أئمة ـ أهل البيت ـ في يوم ما زعامة محاطة بالشرطة أو الجيش وأبهة الملك والسلطان ، بحيث تحجب الزعيم عن رعيته ولم تكن زعامتهم (ع) زعامة دعوة سرية من قبيل الدعوات الصوفية والفاطمية ، كي تحجب بين قائد الدعوة وبين قواعده الشعبية ، بل كان إمام ـ أهل البيت (ع) ـ يمارس زعامة مكشوفة إلى حد ما ، وكانت القواعد الشعبية المؤمنة بزعامته وإمامته تتفاعل معه مباشرة في مسائلها الدينية وقضاياها الإجتماعية والأخلاقية .

ولما استقدمه المأمون إلى مركز خلافته بغداد أصر الجواد (ع) على الإستئذان والرجوع إلى المدينة ، وقد سمح له المأمون بذلك ، وقد قضى أكثر عمره الشريف هناك [2] .

فالجواد (ع) كان يتحرك بفاعلية ونشاط على المسرح الإجتماعي وهو مكشوف أمام كل المسلمين بما فيهم الشيعة الذين يؤمنون بزعامته وإمامته .

« حق أن المعتصم تضايق من نشاطه وتحركه ، فطلبه وأحضره إلى بغداد ، ولما حضر أبو جعفر (ع) إلى العراق لم يزل المعتصم وجعفر بن المأمون يدبرون ويعملون الحيلة في قتله ويقول المفيد « فورد بغداد لليلتين بقيتا من المحرم سنة ٢٢٠ هـ وتوفي بها في ذي القعدة من هذه السنة » .

وفي روضة الواعظين مات ببغداد قتيلاً مسموماً » [3] .

---

(١) المهدي والمهدوية ص ٦١ ـ ٦٢ .

(٢) الموسوعة ج ٢ ص ٩٢ .

(٣) نقلاً عن دائرة المعارف ص ٩٢ .

وعلى ضوء هذه الحقائق تسقط دعوى الفرض الذي يقول بأن الجواد (ع) لم تكن زعامته مكشوفة أمام المسلمين عامة وأمام شيعته خاصة ، خلافاً لطبيعة العلاقة التي نشأت منذ البداية بين قادة ـ أهل البيت ـ وقواعدهم الشعبية وخصوصاً أن المأمون قد سلط الأضواء على إمامة الجواد وعلمه ، فقد عرّضه إلى امتحان من أجل إفحامه وفض الناس عنه وجمع بينه وبين كبار العلماء أمام العباسيين فتبين تفوق الجواد (ع) العلمي والفكري على صغر سنه [1] .

وقد طلب المأمون من يحيى بن أكثم ، وهو من كبار المفكرين آنذاك أن يطرح على الإمام مسألة يقطعه فيها . فقال له :

« أتأذن لي جعلت فداك في مسألة ، فقال له أبو جعفر : سل إن شئت .

قال يحيى : ما تقول في محرم قتل صيداً ؟

فقال له الإمام (ع) : قتلة في حلٍّ أو حَرَم ؟ عالماً كان المحرم أم جاهلاً ؟ قتله عمداً أو خطأ ؟ حراً كان أم عبداً ؟ صغيراً كان أو كبيراً ؟ مبتدئاً بالقتل أم معيداً ؟ من ذوات الطير كان الصيد أم من غيرها ؟ من صغار الصيد كان أم من كباره ؟ مصراً على ما فعل أم نادماً ؟ في الليل كان قتله للصيد أم نهاراً ؟ محرماً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحج كان محرماً ؟.

فتحير يحيى بن أكثم وبان في وجهه العجز والإنقطاع وتلجلج حتى عرف أهل المجلس أمره » [2] .

وهناك افتراضات أخرى ربما تثار في هذا المجال نعرضها على التوالي :

الإفتر ض الأول الذي يقول : إن المستوى العلمي والفكري للطائفة الشيعية وقتئذٍ كان بدرجة يمكن معها أن يغفلوا هذا الموضوع ، أو بشكل آخر إن مستواهم

---

(١) نفس المصدر نقلاً عن الإرشاد للمفيد .

(٢) تذكرة الخواص ص ٣٦٨ و ٣٧٢ وراجع للتفصيل تحف العقول عن آل الرسول ابن صغبة ص ٣٣٥ .

الفكري والعقلي والروحي هو الذي دفعهم إلى التصديق والإيمان بإمامة طفل وهو ليس بإمام حقاً !.

وهذا الفرض ساقط ، يكذبه الواقع التاريخي الثابت للطائفة الشيعية إذ أن مستواها العلمي والفقهي كان موضع إكبار وتقدير من قبل كل المدارس الفكرية المنافسة الأخرى.

فالمدرسة الفكرية الضخمة التي خلفتها جهود الإمامين الباقر والصادق (ع) كانت من أكبر مدارس الفكر الاسلامي التي شهدها العالم الإسلامي آنذاك ، فهناك جيلان قد تعاقبا وهم من تلاميذ الصادق والكاظم عليهما السلام وكانا على رأس الطائفة الشيعية في ميادين الفقه والتفسير والكلام والحديث وكل جوانب المعرفة الإسلامية.

وعلى ضوء هذه الحقيقة ، لا يمكن الإفتراض أبداً بأن المستوى الفكري والعلمي للطائفة كان بالمقدار الذي يغفل موضوعاً مهماً وخطيراً كهذا فكيف تغفل طائفة بكاملها وفيها هذه المدرسة التي كانت تعد قبلة للفكر الإسلامي المنفتح وتتخيل أو تتصور غفلة أن الإمامة في شخص طفل صغير وهو ليس بإمام حقاً. وخصوصاً ـ وكما قدمنا ـ أن إمامة الجواد وزعامته لقواعده الشعبية كانت زعامة مكشوفة لكل المسلمين وبإمكان أي فرد منهم أن يتحداها ، ويمتحن صدقها ، وخصوصاً الطائفة الشيعية التي كانت تمثلها في العالم الإسلامي أكبر المدارس الفكرية وأضخمها على الإطلاق ، فقد امتدت مدرستها في الكوفة وقم والمدينة ، وكانت هذه المدارس والمراكز الفكرية على صلة بالإمام (ع) تستفتيه وتسأله ، وتنقل إليه الحقوق والأموال من مختلف الأطراف ، فكيف نتصور أن هذه العقلية المنفتحة أو مثل هذه المدرسة الضخمة تغفل عن حقيقة طفل لا يكون إماماً.

الإفتراض الثاني : إن الطائفة الشيعية ـ عبر تاريخها المديد ـ لم تكن تملك تصوراً واضحاً لمفهوم الإمام والإمامة بل كانت تتصور الإمام مجرد رقم في تسلسل نسبي وراثي فهي بالتالي تجهل الإمام والشروط اللازمة للإمامة !

نقول إن الإفتراض مردود لأن التشيع كأساس يقوم على المفهوم الإلهي العميق لفكرة الإمامة وهو من أبْدَه وأبسط مفاهيم التشيع ، فالإمام في مفهومه الشيعي العام ـ هو ذلك الإنسان الفذ بمعارفه وأقواله وأعماله وأخلاقه .

وهذا المفهوم وهو ما كان واضحاً في معالمه وأبعاده عند الطائفة الشيعية ، فقد بشرت ـ بهذا المفهوم ـ آلاف النصوص التي توالت منذ عهد الإمام علي (ع) إلى عهد الإمام الرضا (ع) ، حتى أن كل تفاصيل وخصوصيات ـ التشيع ـ أصبحت واضحة جلية في أذهان الشيعة ووعيهم .

تقول إحدى الروايات بهذا الصدد « دخلنا المدينة بعد وفاة الرضا (ع) نسأل عن الخليفة بعد الإمام الرضا فقيل إن الخليفة في قرية قريبة من المدينة ، فخرجت إلى تلك القرية فدخلتها ، وكان فيها بيت للإمام موسى بن جعفر (ع) انتقل إلى الإمام الجواد (ع) بالوراثة فرأيت البيت غاصاً بالناس ورأيت أحد إخوة الرضا (ع) جالساً متصدراً المجلس ، وسمع الناس يقولون عنه ـ أي أخ الرضا (ع) ـ بأنه ليس هو الإمام بعد الرضا ، لأنهم سمعوا من الأئمة (ع) أن الإمامة لا تكون في أخوين بعد الحسن والحسين (ع) »[1] .

ونستنتج من هذا الحديث ، أن كل تفاصيل وخصوصيات التشيع ومفاهيمه كانت واضحة وجلية عندهم ، مما يكذب زعم أصحاب هذا الإفتراض .

الإفتراض الثالث والأخير : إن الأمر لا يعدو كونه تفانياً وإصراراً على الغرور والباطل من قبل طائفة الشيعة ومحبيه .

ونقول إن هذه الدعوى باطلة ، ليس فقط من وجهة نظر إيماننا بورع الطائفة الشيعية وقدسيتها ، وإنما تؤكد القول من خلال تلك الظروف الموضوعية التي أحاطت هذه الطائفة المضطهدة ، إذ أنه لم يكن ـ التشيع ـ في يوم من الأيام في

---

(١) البحار ج ٥٠ ص ٩٠ .

حياة هذه الطائفة المؤمنة طريقاً للأمجاد والسلطان أو الإثراء بل كان التشيع على مدار التاريخ طريقاً إلى التعذيب والحرمان والسجون والدمار ، بل وكان طريقاً لأن يعيش معها إنسان الطائفة ، حياة خوف وتضحية ومراقبة دائمة في كل خطوة يخطوها .

يقول الإمام الباقر (ع) عن تلك المحن والبلايا التي نزلت بالشيعة ، « وقتلت شيعتنا بكل بلدة وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة والتهمة وكان من يذكر بحبنا أو الإنقطاع إلينا سجن أو نهب ماله وهدمت داره » [1] .

فافتراض التفاني والإصرار على الباطل ، لم يكن في أي وقت من الأوقات من أجل مطمح مادي أو دنيوي .

ولماذا بعد ذلك كل هذا التفاني والإصرار من قبل علماء وفقهاء الطائفة ، على إمامة باطلة زائفة ، مع أن تفانيهم للإمام (ع) سيكلفهم ألواناً قاسية من الحرمان والعذاب .

لذلك لا يمكننا تفسير تفاني الشيعة على الإمامة ، إلا أن يكون ذلك ناشئاً عن اعتقاد حقيقي بهذه الإمامة ووعي عميق لشروط انعقادها .

ومن هنا يجب القول أن كل هذه الافتراضات لا يمكن قبولها لمن اطلع على حقيقة تاريخ هذه الطائفة وظروفها الموضوعية ، وبالخصوص الظروف والملابسات التي أحاطت بإمامة الجواد (ع) .

بعد عرض هذه الإفتراضات وردها ، لا يبقى لدينا إلا الفرض الوحيد المطابق للواقع وهو كون الجواد (ع) هو الإمام حقاً .

* * *

---

(١) شرح النهج جزء ٣ ص ١٥ لابن أبي الحديد .

الامام علي الهادي (ع)

عاش الإمام الهادي (ع) بعد استشهاد أبيه ظروفاً صعبة وقاسية وقد عاصر حكم المتوكل الذي عرف بحقده على الإمام (ع) وملاحقته لأصحابه وقواعده التي كانت تتسع يوماً بعد يوم ، هذا التوسع الذي انعكس على واقع الجهاز الحاكم ، حتى شعر المتوكل بخطورة الموقف وحرجه ، فحاول تفادي المضاعفات ، بطريقين متلازمتين في آن واحد معاً : ـ

١ ـ شن حملة مطاردة واضطهاد ، لقواعد الإمام (ع) وأصحابه ، وتدمير كل اثر شيعي لهم زيادة في ارهابهم وامعاناً في إذلالهم، «حتى أنه كرب قبر الحسين وعفّى آثاره» [1] .

٢ ـ عزل الإمام (ع) عن قواعده تمهيداً لشرذمتها ، وتمييع قضيتها وتيئيسها من الانتصار .

وقد رأى المتوكل أن تواجد الإمام الهادي بعيداً عن رقابته (في المدينة) يشكل خطراً على دولته ، فأمر باستقدامه إلى سامراء لكي يضعه تحت رقابته ، ويرصد حركاته بعيداً عن قواعده الشعبية .

فقد أرسل المتوكل رسالة للإمام (ع) يدعوه فيها للحضور إلى ـ سامراء ـ مع من يختار من أهله ومواليه [2] بشكل لا يثير الأمة عليه ، وهو نفس أسلوب

---

(١) الكامل ج ٥ ص ٣٠٤ .

(٢) الإرشاد ٣١٣ .

من سبقه من الخلفاء ، وكما فعل المأمون قبله مع الرضا والجواد عليهما السلام ومحاولة دمجهما في الجهاز الحاكم ليكونوا تحت رقابة القصر .

وأرسل المتوكل كتابه مع يحيى بن هرثمة أحد قادته العسكريين كما أرسل معه فرقة من الجند إلى المدينة وأمره باستقدام الإمام (ع) إلى سامراء ، بعد تفتيش بيته ، والبحث عن أي مستمسك يدين الإمام بالعمل والتآمر ضد الدولة ، فلما سمع أهل المدينة بالحادث ضجوا استنكاراً على فعلة ابن هرثمة حتى أنه أخذ يسكتهم ويحلف لهم بأنه لم يؤمر فيه بمكروه »[1] وهذا مما يدل على معرفة أهل أهل المدينة بسوء نية السلطات تجاه الإمام (ع) . ويقول ابن هرثمة « ثم فتشت منزله فلم أجد فيه إلا مصاحف وأدعية وكتب العلم »[2] .

وقد خرج الإمام الهادي مصاحباً ولده العسكري وهو صبي ، مع ابن هرثمة يقودهما إلى سامراء ، وبعد وصوله إليها بيوم استدعاه المتوكل ، وتلقاه جملة من أصحاب المتوكل ودخل عليه فأعظمه وأكرمه ثم حوله إلى دار قد أعدت له (ع) ! !

وأراد المتوكل بأسلوبه الماكر هذا أن يغطي على منهجه السياسي وعدائه الدفين للإمام (ع) ، وهو بهذا الاستدعاء يفرض عليه الإقامة الجبرية تحت عين ومراقبة القصر المحكمة والتي سوف تحصي عليه كل تحركاته وسكناته بدقة تامة .

الامام تحت الرقابة

وقد سبق أن لاحظنا أن هدف استدعاء المتوكل للإمام الهادي إلى سامراء هو وصحبه وصهره في حاشية الخلافة بقدر الإمكان ليكون الإمام بين سمعهم وأبصارهم فلا تفوتهم منه شاردة ولا واردة .

« وكان الإمام (ع) يعطي من نفسه بإزاء ذلك وكأنه يوافق الدولة العباسية

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٤ ص ٨٤ .

(٢) التذكرة لابن الجوزي والموسوعة ص ٩٣ .

على سياستها تجاهه ، فكان يحضر موائدهم ، ويجلس مجالسهم ويخرج في مواكبهم »[1] .

ولم يكن هذا الموقف من الإمام عليه السلام تنازلاً أو تسامحاً مع الدولة ، فإن هذا لا يمكن أن يكون مع شخصية كشخصية الإمام (ع) المبدئية .

وأي تنازل يبديه الإمام (ع) معناه التصرف ضد مصالح الإسلامية العليا .

ولو أن الدولة كانت تحس في الامام تنازلاً في مواقفه ، لنال عندها أقصى المنازل الرفيعة والجاه العظيم ، ولألفت مراقبتها الشديدة عليه دون أن تكرهه على الإقامة الجبرية ، مع العلم أن سياستهم الجائرة تجاه الإمام كانت تتزايد يوماً بعد يوم ، حتى أن المتوكل في آخر أيام حكمه ألقى بالإمام في غياهب السجون لكثرة ما ترفع عنه للمتوكل من سعايات ووشايات بين آونة وأخرى ، وكانت هذه الأخبار توقظ شكوك المتوكل على الإمام وتثير توجسه الكامن في نفسه ، وكانت هذه الأخبار والوشايات تجعله يأمر بكبس دار الإمام للتأكد من صدق الوشاية أو كذبها .

الوشايات تبور بالفشل

الملاحظ في كبس دار الإمام (ع) أمران : ــ

١ ــ أن كل الأخبار والوشايات دائماً كانت تبوء بالفشل دون أن تحقق هدفها في كشف معلومات عن حقيقة عمل الإمام ونشاطه وفي كل مرة يرجع جواسيس الخليفة مؤكدين لم يجدوا في دار الإمام ما يثير التوجس ، مما يوجب عودة المتوكل إلى هدوئه واستمراره في إظهار احترام الإمام وتقديره في الظاهر .

وكان الهادي (ع) يفلح في كل مرة ــ يراد تفتيش بيته ــ بإخفاء مكامن الشك عن الدولة ، بالرغم مما كان يرده من الأموال والكتب وما كان يقوم به من اتصالات ، وكان يستعمل أسلوباً رمزياً حينما يريد التعبير عن أمر محظور في

---

(١) تاريخ الغيبة ص ١٤٢ .

نظر الدولة [1] .

٢ ـ كان الإمام (ع) يظهر ـ عند الكبس على داره ـ بمظهر اللامبالاة والهدوء التام والشخص الواثق من براءته ، وكان يعين الشرطة المتجسسين على مهمتهم ، فيسرج لهم الضياء ، ويدلهم على غرف الدار توخياً في الإيحاء للدولة بأنه لا يملك أي نشاط غريب ، ولو كان الإمام (ع) يقف موقفاً غير هذا الموقف لحاول بسلوكه وموقفه أن يثير شك الحكام بنشاطه ، وهو في غنى عنه .

وقد كبس دار الإمام (ع) مرات عديدة ، ومن ذلك كبسه لدار الإمام نتيجة لسعاية البطحاني به الى المتوكل وزعمه : إن عنده أموالاً وسلاحاً ، فأمر المتوكل على الفور سعيداً الحاجب بالهجوم ليلاً على دار الإمام (ع) وأخذ ما عنده من الأموال والسلاح وحمله إليه .

فأخذ سعيد معه سلماً وذهب إلى دار الإمام (ع) وصعد عليها من الشارع إلى السطح ونزل خلال الظلام فلم يدر كيف يصل إلى الدار ، فناداه الإمام (ع) بكل برود وهدوء : يا سعيد مكانك حتى يأتوك بشمعة ، ويقول سعيد : فلم ألبث أن أتوني بشمعة ، فنزلت ، فوجدت عليه جبة صوف وقلنسوة منها ، وسجادته على حصير بين يديه وهو مقبل على القبلة ، فقال لي : دونك البيوت ـ يعني الغرف ـ فدخلتها وفتشتها ، فلم أجد فيها شيئاً .

ويحاول سعيد أن يظهر اعتذاره للإمام (ع) وكونه مأموراً ولكن الإمام (ع) أظهر سخطه بتلاوته لقوله تعالى « **وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون** » [2] .

وفي حادثة أخرى : يصل إلى المتوكل خبر مالٍ يصل الإمام من قم وهي إحدى مراكز الولاء للإمام (ع) فيأمر وزيره الفتح بن خاقان أن يراقب الوضع

---

(١) تاريخ الغيبة ص ١٤٩ .
(٢) الإرشاد ص ٣١٠ / والفصول المهمة لابن الصباغ ص ٢٩٨ .

ويأتي بالخبر ، فيرسل الوزير بعض مأموريه ويدعى « أبا موسى » إلى الإمام ليرقب الوضع عن كثب »[1] .

دور الامام (ع) وموقفه من الاحداث

حاول الإمام أن يمارس دوره وفقاً للظروف الصعبة التي عاشها وهو في سامراء تحت رقابة المتوكل وعيونه التي ترصده ليل نهار ، كان نشاطه (ع) يتحدد في دائرة في هذا الجو المضطرب دون أن يصطدم قدر الإمكان بحدود الضغط والرقابة الموجهة إليه وإلى أصحابه ، ومع ذلك فقد مارس دوره من خلال موقفين : —

١ ـ توعيته للأمة ، ومواقفه العلمية ، متمثلة برده للشبهات وإجابته على الأسئلة التي كان يوجهها الخليفة متحدياً بها الإمام (ع) لإحراجه أمام الناس .

فمن ذلك أن المتوكل طلب من ابن السكيت أن يسأل الإمام (ع) مسألة عوصاء بحضرته ! فيسأله ابن السكيت عن بعض ما يراه صعباً ومشكلاً ، فيخرج الإمام (ع) ظافراً من هذا التحدي .

حتى أن يحيى بن أكثم قال للمتوكل « ما أحب أن تسأل هذا الرجل عن شيء بعد مسائلي هذه ، وإنه لا يرد عليه بشيء بعدها إلا دونها وفي ظهور علمه تقوية للرافضة »[2] .

وكان الإمام (ع) يجيب السائل عن سؤاله ، ويرد الشبهات الملحدة الرائجة في مجتمعه[3] .

٢ ـ العمل على حماية قواعده والإشراف عليها ومساعدتها على قضاء حوائجها ـ قدر الإمكان ـ والعمل على تثقيفهم وتركيز ثقتهم به ، بصفته قائدهم الأعلى

---

(١) راجع المناقب ص ٥١٥ .

(٢) المناقب جزء ٣ ص ٥٠٧ .

(٣) الإحتجاج ج ٢ ص ٢٥١ ـ ٢٦٠ .

في كل شيء .

وقد انصرف الإمام (ع) يعمل بدأب على تجديد نشاطهم الإجتماعي – كلما سنحت لهذا النشاط فرص العمل – وكان يمد قواعده بكل الأساليب التي تساعدهم على الصمود ومواجهة العقبات والصعاب .

« وكان الهادي يستلم الأموال الطائلة – بالطرق السرية أو العلنية الممكنة – من مواليه كالزكاة والخمس والخراج ، ويصرفها في المصالح الإسلامية العامة لحركته ، بعيداً عن أعين الحكام والعاصمة العباسية » [1] .

موقف العباسيين من تخطيط الامام (ع)

أما الحكام العباسيون ، فقد خططوا لإحتواء عمل الإمام (ع) وتفريغ تخطيطه من فاعلية النشاط والتأثير ، ولجم معارضته (ع) بالأساليب الآتية :

١ – الوقوف بوجه الإمام (ع) وتحديه من الناحية العلمية ، وقد أحبط الإمام (ع) محاولتهم هذه ، عندما كان يجيب استفتاءاتهم ويرد على تحديهم – كما رأينا سابقاً – .

٢ – محاولة صهر الإمام (ع) وتقريبه من البلاط لتمييع أطروحة الإمام (ع) وعزله عن قواعده الشعبية .

ويمكن تفسير موقف الإمام في قبوله وإظهار موافقته للحضور إلى سامراء وتواجده معهم من خلال المبررات الآتية : –

أ – حملة الضغط والإكراه إلى حد التهديد بالقتل ، ورفض الإمام (ع) وامتناعه الصريح بالحضور إلى مجلس المتوكل ، يعني استفزاز الحكم ضده والظهور بمظهر الخارج عنهم ، وكل ذلك مما لا يتفق وسياسة الإمام المرحلية التي رسمها تجاه

---

(١) المناقب ج ٣ ص ٥١٢ .

الدولة .

ب ـ أراد (ع) احتواء وشايات بعض الجواسيس الذين أرادوا الإيقاع بالإمام والتصدي له بالأذى ، وذلك عندما وشى به عبد الله بن محمد الذي كان يتولى الحرب والصلاة في المدينة ، ملفتاً انتباه المتوكل إلى خطر الإمام (ع) ونشاطه في المدينة الذي يعمل ضد سلامة الدولة وأمنها ، وأشاع خبر وجود أسلحة وكتب في بيت الإمام (ع) [1] .

ولهذا أراد الإمام (ع) أن يظهر أمام الحكام بشكل يبدو أمره غير مثير للشك والشُّبه ، وهو بهذا ربما يتفرغ للإنفتاح على مجال آخر للعمل ، ويبادر لنشاط جديد .

ج ـ ربما كان الإمام (ع) يرى أن تواجده بين الطبقات الحاكمة والمتنفذة في الدولة ، فرصة عمل يستطيع من خلالها أن يقول الحق بينهم ويدافع عن قضيته العادلة بين ظهرانيهم ـ ولا نستبعد هذا الإحتمال ـ لاحترامهم لشخص الإمام وإكبارهم لعلمه ونسبه ـ وهو بهذا يكسب قضيته العطف في المستويات العليا من الدولة .

د ـ أدرك الإمام (ع) آنذاك أن طبيعة الحكم العباسي قائم كله على المحسوبية والمنسوبية ، وتأثير المصالح الشخصية والوساطات فيه .

فالإمام كان يرى أن بالإمكان الإستفادة من هذا الواقع وتجييره لصالح الإسلام ، والعمل على استبعاد الإضطهاد والظلم عن قواعده أو التخفيف ودفع الأخطار عنها .

الثورات العلوية والدعوة للرضا من آل محمد (ص)

الثورات العلوية كانت هي الأخرى هاجس الحكام ومثار مخاوفهم ولذا

---

(١) الإرشاد ص ٣١٣ .

وقف العباسيون منها موقفاً صارماً ، يحاولون اجهاضها قبل أن تستفحل وتشتد عليهم ، ويطاردون فلولها لشرذمتها والتخلص منها بكل وسائل القهر والقمع الوحشية .

هذه النظرة الحاقدة ـ ضد العلويين ـ لم يختلف فيها الخليفة أو القائد أو الوزير والعامة من الموالي والأتراك الذين زخرت بهم العاصمة العباسية سامراء آنذاك ، والطبقة المنتفعة والمتمتعة بكل الإمتيازات الطبقية ، وكان جملة منهم قواداً ومتنفذين بيدهم إعلان الحرب والسلم .

والدولة العباسية وقتئذٍ كانت تعاني تمزقاً وضعفاً من جراء سياستها الظالمة ، وكانت تخاف أي بادرة تحرك علوية وتخشى شبحها ، ولهذا كانت تقف منها موقفاً قاسياً تتصدى لثائريها بأقصى العقوبات الزاجرة .

كان الثوار العلويون ، عندما يتوسمون في أنفسهم القوة والأتباع يرون وجوب التخطيط للثورة والخروج على حكامهم المنحرفين ، وكانت أغلب الثورات تدعو إلى شعار ـ الرضا من آل محمد ـ ويريدون بهذا الشعار الشخص الذي هو أفضل آل محمد ، وليس في اعتقادهم غير الإمام الهادي (ع) .

والثوار بشعارهم الفضفاض هذا ، يريدون به تكتيكاً بارعاً لإخفاء اسم الإمام (ع) دون أن يضعه ـ في حال فشل الثورة ـ موضع التهمة والحرج تجاه السلطات الحاكمة ، وهم يعلمون أن الإمام (ع) أمام سمع الدولة وبصرها ، ولربما قتلته بعد أن تتهمه بإثارة العصيان والتمرد ضدها .

وقد أكدنا حقيقة مرّ ذكرها في أكثر من مكان : بأن الأئمة تركوا العمل المسلح والإصطدام المباشر لثوار علويين ، لتحريك ضمير الأمة وإرادتها وتحصين الأمة ضد الإنحراف ، وحاولوا بتضحياتهم المتتالية أن يحافظوا على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية من الإنهيار ، والأئمة (ع) كانوا بدورهم يسندون المخلصين منهم ، إما بشكل مباشر أو من خلال تعاليمهم التي كانت تؤثر في

نفوس قواعدهم الموالية مما يؤدي بهم إلى إعلان العصيان المسلح على الدولة .

ولأجل الدقة والموضوعية في البحث لا نستطيع القول بأن كل الثوار العلويين ، كانوا ثائرين على أساس الوعي الإسلامي في تطبيق أحكام الإسلام وتحت قيادة الإمام المعصوم (ع) وإن كان الاعتقاد أن غرض أكثر الثوار هو ذلك » [1] .

* * *

(١) راجع تاريخ الغيبة للصدر ص ٨٠ وراجع مقاتل الطالبيين للوقوف على ثورات العلويين ومقاومتهم للحكام

الامام الحسن العسكري (ع)

عانى الإمام العسكري (ع) مع أبيه الهادي ، وقضى القسط الأهم من حياته في العاصمة العباسية وواكب جميع الظروف والملابسات والمواقف التي واجهت أباه ، وتسلم مركز الإمامة بعد أبيه وعمره آنذاك إثنتين وعشرين عاماً .

وجاءت مواقفه امتداداً لمواقف أبيه (ع) بوصفه المرجع الفكري والروحي لأصحابه وقواعده وراعياً لمصالحهم العقائدية والإجتماعية ، بالإضافة إلى تخطيطه وتمهيده ، لغيبة ولده الحجة بن الحسن المهدي (ع) .

وفي عصر الإمام (ع) جدّت ظروف وملابسات ، ضعفت معها السلطة العباسية إلى درجة سيطرة الموالي والأتراك على مقاليد الحكم .

وكان من المتوقع وفي هذا الجو من ضعف السلطة ، أن يخف الضغط والإرهاب على الإمام وأصحابه ، لكن شيئاً من هذا لم يحدث ، بل ازدادت موجة الإرهاب والضغط وبلغت أوجها على يد الخليفة المعتمد ، لأن الخوف والتوجس من نشاط الإمام وتحركاته لم يكن ليقتصر على الخليفة وحده ، بل إن هذه تمثلت في خط اجتماعي عام ، لم يكن الخليفة إلا أحد أفراده .

فكان هذا الخط الإجتماعي العام ، يقف دوماً ضد خط الإمام وأطروحته الفكرية والسياسية ، والمتميزة والمتناقضة مع أطروحة الحاكم المتمثل في هذا الخط الإجتماعي العام والطبقة المستأثرة المنحرفة .

ومن هنا كان الصراع الدائم بين الخطين المتناقضين ، ومحاولات الحاكم

لعزل أطروحة الإمام وقيادته عن المسرح الإجتماعي والسياسي ، ومحاسبته على كل بادرة نشاط أو تحرك حتى ولو كانت وشاية تافهة أو خبر صغير عن نشاط الإمام « وقد حبسه المتوكل ولم يذكر سبب ذلك ، ولا شك أن سببه العداوة والحسد وقبول وشاية الواشين كما جرى لآبائه مع المتوكل وآبائه من التشريد والحبس والقتل وأنواع الأذى ، وروي أنه (ع) قتل مسموماً على يد المعتمد » [١] .

ومن هنا لا ينبغي توقع خفة الضغط ، وموجته المرعبة بتوالي الأعوام ، بل يحدثنا التاريخ عن شدتها وترسخها .

وهذا التصاعد الحاقد في محاربة الإمام (ع) كان السبب والدافع الرئيسي والمهم ، لحدوث الغيبة ، كما سنوضحه فيما يأتي إن شاء الله .

خطة الإمام (ع) في مواجهته للأحداث :

ويمكن تقسيم مواقف الإمام (ع) وخططه تجاه الأحداث بما يلي من المواقف : ـ

الموقف الأول :

موقفه من الحكم والحكام : ـ كانت سياسة العباسيين تجاه الأئمة (ع) واضحة من أيام الإمام الرضا (ع) وتلخصت بالحرص على دمج إمام أهل البيت وصهره في الجهاز الحاكم ، وضمان مراقبتهم الدائمة له ، ومن ثم عزله عن قواعده ومواليه .

هذه السياسة المخادعة كانت نافذة تجاه الإمام الحسن العسكري كذلك لمزاياها الكثيرة بالنسبة للحكم ، فكان العسكري (ع) كوالده مجبراً على الإقامة في سامراء ، مكرهاً على الذهاب والحضور إلى بلاط الخليفة كل يوم اثنين

---

(١) الموسوعة ص ٩٤ .

وخميس » [1] .

ولكن الإمام (ع) كآبائه في موقفه من الحكام ، وقف موقفاً حذراً ومحترساً في علاقته بالحكم ، دون أن يثير أي اهتمام أو أن يلقي بنفسه في أضواء الحكم وجهازه ، بل كانت علاقته بالحكم روتينية رتيبة ، تمسكاً بخط آبائه تجاه السلطة العباسية .

فموقف الإمام السلبي هذا أكسبه أمام الحكام احتراماً ومنزلة رفيعة ، وهذا ما نلاحظه من خلال علاقته بوزراء عصره وكيف أن الإمام (ع) كان يفرض شخصيته وجلالها حتى على أشد الناس حقداً وانحرافاً عن ـ أهل البيت ـ وهو الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي يقول في الإمام (ع) : « ما رأيت ولا عرفت بسر من رأى رجلاً من العلوية مثل الحسن بن علي بن محمد بن علي الرضا في هديه وسكونه وعفافه ونبله وكبرته عند أهل بيته وبني هاشم كافة وتقديمهم على ذوي السن منهم والخطر » [2] .

والملاحظ من كلام هذا الوزير مدى احترامه وتقديسه للإمام (ع) ، وقد زاره الإمام مرة وقابله في مجلس قصير [3] لكي يفهمهم أن وقوفه (ع) إلى جنب الوزير في انتقاده للظلم والإنحراف الذي يمارسه الجهاز الحاكم ، إنما يقفه لتأييد كل حق أينما وجد ، لأن المسألة عنده مسألة أمة ورسالة وهي تسمو على العداوات الشخصية والإختلافات ، وربما أراد كذلك أن يوهمهم بعدم الخروج على سياستهم أو الاحتجاج ضدهم وربما كانت سبباً تدفع الحاكم للتخفيف عن أصحابه من الضغط والمطاردة التي يلقونها من الدولة .

وقد أراد الإمام (ع) أن يلتقي بالوزير في محل عام « وفي أثناء جلوس

(١) المناقب جزء ٣ ص ٥٣٣ .
(٢) الإرشاد ص ٣١٨ وأعلام الورى ٣٥٧ .
(٣) المناقب ج ٣ ص ٥٢٦ .

الوزير يخبره حاجبه بأن أبا محمد بن الرضا بالباب فيأخذ هذا الخبر اهتماماً في نفس الوزير ، قال ولده أحمد : فتعجبت مما سمعت منهم ومن جسارتهم أن يكنوا بحضرة أبي ، ولم يكن يكنّى عنده إلا خليفة أو ولي عهد .

يقول : فدخل رجلٌ حسَنُ القامة ، جميل الوجه ، جيد البدن حديث السن ، له جلالة وهيئة حسنة .

قال أحمد : فلما نظر إليه أبي ، قام فمشى إليه خطىً فعانقه وقبَّل وجهه وصدره وأجلسه على مصلاه وجلس إلى جنبه مقبلاً علية بوجهه ، وجعل يكلمه ويفديه بنفسه !..

وقد بقي أحمد بن عبيد الله متحيراً في أمر أبيه وأمر الإمام حتى إستأذن مرة أباه بالسؤال وقال : يا أبه من الرجل الذي رأيتك بالغداة فعلت به ما فعلت من الإجلال والكرامة والتبجيل . فقال يا بني ذاك إمام الرافضة الحسن بن علي ، ثم سكت وأنا ساكت ، ثم قال : يا بني لو زالت الإمامة عن خلفائنا بني العباس ما استحقها أحد من بني هاشم غيره لفضله وعفافه وصيانته وزهده وعبادته وجميل أخلاقه وصلاحه » (١)

وهذا يدل على ما للإمام (ع) من حب وتعظيم وإدراك لعدالة قضيته وأجدريته بالحكم .

والإمام العسكري (ع) كان يقف من بعض الأحداث موقف الساكت دون تصريح إيجابي أو سلبي تجاهها ، كما فعل مع صاحب ـ ثورة الزنج ـ الذي زعم الإنتساب إلى الإمام علي (ع) ولم تكن ثورته تجسيداً لأطروحة ـ أهل البيت ـ لما ارتكبته ثورته من قتل الكثير من الناس ، وسلبه الأموال وإحراقه المدن وسبيه النساء ، كل ذلك بالجملة وبلا حساب أو رادع من دين .

---

(١) الإرشاد ٣١٨ .

فموقف الإمام إزاء سلوكية الثورة كان قطعاً موقف الرافض والمستنكر لما ارتكبته من أعمال تتنافى وأحكام الإسلام ولكن الإمام (ع) آثر السكوت والصمت ولم ينتقد تصرفاتها ولم يتعرض لتفاصيلها ، ولو فعل ذلك لكان عمله هذا يعتبر تأييداً ضمنياً للدولة ، لأن ثورة الزنج بالرغم من سلبياتها الكثيرة فهي بالتالي تتفق وأهداف الإمام (ع) من إضعاف حكم العباسيين وكسر شوكتهم ، وهو أمرٌ ينبغي على الإمام (ع) أن يستفيد منه لصالح حركته ونشاطه ، لأن المعارضين مهما اختلفوا ، فهم بالتالي يشتركون في مناوأة عدو واحد وهو الوضع الحاكم .

فالإمام يستفيد من نتائج حركة الزنج ، لأن الدولة سوف تضعف ، ولا يمكنها من أن تحارب على جبهتين أو أن تعطي لكل جبهة ثقلها المطلوب ، ولربما أدى ذلك ـ إلى حد ما ـ إلى تخفيف الضغط على جبهة الإمام (ع) ، ولو أن الدولة كانت ترى أن نشاط الإمام (ع) أشد خطراً وأبعد أثراً على المدى البعيد من حركة الزنج التي لا يعدو كونها تحركاً آنياً سرعان ما يزول .

الموقف الثاني : ـ

موقفه من الحركة العلمية والتثقيف العقائدي : ـ

وتمثلت مواقفه العلمية بردوده المفحمة للشبهات الإلحادية وإظهاره للحق بأسلوب الحوار والجدل الموضوعي والمناقشات العلمية ، وكان يردف هذا النشاط بنشاط آخر بإصداره البيانات العلمية وتأليفه الكتب ونحو ذلك .

وهو بهذا الجهد « يمون الأمة العقائدية شخصيتها الرسالية والفكرية من ناحية ومقاومة التيارات الفكرية التي تشكل خطراً على الرسالة ، وضربها في بدايات تكونها من ناحية أخرى ، وللإمام من علمه المحيط المستوعب ما يجعله قادراً على الإحساس بهذه البدايات وتقدير أهميتها ومضاعفاتها والتخطيط للقضاء عليها .

ومن هنا جاء موقف الإمام العسكري واهتمامه وهو في المدينة بمشروع كتاب

يضعه الكندي « أبو يوسف يعقوب بن إسحاق » فيلسوف العراق في زمانه ، حول متناقضات القرآن إذ إتصل به عن طريق بعض المنتسبين إلى مدرسته وأحبط المحاولة وأقنع مدرسة الكندي بأنها على خطأ [1] وجعله يتوب ويحرق أوراقه [2] .

وله (ع) بيانات علمية لأبي هاشم الجعفري في مسألة خلق القرآن [3] وكذلك في تفسير القرآن [4] .

الموقف الثالث : ـ

موقفه في مجال الإشراف على قواعده الشعبية وحماية وجودها وتنمية وعيها ومدها بكل أساليب الصمود والإرتفاع إلى مستوى الطليعة المؤمنة .

وكثيراً ما كان ينبههم (ع) من الوقوع في الشرك العباسي ويعينهم على نوائب الدهر اقتصادياً وإجتماعياً من جراء ما يلاقونه من معاملة قاسية من الحكام .

وقد كتب الإمام محذراً محمد بن علي السمري وهو خاصة أصحابه ورابع نواب ولده الحجة المهدي (ع) في غيبته الصغرى قائلاً له « فتنة تضلكم .. فكونوا على أهبة » [5] .

وكان يأمر أصحابه بالصمت والكف عن النشاط ريثما تعود الأمور إلى مجاريها وتستتب الحوادث .

وكان (ع) يحذر أصحابه حتى وهم رهن الإعتقال ، وقد اعتقل مرة جماعة من أصحابه ووضعوا تحت إشراف صالح بن وصيف وهم : أبو هاشم

---

(١) دور الأئمة للصدر .
(٢) المناقب ج ٣ ص ٥٢٦ .
(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٣٥ .
(٤) الإحتجاج ج ٢ ص ٢٥٠ .
(٥) كشف الغمة ج ٣ ص ٤٠٧ .

الجعفري ، وداوود بن القاسم ، والحسن بن محمد العقيقي ، ومحمد بن إبراهيم العمري وغيرهم . فأخبرهم الإمام (ع) أن يحذروا واحداً في الحبس يدعى أنه علوي وهو ليس منهم ، وفي ثيابه قصة قد كتبها إلى السلطان يخبره فيها بما يتحدثون عنه ، فقام بعضهم ففتش ثيابه فوجد القصة كما أخبرهم الإمام (ع) [1] .

ومن مواقفه تجاه أصحابه مساعدته لهم بالمال لأجل مصالحهم المادية العامة .

فقد كانت تأتي الإمام (ع) أموالٌ كثيرة من مختلف المناطق الإسلامية التي تتواجد فيها قواعده الشعبية ، وذلك عن طريق وكلائه المنتشرين فيها .

وكان الإمام (ع) يحاول جاهداً وبأساليب مختلفة أن يخفي هذا الجانب إخفاء تاماً على السلطة ، ويحيطه بالسرية التامة .

ونستطيع أن نلاحظ ، كيف استطاع الإمام وهو المضطهد المراقب أن يستلم الأموال ويصرفها طبقاً للمصالح التي يراها دون أن تعرف الدولة شيئاً عن نشاطه هذا ، بل تقف تجاهه عاجزة مكتوفة الأيدي عن كشفه ، بالرغم من بذل أقصى وسعها في ذلك ، وما انكشاف بعض هذه الأموال للدولة إلا نتيجة لتقصير بعض الأطراف في الأخذ بهذا المسلك [2] .

ولقد وقفت الدولة العباسية موقفاً شديداً وصارماً من أصحاب الإمام (ع) وقواعده المساندة ، وقد فعلت الكثير من أجل تمييع أطروحة الإمام (ع) وشرذمة أصحابه ، وعمدت إلى شراء الضمائر بالمال الوفير والعيش الرغيد .

وكان الإمام (ع) يقف من هذه المحاولات موقف الناصح والمسدد لأصحابه قائلاً لهم : الفقير معنا خيرٌ من الغني مع غيرنا ، والقتل معنا خيرٌ من الحياة مع عدونا ، ونحن كهف لمن التجأ إلينا ، ونورٌ لمن استبصر بنا وعصمة لمن اعتصم

---

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٢٢ وأعلام الورى ٣٥٤ .
(٢) راجع للتوسع تاريخ الغيبة للصدر ص ٢٠٦ .

بنا ، من أحبنا كان معنا في السنام الأعلى ومن انحرف عنا فإلى النار »[٢] .

الموقف الرابع :

موقفه (ع) من التمهيد للغيبة

إن الإمام العسكري (ع) «حين يعلم بكل وضوح تعلق الإرادة الإلهية بغيبة ولده من أجل إقامة دولة الله على الأرض وتطبيقها على الإنسانية أجمع ، والأخذ بيد المستضعفين في الأرض ليبدل خوفهم أمناً .. يعبدون الله لا يشركون به شيئاً ..

يعرف أن عليه مسؤولية التمهيد لغيبة ولده ، وذلك لأن البشر اعتادوا الإدراك والمعرفة الحسية ، ومن الصعب على هذا الإنسان المعتاد على المعرفة الحسية فقط أن يتجاوز إلى تفكير واسع .

ولم يكن مجتمع الإمام (ع) الذي عاصر بواقعه المنحرف وهبوط مستواه الفكري والروحي يسمو إلى عمق هذا الايمان وسمو فكرته ، خاصة وأن غيبة الإمام حادث لا مثيل له في تاريخ الأمة .

والإرهاصات المسبقة والنصوص الكثيرة المتوالية التي جاءت تبشر بالمهدي (ع) وإن كانت متواترة وصحيحة عن النبي (ص) وإن رواها مؤلفو الصحاح وهم معاصرون أو متقدمون على هذه الفترة بمن فيهم البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل .. نقول وإن كان لكل هذه النصوص والتبليغات ، أثرها الكبير والفاعل في ترسيخ فكرة انتظار المهدي (ع) في نفوس المسلمين بشكل عام ، وكان ايمانهم بها يتناسب تناسباً طردياً مع عمق إيمان الفرد وسعة تفكيره واتجاه مذهبه في الإسلام ، فإن هذه النصوص ليست أكثر من عون للإمام لكي يقنع الناس بالايمان بالغيبة من ناحية ويبرهن للناس تجسيد الغيبة في ولده المهدي من ناحية أخرى .

---

(٢) كشف الغمة ج ٣ ص ٢١١ .

والأمر الأصعب الذي تحمل مسؤوليته الإمام العسكري (ع) بصفته والداً للمهدي (ع) هو إقناع الناس بفكرة حلول زمان الغيبة وتنفيذها في شخص ولده الإمام المهدي (ع) وهو أمر صعب بالنسبة للفرد العادي إذ أنه سوف يفاجأ ويصدم بإيمانه بفكرة الغيبة ، فإن هناك فرقاً كبيراً في منطق إيمان الفرد العادي بشكل مؤجل لا يكاد يحس الفرد بأثره في الحياة وبين الإيمان بالغيب مع الإعتقاد بتنفيذه في زمان معاصر ، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال الإفتراض التوضيحي التالي : ـ

إذا أخبَرنا شخص ـ لا نشك بصدقه ـ بقرب حدوث قيام الساعة أو قرب حدوث أجلنا ، فإن مثل هذا الخبر سوف يولد لنا صدمة للإيمان بها ، لأن الإيمان بحدوثها يحتاج إلى قوة مضاعفة من الإيمان والإرادة ، وأن نحشد كل قوانا الإيمانية والروحية كي نتوصل معها للإيمان بهذا الأمر الغيبي .

هذه الحقيقة النفسية وملابساتها ، كانت تلح على الإمام أن يبذل كل الجهد لتخفيف وقع الصدمة وتذليلها وتهيئة أذهان الناس لإستقبالها دون رفض أو إنكار ، وتعويد أصحابه وقواعده على الإلتزام بها وخاصة وهو يريد تربية جيلٍ واعٍ يكون النواة الأساسية لتربية الأجيال الآتية والتي ستبني بجهدها تاريخ الغيبتين الصغرى والكبرى .

وإذا عطفنا على ذلك تلك الظروف والمعاناة الصعبة التي عاشها الإمام وأصحابه من قبل الدولة ، وضرورة العمل والتبشير بفكرة المهدي الثورية ، والتي كانت تعتبر في منطق الحكام أمراً مهدداً لكيانهم وخروجاً على سلطانهم وتمرداً على دولتهم .

ومن هنا نحس بكل وضوح دقة التخطيط الملقاة على كاهل الإمام العسكري (ع) وحرج موقفه وهو يدعو لفكرة ولده المهدي (ع) .

الامام (ع) يمهد لغيبة ولده المهدي (ع)

وقد اتجه نشاط الإمام العسكري وتخطيطه في تحقيق هذا الهدف إلى عملين

ممهدين : –

١ – حجب المهدي (ع) عن أعين الناس مع إظهاره لبعض خاصته فقط .

٢ – شن حملة توعية لفكرة الغيبة ، وإفهام الناس بضرورة تحملهم لمسؤولياتهم الإسلامية تجاهها وتعويدهم على متطلباتها .

فعلى المستوى الثاني رأينا الإمام العسكري يصدر بياناته وتعليماته عن المهدي (ع) كحلقة متسلسلة من تلك النصوص والتعليمات التي بشر بها النبي (ص) والأئمة من بعده مع التأكيد والتخصيص على ولده المهدي (ع) .

واتخذت بيانات العسكري (ع) أشكالاً ثلاثة :

أ – بيان عام ، كالتعرض إلى صفات المهدي (ع) بعد ظهوره وقيامه في دولته العالمية ، كجوابه (ع) عن سؤال بعض أصحابه عن قيام المهدي قائلاً : « فإذا قام قضى بين الناس بعلمه كقضاء داوود لا يسأل البينة » [1] .

ب – توجيه نقد سياسي للأوضاع القائمة ، يقرنها بفكرة المهدي وضرورة تغييرها لها ، فمن ذلك قوله : « إذا خرج القائم أمر بهدم المنابر والمقاصر في المساجد » وكانت تبنى هذه المقاصر لغرض الأمن من الاعتداء على الخليفة وزيادة الهيبة في نفوس الآخرين » [2] .

جـ – توجيه عام لقواعده وأصحابه ، يوضح لهم أبعاد فكرة الغيبة ، وضرورة التكيف لها من الناحية النفسية والإجتماعية تمهيداً لما يعانونه من غيبة الإمام وانقطاعه عنهم .

فمن ذلك كتب الإمام (ع) لابن بابويه رسالة يقول فيها :

---

(١) الإرشاد ص ٣٢٣ .

(٢) المناقب ج ٣ ص ٥٣٦ .

« عليك بالصبر وانتظار الفرج ، قال النبي (ص) أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج ، ولا يزال شيعتنا في حزن حتى يظهر ولدي الذي بشر به النبي (ص) يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً . فاصبر يا شيخي يا أبا الحسن علي وأمر جميع شيعتي بالصبر ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » [1] .

٣ ـ وقد اتخذ الإمام العسكري (ع) موقفاً آخر يمهد فيه للغيبة عندما احتجب بنفسه عن الناس ، إلا عن خاصة أصحابه وأوكل مهمة تبليغ تعليماته وأحكامه بواسطة عدد من خاصته وذلك بأسلوب المكاتبات والتوقيعات ، ممهداً بذلك إلى نفس الأسلوب الذي سوف يسير عليه ابنه المهدي (ع) في غيبته الصغرى وهو في احتجابه وإيصاله للتعليمات .

وقد يبدو الأمر غريباً مفاجئاً للناس لو حدث هذا بدون مسبقات وممهدات كهذه . ومن هنا كان أسلوب الإمام العسكري ، منهجاً خاصاً في تهيئة ذهنيات الأمة وتوعيتها لكي تتقبل هذا الأسلوب وتستسيغه من دون استغراب ومضاعفات غير محمودة .

وكان قد بدأ التحضير والتخطيط لهذه الفكرة ـ بشكل بسيط ـ أيام الإمام الهادي (ع) عندما احتجب عن كثير من مواليه وأخذ يراسلهم عن طريق الكتب والتوقيعات [2] ليعود شيعته على هذا المسلك بشكل متدرج بطيء موافقاً بذلك الفهم العام لدى الناس .

وفعلاً اعتاد أصحابه ومواليه الإتصال به والسؤال منه بطريق المراسلة والكتابة » [3] .

---

(١) نفس المصدر ص ٥٢٧ .

(٢) إثبات الوصية ص ٢٦٢ .

(٣) الإرشاد ٣٢٣ وكشف الغمة ج ٣ ص ٢٠٧ .

وكذلك نظام الوكلاء الذي اتبعه الإمام العسكري مع قواعده الشعبية كان أسلوباً آخر من أساليب التمهيد لفكرة الغيبة .

وكان الشيعة إذا حملوا الأموال من الحقوق الواجبة عليهم إلى الإمام (ع) نفذوا إلى ـ عثمان بن سعيد العمري السمان ـ الذي كان يتجر بالسمن تغطية لنشاطه في مصلحة الإمام (ع) فكان يجعل الأموال التي يتسلمها في جراب السمن وزقاقه ويحمله إلى الإمام (ع) بعيداً عن أنظار الحاكمين ، لأنهم إذا عرفوا أمره صادروه [1] .

وسنجد في البحث المقبل أن نظام الإحتجاب والوكلاء ، هو الأسلوب نفسه الذي يكون ساري المفعول في غيبة الإمام الصغرى ، بعد أن اعتاد الناس عليه في مسلك الإمامين العسكريين عليهما السلام وخاصة الإمام الحسن العسكري (ع) وهنا ما سنوضحه في البحث التالي إن شاء الله .

* * *

(١) غيبة الشيخ الطوسي ص ٢١٥ ـ ٢١٩ .

الامام المهدي (ع)

تمهيد : ـ

ـ تعرفنا فيما سبق ـ على خطة العباسيين وسياستهم تجاه أئمة أهل البيت (ع) ، بصهر الإمام في جهازهم الحاكم تمهيداً لتمييع أطروحتهم وعزلهم عن قواعدهم الشعبية ، وكان الواحد منهم يعاني القهر والخوف والفقر والعذاب ، من سياستهم الغاشمة .

وقد أجبرتهم سياسة البطش والإضطهاد إلى النشاط السري المحاط بالكتمان والرمزية قولاً وعملاً ، والإنتقال من مرحلة المد والتوسع الأفقي إلى مرحلة الحفاظ على البقاء ، ومحاولة الإتصال المباشر بأصحابهم الخلص ، بعد أن يختبروا فيهم قوة الإرادة والصمود أمام ضغط الأحداث الصعبة ، وهي مرحلة كانت تستهدف إذكاء روح الجذوة والأمل الثوريين ـ من خلال فكرة المهدي المنتظر ـ في نفوس الشيعة ومتابعة دور المعارضة الصامدة أمام هجمات الإنحراف ضد الخط الرسالي ، بالشكل الذي لا يتنافى ومرونتهم في العمل السياسي والتحريضي تجاه الدولة .

هذا الدور الفاعل والايجابي ، هو الذي دفع السلطات إلى الحذر الدائم والتوجس المستمر ، من كل قول أو فعل يصدر عن الإمام (ع) أو عن أحد أصحابه ، فكانت السجون ووسائل القهر الإرهابية ، وسيلة من وسائلهم لتشتيت القواعد الموالية للإمام (ع) ومنعها من الإتصال بقيادتها المتمثلة في الإمام (ع) .

وكثيراً ما كان الأمر ينتهي بهم إلى السجون ، وإلقاء القبض على الإمام

نفسه ، ليبقى في غياهب السجون مدة ، ثم يخرج ليسجن ثانية .

ومع هذا فقد استطاع الإمامان الهادي والعسكري (ع) بالرغم من سياسة المضايقة والمراقبة الدائمة ، أن يخفيا نشاطهما ، ويسترا الأموال والتعاليم التي تبلغ من قبلهما .

وفي هذا الجو المشحون بالحقد والضغينة على حركة أئمة أهل البيت (ع) كانت الدولة العباسية ، تدرك واجبها تجاه الأفكار التي كانت تملأ ذهنيات المسلمين عامة والموالين خاصة بالاعتقاد بوجود ـ المهدي (ع) ـ لتواتر أخباره منذ زمن النبي (ص) إلى زمان الإمام العسكري (ع) .

والسلطات كانت تعلم على وجه الإجمال ، أن زمان المهدي قد أوشك على الوجود ، ولكنهم يجهلون تاريخ ميلاده لمدى السرية التامة التي أحيطت بولادته (ع) .

ومن هنا جاء اهتمام الجهاز الحاكم بإصدار أوامره لمراقبة الحوامل عند وفاة الإمام العسكري ظناً منهم بوجود المهدي (ع) جنيناً في رحم إحدى نسائه .

في ظروف ولادة الامام المهدي (ع)

تزوج الإمام العسكري ـ أمة مملوكة ـ جلبت بواسطة الفتح الإسلامي وكانت تسمى بأسماء مختلفة من قبل الإمام (ع) [1] . وقد عاشت تخطيطاً خاصاً في تبديل اسمها بين آونة وأخرى ! وذلك لمعرفة العسكري (ع) بأنها ستصبح أماً للمهدي (ع) وسترى المطاردة والإضطهاد من قبل السلطات وستعيش في السجن مدة من الزمن .

ومن هنا جاء تخطيط الإمام (ع) تجاهها إمعاناً في الحذر وزيادة في التوقي

(١) راجع أسماءها في كتاب تاريخ الغيبة للصدر وغيرها من المعلومات المفصلة فقد اعتمدنا في هذا البحث على كثير من آرائه .

عليها وعلى ابنها ، ولأجل أن يلتبس أمرها في ذهن السلطات ، إن صاحبة أيٍّ من هذه الأسماء هي المسجونة ، وأي منها هي الحامل وأي منها هي الوالدة ، حيث يكون المفهوم لدى السلطات كون الأسماء لنساء كثيرات ويغفلون عن احتمال تعددها في شخص امرأة واحدة ..

ولادته

ولد الإمام المهدي (ع) من يوم النصف من شعبان عام ٢٥٥ هـ [1] وعاصر من حياة أبيه خمس سنوات ، وانصب نشاط أبيه (ع) الرئيسي خلال ذلك على أمرين مهمين : ـ

أحدهما : الحذر التام من السلطات الحاكمة .

ثانيهما : التعرّف إلى خواص أبيه (ع) .

وتولى الإمام المهدي (ع) مسؤولية الإمامة بعد وفاة أبيه (ع) وهو ابن خمس سنين سنة ٢٦٠ هـ ، وصغر سن الإمام ليس ظاهرة غريبة ـ كما هو مبين في بحثنا عن الجواد (ع) ـ فالإمامة هبة يمنحها الله تعالى من يشاء من عباده ، فمن تتوفر فيه عناصر الإمامة وشروطها شأنها في ذلك شأن النبوة ، فقد أوتي النبي يحيى (ع) الحكم صبياً » آية ١٢ من سورة مريم .

مسؤولية الإمام العسكري (ع) تجاه ولده

بعد ولادة الإمام المهدي (ع) واجه الإمام الأب وظيفتين مزدوجتين تجاه ولده (ع) :

١ ـ إثبات وجود المهدي (ع) تجاه التاريخ وتجاه الأمة الإسلامية وتجاه

---

(١) الإرشاد ٣٢٦ وأعلام الورى ٢٩٣ .

قواعده ومواليه ، مع الحذر من السلطة ، دون أن يبلغ به الحذر والكتمان إلى إخفائه الكامل ، بحيث يؤدي إلى انطماس اسمه وإنكار وجوده ، وإقامة الحجة في وجوده على الموالين خاصة ، والمسلمين عامة ، داحضاً بها المزاعم التي تزعم بعدم وجوده أو أنه ليس للإمام العسكري من ولد .

٢ ـ التخطيط لحماية المهدي (ع) من محاولات قتله ومطاردته من قبل السلطات ، التي أبدت اهتمامها الشديد والمركز ، ومحاولاتها المستميتة للقضاء عليه وتجنيد كل قواها وعيونها من أجله لأن ولادته (ع) تعني الحكم على نظامهم بالموت المحتم وفضح مخططاتهم وانحرافهم عن أوامر الإسلام .

ومما زاد في دقة وحرج موقف الإمام العسكري في تحقيقه لهذين الهدفين أو الوظيفتين المزدوجتين تجاه ولده (ع) تعرضه لأضواء السلطة ومراقبتهم الدائمة له ، وباعتباره القائد الإسلامي لقواعد شعبية واسعة من المسلمين ، وتمثيله لجبهة الرفض المعارضة والمناوئة للسلطة الحاكمة آنذاك .

ومن هنا كان تخطيط الإمام (ع) في اجتياز هذا المأزق بسلام هو ترك الإعلان أو الكشف عن ولادة ابنه (ع) وكأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق « حتى أن الخادم في بيت الإمام العسكري لم ينتبه إلى شيء ولم يفهم شيئاً » [1] .

ومما ساعد الإمام العسكري وأعانه على نجاح خطة اخفاء الولادة احتجابه عن أصحابه ومواليه إلا بواسطة المراسلات ، وتعود قواعده ومواليه على فكرة الإحتجاب والإتصال بقيادة الإمام عن طريق نظام الوكلاء وتسلسله الهرمي ، وانشغال الدولة وأجهزتها بحركة صاحب الزنج عام ٢٥٥ هـ .

وإلى هنا استطاع العسكري (ع) أن يضمن حماية ولده (ع) من بطش السلطة وكل من يدور في فلكهم .

---

(١) تاريخ الغيبة للصدر نقلاً عن كتاب ص ٢٧٣ إكمال الدين مخطوط .

وكان الإمام (ع) يلزم كل من يطلع على أمر ولادة ولده المهدي (ع) بوجوب الكتمان. وقد كتب الإمام العسكري (ع) لأحمد بن اسحاق: «وُلِدَ لنا مولود، فليكن عندك مستوراً وعن جميع الناس مكتوماً» [1]، والتأكيد على حرمة إطلاع أحدٍ على اسمه (ع) وكان عثمان بن سعيد العمري يقول لمن يسأل عن اسم الإمام (ع) «إياك أن تبحث عن هذا» [2].

وكان الإمام (ع) يحتاط كثيراً من التصريح باسمه لأحد ويكتفي بالقول لهم: «هذا صاحبكم» ويقتصر في التصريح باسمه على أقل القليل من أصحابه.

وكان يكفي - في علم الإمام - هذا القدر من الإطلاع وإن كان الإسم مجهولاً، بل يكفيهم الإيمان بوجود إمامٍ يرجعون إليه في الأحكام والمشاكل، ولا يتوقف ذلك على معرفة اسمه بعد معرفة شخصه وإمكان الإتصال به عن طريق سفرائه.

ولعل أوسع إعلان قام به العسكري (ع) بين أصحابه عن ولادة ابنه من بعده، وذلك قبيل وفاته بأيام، وقد كان مجلسه غاصاً بأربعين من أصحابه ومخلصيه منهم محمد بن عثمان ومعاوية بن حكيم ومحمد بن أيوب ... يعرض عليهم ابنه (ع) ويقول لهم «هذا صاحبكم بعدي وخليفتي عليكم ... وهو القائم الذي تُمد إليه الأعناق بالإنتظار، فإذا امتلأت الأرض جوراً وظلماً خرج فملأها قسطاً وعدلاً» [3].

جعفر بن علي يخسر الدولة

جعفر هو ابن الإمام علي الهادي (ع) تترجم لنا كتب التاريخ حياته بالشكل الآتي «ترعرع وشب على الإنحراف عن تعالم الإسلام، واتخذ طريق اللهو وشرب

(١) تاريخ الغيبة للصدر نقلاً عن إكمال الدين مخطوط ص ٢٧٦.
(٢) نفس المصدر ص ٢٧٨.
(٣) تاريخ الغيبة للصدر ص ٢٨٣ نقلاً عن إكمال الدين.

الخمر والمجون ، وكان والده (ع) يأمر أصحابه بالإبتعاد عن جعفر وعدم مخالطته ، ويقول فيه « انه مني بمنزلة نمرود من نوح الذي قال الله عز وجل فيه : قال نوح : إن ابني من أهلي . قال الله : يا نوح انه ليس من أهلك انه عملٌ غير صالح » [1] .

ويستفاد من الأخبار أن لجعفر ثلاث نشاطات منحرفة مضادة وقف معارضاً بها الإمام المهدي (ع) وهي : ـ

١ ـ ادعاؤه بالإمامة بعد أخيه الإمام العسكري (ع) .

٢ ـ انكاره لوجود أي وريث شرعي للإمام العسكري (ع) . وادعاؤه باستحقاقه التركة .

٣ ـ وعندما احتج الإمام المهدي ، أوعز إلى السلطات بإحتمال وجوده ، مما جعلها تشن حملة اعتقالات ومطاردات وتفتيش واسعة النطاق ، انتهت باضطهاد الموجودين من عائلة الإمام (ع) ولكن بالتالي خاب أملهم بالعثور على الإمام المهدي (ع) .

ومن هنا نرى أن الخليفة ـ المعتمد ـ عندما أخبره جعفر بوجود المهدي واختفائه ، أرسل على الفور رجاله وخيله إلى دار الإمام الحسن العسكري (ع) لتفتيشه ، وبعد التفتيش الدقيق لكل مرافق البيت . لم يجدوا شيئاً ، وعند رجوعهم حاولوا نهب وسلب كل ما وقعت عليه أعينهم من متاع الدار ، وبينما هم منشغلون بالنهب والسلب ، تحين المهدي (ع) الفرصة ليخرج من الباب وهو ابن ست سنين ، فلم يره أحدٌ منهم حتى اختفى » [2] .

« وكانوا لا يعرفون بالتحديد عمن يبحثون وأي شخص سوف يجدون ،

---

(١) تاريخ سامراء ج ٢ ص ٢٥١ نقلاً عن كتاب مدينة المعاجز .

(٢) الخرايج والجرايح ص ١٦٤ .

ففكرتهم عن الإمام غامضة ، فلم يكن مستبعداً أنهم لم يلتفتوا وهم في نشوة السلب والنهب إلى وجود صبي يخرج من بين أيديهم بكل بساطة وهدوء ودون أن يثير أي اهتمام .

وبعد الإنتهاء ، ألقوا القبض على الجارية ـ صقيل ـ أم المهدي (ع) وأخذوها للتحقيق إلى الجهات المسؤولة للإستفسار عن الصبي وجمع المعلومات منها ، فأنكرته وادعت أنها لم تلد ، وأصرت أن لا تبوح بالسر ، وأبقت ولدها محجوباً مصوناً من الاعتداء .

وقد تحملت أم المهدي (ع) وسائل القهر والتعذيب بكل اخلاص وصمود وحاولت أن توهم سلطات التحقيق ، فتدعي « أن بها حملاً » ويقع كلامها في ذهن الحكام موقعاً محتملاً ، ولربما ظنوا في أنفسهم بأن هذا الحمل الذي تدعيه هو المهدي المطلوب ، وخصوصاً أن الدولة كانت تنتظر ولادة المهدي من أيام الإمام العسكري ، وها قد انتهت حياته ولم تر له ولداً ، وحيث أن الدولة لم تتأكد من ولادته فحسبهم الآن أن يراقبوا هذه الجارية إلى حين ولادتها ويتدبروا بعد ذلك أمر وليدها ويتخلصوا منه .

وقد أسرعت السلطات إلى وضع الجارية تحت المراقبة الشديدة والمستمرة ، وجعلوها بين نساء المعتمد والموفق ونساء القاضي ابن أبي الشوارب ، ولا زالوا يتعاهدون أمرها .. حتى طالت المدة ولم يحصلوا على شيء وبقيت الجارية محتجزة على هذه الحالة أكثر من عامين ، حتى انشغلت الدولة بمشاكل وحروب في عدة جبهات أنستهم أمرَ هذه الجارية وتمكنت بذلك من الخروج منهم بسلام » [1] .

الغيبة الصغرى

تبدأ من عام ٢٦٠ هـ إلى عام ٣٢٩ هـ .

---

(١) أنظر الكامل ج ٦ ص ١٥ وكذلك تاريخ الطبري .

إن غيبة الإمام (ع) لا يمكن أن نفسرها « بابتعاد الإمام المهدي (ع) عن المجتمع ومشكلاته المعقدة ، بل كان المهدي (ع) قائداً فذاً يعيش بشعوره المرهف آلام وآمال أمته وقواعده الشعبية ويتجاوب معهم بالفكر والعمل ، وذلك حسب مقتضيات الظروف والمصلحة الإسلامية .

وكان الإمام المهدي (ع) يتصل مباشرة ببعض الخاصة من أصحابه ، ويوصيهم بتبليغ ما شاهدوه إلى الناس ، مع إيصائهم بكتمان المكان وغير ذلك من الخصوصيات التي قد تدل عليه وتيسر للسلطات طريق الوصول إليه ، وكان (ع) يجيب على أغلب المسائل التي تصله وذلك عن طريق وكلائه وسفرائه المعتمدين لهذا العمل ، وكان من المتعذر على غير السفراء الوصول إليه ، إلا من أحرز فيه الإخلاص وعدم افشاء السر ، وكان يوصيهم بحرمة التصريح باسمه بل يتم التصريح باسمه بأسماء مستعارة تشير إليه دون أن تعينه ، كالقائم ، والغريم ، والحجة ، وصاحب الزمان ونحو ذلك ، فإن السلطات « إن وقفوا على الإسم أذاعوه وإن وقفوا على المكان دلوا عليه »

وكان الإمام (ع) يغير مكانه بين آونة وأخرى دون أن يلفت إلى ذلك الأنظار .

مطاردة السلطات للامام (ع)

كان القبض على الإمام (ع) أحد أهداف الدولة الكبرى ، لأنها تعلم أن وجود الإمام (ع) معناه تهديد لسلامة حكمهم ، ومن هنا جاءت محاولاتهم المستميتة لتحصين دولتهم ضد خطره ، وتجريد الحملات للقبض عليه ، وقد جردت السلطات ثلاث حملات إرهابية للقبض عليه والأمر بكبس داره وتفتيشها تفتيشاً دقيقاً .

وكان التجسس المستمر والحذر البالغ من قبل السلطات سياسية متبعة من قبل كل الحكام لكشف مكان اختفاء الإمام (ع) والقبض عليه .

ولكن الأعوام التسعة عشر من نشاط السفراء ، ومحاولات التجسس الدائبة أسفرت عن شيء جديد وهو ثبوت فكرة السفارة لديها ونشاطاتها المريبة في قبض المال بالوكالة لصالح الإمام (ع) ليس هذا فقط بل هناك قيادة ترعى وتشرف على القواعد الشعبية وتستلم الأموال منها .

وعلى ضوء هذا الاكتشاف الخطير رأى المعتضد عند توليه الخلافة أن أهم واجباته في الحكم ، أن يبادر فوراً إلى تجديد الحملات لمحاولة القبض على الإمام (ع) .

وقد وضع عملاء الدولة وجواسيسها مخططاً كاملاً تعلم المعتضد بدار الإمام (ع) واحتمال اختفائه هناك ، وقد بعث المعتضد على ثلاثة نفر ، وأمرهم بالخروج إلى سامراء مخففين لا يكون معهم قليل ولا كثير ، إلا أن يركب كل واحدٍ فرساً ويجنب معه آخر ، ووصف لهم محلة وداراً وقال : إذا أتيتموها تجدون على الباب خادماً أسوداً فاكبسوا الدار ، ومن رأيتم فيها فأتوني برأسه » [1] .

ولم يكشف المعتضد لهؤلاء الثلاثة مهمتهم الحقيقية ودون أن يعرفهم بأنهم مكلفون بإلقاء القبض على الإمام المهدي حفاظاً على سمعته وسمعة الدولة ، وخوفاً من تسرب الخبر إلى الناس فيكون مالا يحمد للمعتضد عقباه ، فإن الأمر أدق وأهم من أن يعرفه الناس .

وبدأت الحملة كما أمر المعتضد ، وتوجهوا إلى سامراء وبحثوا عن الدار فكبسوها وجاسوا خلالها ، وكان الإمام (ع) فيها ولكنهم لم يلتفتوا إليه ، ونجا منهم ـ بمعجزة ـ يرويها لنا التاريخ بشيء من التفصيل [2] .

وظن المعتضد أن هذه الحملة فشلت لقلة عددها وسرية تنفيذها ومن هنا

---

(١) الغيبة للطوسي ١٤٩ البحار ج ١٢ ص ٨ .

(٢) الخرايج والجرايح ص ٦٧ .

نراه يجرد حملة أخرى أكبر

يروي صاحب البحار نص الرواية «ثم بعثوا عسكراً أكثر ، فلما دخلوا الدار سمعوا من السرداب قراءة القرآن ، فاجتمعوا على بابه وحفظوه حتى لا يصعد ولا يخرج ، وأميرهم قائم حتى يصل العسكر كله ، فخرج من السكة التي على باب السرداب ومرَّ عليهم ، فلما غاب ، قال الأمير انزلوا عليه ، فقال : أليس هو مرَّ عليك ، فقال ما رأيت ، ولم تركتموه ، قالوا : إنا حسبنا أنك تراه» .

ومن طريف حال هؤلاء الجلاوزة ، أنهم لم يبادروا للقبض عليه بل وقفوا على باب السرداب يحافظون عليه ، فهم يخافون مواجهته (ع) ويحتاجون إلى مدد أكبر وعدد أكثر فهم منتظرون لوصول المدد من بغداد إلى سامراء ، وفي هذه الأثناء من الترقب ، استغل الإمام (ع) أروع لحظة من لحظات ذلك الحصار ، لحظة اقترنت بالدقة والتوقيت والضبط في التدبير والعناية الإلهية ، انها لحظة غفلة قائد الحملة عن الترصد والإنتباه ، لحظة لم يأت فيه المدد ، ولم تصدر الأوامر بعد لإقتحام المكان .

ولو كان الإمام (ع) قد تأخر لحظات أخرى لقبضوا عليه لا محالة .

* * *

الامام (ع) والتنظيم الهرمي

يتبين للباحث من مجموع الروايات والنصوص التأريخية أن الإمام (ع) اعتمد تنظيماً هرمياً في ارتباطاته واتصالاته بقواعده ومواليه ، فكان عليه السلام في قمة الهرم قائداً يمارس عمله بسرية وخفاء ، يصدر الأوامر والتعليمات إلى سفرائه مباشرة وهم بمثابة أعضاء الإرتباط بينه وبين الوكلاء الذين انتشروا في المناطق البعيدة ، ليكونوا همزة الوصل بين السفراء والقواعد الشعبية الواسعة .

وكان الإمام (ع) يعمد إلى إحاطة اتصاله بالوكلاء بالغموض المطلق وكان ذلك الاتصال مجهولاً تماماً لدى كل إنسان مهما كان خاصاً ومقرباً ما عدا السفير نفسه الذي يضطلع بمهمة الإتصال المباشر ، ومن الممكن القول بأن السفير كان منهياً عن التصريح به أساساً لكل أحد .

وكان اختيار الإمام (ع) لأشخاص السفارة وإيكال الوكالة الخاصة لهم ، تقوم على عمق إخلاصهم ، وقوة تحملهم للتعذيب فيما إذا وقعوا تحت أيدي السلطة ، ولم يشترط الإمام (ع) أن يكون السفير هو الأعمق فقهاً أو الأوسع ثقافة ، لأن السفارة لا تعني إلا التوسط في التبليغ ، ومن هنا جاز إسنادها إلى المفضول مع وجود الأفضل ، حرصاً على الإخلاص العميق وقوة الإرادة .

ومن هنا جاء البعض يعترض على ـ أبي سهل النوبختي ـ فقيل له : كيف صار هذا الأمر ـ أي السفارة ـ إلى الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح دونك ؟ فقال : هم أعلم وما اختاروا ، ولكن أنا رجلٌ ألقى الخصوم وأناظرهم ، ولو علمت بمكانه كما علم أبو القاسم وضغطتني الحجة ، لعلي كنت أدل على مكانه ، وأبو القاسم فلو كان الحجة تحت ذيله وقرض ذيله بالمقاريض ما كشف الذيل عنه » [1] .

---

(١) غيبة الطوسي ٢٤٠ والبحار ج ١٣ ص ٩٨ .

وكانت مسؤولية السفراء في هذا التنظيم عامة وشاملة ، على حين نرى مسؤولية الوكلاء خاصة ، تشمل منطقتهم فقط ، ومهمة الوكيل في التنظيم ، تسهيل عمل السفير وتوسيعه ، خصوصاً أن ظروف العمل السري تمنع حرية الحركة والإتصال المباشر بالقواعد الشعبية المنتشرة في مختلف البلدان الإسلامية ، فيكون لعمل الوكلاء ونشاطهم أكبر الأثر في إيصال التعاليم والتوجيهات إلى أوسع مقدار ممكن من القواعد الشعبية الموالية .

فضلاً على ذلك أن فكرة اعتماد نظام الوكلاء في التنظيم الهرمي ، تساهم في إضفاء طابع التكتم والسرية على اسم وشخص السفير فالفرد المنتمي للقواعد الشعبية العارف بفكرة ـ السفارة ـ غاية ما يستطيعه هو الإتصال بأحد الوكلاء من دون معرفة اسم السفير أو عمله أو مكانه » [1] .

وكانت الأموال والحقوق الشرعية تصل الإمام (ع) ليعاد توزيعها بواسطة السفراء ثم الوكلاء لتصرف في مواضعها .

وهذه الأموال منها ما يصل الإمام (ع) مباشرة ، ومنها ما يصرفه الوكيل وفقاً للقواعد والأحكام الإسلامية في صرف الحقوق .

ومن مهمة السفراء أيضاً أخذ الأسئلة وإيصالها من وإلى الإمام (ع) ، تندرج في ذلك الأسئلة الفقهية والعقائدية وغيرها التي كانت توجه للإمام (ع) .

كل شيء عن السفراء الاربعة

السفراء الأربعة هم الذين تولوا الوكالة الخاصة عن الإمام (ع) خلال غيبته الصغرى وهم على التوالي وحسب تسلسلهم التاريخي :

١ ـ عثمان بن سعيد العمري . ٢ ـ محمد بن عثمان العمري .

---

(١) منتهى المقال ج ١ ص ٢٤١ .

٣ ــ الحسين بن روح النوبختي .   ٤ ــ علي بن محمد السّمري [١] .

وبانتهائهم ينتهي عهد الغيبة الصغرى عام ٣٢٩ هـ . ويبدأ بعدها عهد الغيبة الكبرى .

وقد اضطلعوا بمهمة قيادة قواعد الإمام (ع) من الناحية الفكرية والسلوكية ، طبقاً لتعليمات الإمام (ع) والتوسط بينه وبينها في إيصال التبليغات وإخراج التوقيعات ، وحل مشاكلها وتذليل العقبات التي تصادفها

وقد اعتمدت تحركاتهم ونشاطاتهم السرية التامة دون أن يثيروا السلطات عليهم ، ولكي تنفسح لهم أكبر الفرص وأوسع المجالات للعمل تحت قيادة الإمام (ع) دون أن يقعوا تحت طائلة المطاردة والتنكيل .

ولعل الدوافع التي دفعت السفراء إلى هذا الأسلوب من العمل هي الأسباب التالية : ــ

١ ــ خوف السلطة من العلويين ، ومحاولة مطاردة واضطهاد عدد كبير من قادتهم وكبرائهم ، ويكفينا ذلك العدد الضخم من العلويين الذين صرعوا على يد السلطات ، وقد ضبط لنا أسماءهم أبو الفرج في المقاتل » [٣]

ويقول الطوسي في غيبته « إن سيف المعتضد كان يقطر دماً [٤] ، وكانت تلك الفترة « مليئة بالظلم والجور وسفك الدماء » [٥]

٢ ــ الجو القلق والمضطرب الذي عاشته قواعد الإمام الشعبية ، والسفراء

---

(١) راجع تراجم حياتهم في كتاب الغيبة للطوسي .
(٢) الغيبة للطوسي ص ١٨٦ والإرشاد ص ٣٣١ ــ ٣٣٢ .
(٣) المقاتل للأصفهاني .
(٤) الغيبة للطوسي ص ١٧٩ .
(٥) عقيدة الشيعة ص ٢٥٧ لرونلدسن .

الأربعة بنحو خاص ، إلى درجة أن عثمان بن سعيد السفير الأول للإمام (ع) كان ينقل المال في جراب من الدهن ، لشعوره بضغط السلطات ومطاردتهم له ، ولما ينتظره من العقاب الصارم لو عرفت به الدولة أو حصلت تجاه على مستمسك خطير .

٣ ـ المطاردة الجادة والدائبة للإمام المهدي (ع) ومحاولة إلقاء القبض عليه ، وحملات التفتيش المنظمة لداره ، فإذا كانت الدولة تقف من الإمام (ع) هذا الموقف فكيف تقف تجاه قواعده ومواليه ؟!.

وكان السفراء هم حلقة الوصل في قبض وتوزيع الأموال التي كان الموالون يحملونها إلى الإمام (ع) من أطراف البلاد الإسلامية وكانت الوفود تفد للسفير تحمل معها الأموال والأسئلة ، تسلم السفير الأموال وتستقي منه أجوبة المسائل وحل المشكلات .

وظاهر بعض الروايات ، أن الأموال كانت تحمل في السنوات الأولى من الغيبة الصغرى إلى سامراء حيث يكون من يقبضها هناك ويسلمها للإمام المهدي (ع) وذلك بدلالة السفير نفسه ، كما فعل أبو جعفر العمري مع الدينوري [١] . ثم انقطع ذلك ، واستمر السفير على قبض المال بنفسه مع إعطاء الوصل به [٢] .

وقبض الأموال وتوزيعها كان يقع سراً بعيداً عن أعين الدولة ورقابتها ولا يصرح به إلا نادراً ، وكان التوزيع ـ في الأعم الأغلب ـ يأخذ الأسلوب التجاري أي يعطي للفرد بصفته دائناً مثلاً ، دون أن يثير هذا السلوك شك السلطات .

وكثيراً ما كانوا يواجهون الوشايات بتخطيط رائع ومضاد ، ومن ذلك وصول أخبار إلى مسامع عبد الله بن سليمان الوزير بوجود وكلاء للمهدي (ع) في

---

(١) البحار ج ١٣ ص ٧٩ .

(٢) الإرشاد ص ٣٣٥ .

بغداد وغيرها من المناطق يعملون لمصالح الإمام (ع) وجاء من ينصح الوزير بأن يرسل لكل وكيل شخصاً ويدعي بأن له مالاً يريد أن يدفعه للإمام (ع) فمن قبض من الوكلاء شيئاً قامت الحجة عليه ، ويؤخذ عند ذلك بالجرم المشهود ، وفعلاً قام الوزير بهذه المحاولة لكشف وكلاء الإمام (ع) إلا أن تعاليم الإمام كانت قد سبقته إلى الوكلاء ، فما كان منهم إلا التنصل من الوكالة وتجاهل أمرها أمام عملاء الدولة وبذلك أحبطت مؤامرة الوزير ونجا الوكلاء من براثـــن السلطات » (1) .

ومن النشاطات الأخرى التي مارسها السفراء ، تصديهم لحل المشاكل العلمية والدخول في المناقشات العقائدية إما توجيهاً لقواعدهم الشعبية أو من أجل الاحتجاج ضد الشبهات والدفاع عن الإسلام (2) .

اهداف السفـــارة

هناك هدفان ترمي إليها السفارة عن الإمام (ع) هي : —

١ ـ تهيئة أذهان الأمة وتوعيتها لمفهوم ـ الغيبة الكبرى ـ وتعويد الناس تدريجياً على الإحتجاب ، وعدم مفاجأتهم بالغيبة دون سابق مقدمات ، ولربما أدى الإحتجاب المفاجئ إلى الإنكار المطلق لوجود المهدي (ع) .

ومن هنا جاء تخطيط الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام بالاختفاء التدريجي عن وسط الأمة ، وضاعفه الإمام العسكري على نفسه ، كما أن الإمام المهدي نفسه تدرج في عمق الإحتجاب كما بينا ، وكانت فترة السفارة أيضاً إحدى الفترات المرحلية لتهيئة الأذهان بشكلها المتدرج .

٢ ـ قيام السفارة برعاية شؤون القواعد الشعبية الموالية للإمام (ع) والتوسط

---

(1) أعلام الورى ٤٢١ .

(2) غيبة الشيخ الطوسي ٢٣٩ والإحتجاج ٢٨٨ .

بينها ، لتمضية شؤونها ومصالحها بعد اختفاء الإمام عن مسرح الحياة ـ بغيبته الكبرى ـ .

وقد قام السفراء بمسؤوليتهم في هذا الجانب خير قيام حيث اضطلعوا بحفظ مصالح القواعد الشعبية ، ومن خلال ظروف اجتماعية وسياسية بالغة التعقيد .

وقد دامت السفارة عن الإمام المهدي تسعاً وستين عاماً وستة أشهر وخمسة عشر يوماً ـ وهي نفس فترة الغيبة الصغرى ـ شغل منها السفير الأول عثمان بن سعيد حوالى خمس سنوات ، والسفير الثاني محمد بن عثمان حوالى الأربعين عاماً ، والثالث وهو الحسين بن روح إحدى وعشرين عاماً ، وخلفه السفير الرابع علي بن محمد السمري ، حيث بقي في السفارة ثلاث سنين . وقد انتهت الغيبة الصغرى عام ٣٢٩ وعمر الإمام (ع) أربع وسبعون عاماً ، قضى أربع سنين ونصف منها في حياة أبيه (ع) وتسعة وستين عاماً ونصف وخمسة عشر يوماً في الغيبة الصغرى ، ثم بدأت الغيبة الكبرى حيث يأذن الله تعالى له بالخروج لكي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً .

* * *

الخاتمة

خلاصة البحث : ـ

نستخلص من البحث : «أن هناك دوراً مشتركاً في تاريخ الأئمة (ع) وموقفاً عاماً وقفوه في خضم الأحداث والمشاكل التي اكتنفت الرسالة ، بعد انحراف التجربة وإقصائهم عن مركزهم القيادي في زعامتها» [1]

وعرفنا من خلال دراستنا لتاريخهم العظيم أن الأسلوب الرسالي في التغيير ليس أسلوباً جاهزاً ، نلغي وعي عقولنا تجاهه وإنما نثري تجاربنا وأساليبنا العملية من معطيات تجاربهم العملية ـ عليهم السلام ـ لأن أساليب العمل تتنوع دائماً حسب اختلاف الواقع الموضوعي الذي تعيشه الدعوة وتتكيف لأجوائه .

ومن هنا كان لزاماً على الدعوات التغييرية أن تدرك ما حولها من مواقف وظروف موضوعية ، وتضعها موضع التخطيط المدروس من أساليبها العملية ، والإهتداء بتجارب عمل الأئمة (ع) دون الجمود أو الوقوف على تجربة بعينها ، متجاوزين بذلك الواقع الموضوعي الذي نعيشه وما تفرضه علينا حاجتنا العملية للتغيير ، والإستفادة من كل أسلوب وما ينسجم وما نتبناه في طريق عملنا للتغيير الإسلامي الشامل .

وحاول البحث أن يبتعد عن تلك الأساليب المحنطة الجوفاء في المفاخرة

---

(١) دور الأئمة للصدر .

والتغني بمناقبية وفضائل الأئمة (ع) والتي اعتدنا أن نسمعها ونقرأها في كل آن مشوهة في كثير من الأحيان صور جهادهم وتخطيطهم الرائع .

بل إن البحث عمد إلى تلك الصور الجهادية التي ضمخوهابدمائهم الشريفة ، وكفاحهم الصابر التي تمثلت بطولات رائعة ، وتخطيطات عملية ناجحة .

ودراستنا الشاملة لأعمال أئمة أهل البيت (ع) دلتنا على حقيقة مهمة في مباشرة عملية التغيير ، هو فشل كل الأعمال الفردية المبعثرة والتي لا تتفق في خط تغييري واحد ، بل لا بد من صفوة داعية وواعية تهيء الأمة لمسيرة التغيير الإسلامي الكبير ، بعد أن تلاحظ واقعها الخارجي الذي تعيش فيه ، وتدرس ظروفه العقلية والفكرية والنفسية والإجتماعية وتضع كل ذلك في حسابها قبل أن تبدأ بالعمل .

أما تقيد عواطف الجماهير الملتهبة وتحويل الفكرة للأفراد لصفاتهم الشخصية ، دون العمل الشامل ، فهي بالضرورة من الأعمال الجزئية التي لا تحمل إلا بذور فشلها وسقوطها .

فعملية التغيير التي مارسها الأئمة (ع) ، لم تقم في يوم من الأيام على الجمع العددي الهائل المشحون بعواطف ومشاعر مهزوزة ، تلهبهم الخطابات ، وتمحصهم التجربة الصعبة بالإنهزام والإنكفاء عن التضحية وإنما لا بد للأعداد هذه من أن تجسد عمق الفكرة وأن تدك عواطفها بمفاهيم الرسالة حتى تعركها التضحية والإخلاص من أجل سيادة الفكرة ورفاه الإنسان ، لنيل رضوان الله تعالى .

ومن هنا كانت حاجتنا ملحة إلى أن نعيد النظر في أساليبنا العملية في الدعوة إلى الله ورسالته الخالدة .

النظرية الاسلامية وعلاقتها بأساليب العمل

ولا تعني دعوتنا إلى تغيير أساليب العمل وتجديدها بأننا ندعو في الوقت نفسه إلى تغيير وتجديد النظرية الإسلامية المنزلة من الله تعالى .

ولا بد من التمييز هنا بين النظرية الإسلامية وأساليب الدعوة إليها ، فالنظرية هي الإسلام وهو ثابت لا يتغير ولا يتجدد ولا يمكنه الافتراض في يوم من الأيام بأنه يحتاج إلى تغيير أو تجديد [1] ، لأنه الإسلام ـ كما يعتقد المسلمون ـ أشرف رسالات السماء ، وخاتم الأديان ، وقد ارتضاه الله تعالى ديناً ومنهجاً متكاملاً للإنسان في كل مكان وزمان .

فالإسلام على هذا الاعتبار (الإلهي) فوق الزمان والمكان ، فقد قدر الله تعالى لهذا الدين القدرة على الامتداد ما امتد المكان والزمان وهو صيغة ثابتة فوق التجديد والتغيير ، وهذه النظرية الثابتة في أساسها هي التي تحكم كل عوامل التغيير والتجديد ، ولا يمكن لعوامل التغيير والتجدد أن تحكم الإسلام ، بل الإسلام هو الذي يحكم على هذه العوامل بالتغيير والتجديد .

أما العمل والدعوة من أجل الإسلام ، فهو الذي يجب أن يتجدد ويتطور ويتطور ويتكيف حسب مقتضيات الظروف الزمانية والمكانية ، دون أن يتجه تفكيرنا وعملنا إلى ـ ما كان ـ ودون أن نفكر بأن يكون أفضل مما كان ، هذه النزعة المحافظة من أهم العوامل التي جعلتنا غير صالحين لمواصلة مسؤوليات التغيير لصالح الإسلام .

فأساليب العمل الدعوتي ، ترتبط دوماً وأبداً بالواقع الموضوعي المعاش وتخضع بالتالي لشروطه الخارجية ، فهي ترتبط وبشكل أدق بمنطقة العمل ، والأمة التي نريد أن نعمل في صفوفها ووسطها .

والأمة لا يمكن أن تثبت على حالة واحدة ، بحيث نتجه إليها بأسلوب عمل واحد لا يتغير ولا يتجدد .

---

(١) من النافع مراجعة كتاب (حصوننا مهددة من الداخل) إد محمد محمد حسين يبين مدى الجهود المبذولة من قبل الإستعمار في دعوته لتطوير الإسلام وتجديده ، لإضاعة معالمه الأساسية عندما تفلح دعوتهم المشبوهة .

فمعادلتنا إذن تقوم على أساس أن الأمة تتغير والإسلام لا يتغير ، والأمة اليوم ليست الأمة بالأمس بمستواها الفكري والأخلاقي وعلائقها النفسية والإجتماعية وأوضاعها الاقتصادية ، وفي كل ظروفها التفصيلية الأخرى .

وعليه فلا يجوز للداعية أن يتعامل مع الأمة اليوم كما يتعامل مع الأمة بالأمس ، بل عليه أن يأخذ في عين الاعتبار كافة الظروف والتغييرات التي تحيط بالأمة ، لأن مضمون تطوراتها وتغييراتها هو الذي يحدد جوهر التخطيط السليم للعمل منفتحة من خلاله على طاقات الأمة الخلاقة . ولا بد من التحرك من نزعة التمسك الحرفي بأساليب العمل والتي تجعلنا نعيش مع أمة قد مضى وقتها وانتهت بظروفها وملابساتها .

خطوط عريضة في أساليب العمل

إننا نعلم لكي نعمل ، لا أن ندرس العلم لكي نحفظه في صدورنا ، أو أن نجعل منه ترفاً عقلياً ، نثبت به جدارتنا على كسب العلوم ، الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كانوا عاملين قبل أن يكونوا علماء ، وهم علماء لكي يكونوا عاملين ، وليسوا عالمين من دون عمل .

ومن خلال هذه الحقيقة الواضحة ، نطرح بعض الأسئلة ونحاول الإجابة عليها :

ما هو العمل ؟ وكيف نعمل ؟ وما هي أساليب العمل ؟ وكيف نجددها مع روح العصر ومتغيراته السريعة ؟!.

قد يكون الجواب على هذه الأسئلة صعباً في بداية الأمر ، لأننا لا نملك ذلك الترويض الفكري ، والحس المرهف الذي يجعلنا أن نتفتح على إجابات صائبة لهذه الأسئلة .

ولكن قدرنا وواجبنا أن نفكر في تغيير أساليب العمل ونعمل دوماً على تطوير هذا السؤال :

ما هو الأسلوب الأفضل والأصح ؟!.

لا بد لنا ونحن نفكر بمحاولة الإجابة على هذا السؤال الخطير ، والبحث عن أساليب العمل التي ينبغي أن لا نفكر فيها بعقلية رياضية ويجب أن نضع حداً فاصلاً بين العقلية الرياضية والعقلية الإجتماعية التي تشكل المدخل الحقيقي للإجابة على السؤال المطروح .

ومن هنا نتعرف على صنفين من التفكير :ـ

التفكير الرياضي والتفكير الإجتماعي

ونعني بالتفكير الرياضي ، هو ذلك التفكير الذي لا يقبل حقيقة من الحقائق ، إلا بعد أن تزال كل نقاط ضعفه بالبرهان القوي الواضح ، الذي لا يقبل الشك أو الجدل فإذا كانت النتيجة الرياضية واضحة بعد التحليل على مستوى ٢+٢=٤ ، حينئذٍ تقبل هذه الحقيقة الرياضية ؛ أما إذا لم يقم البرهان الواضح القاطع على صحتها فلا يمكن قبولها كحقيقة رياضية قاطعة .

فالتفكير الرياضي بطبيعته علمٌ يقوم على الصرامة والحدية التي لا تقبل معها الجدل .

أما التفكير الإجتماعي : فهو تفكير يختلف تماماً عن التفكير الرياضي ومنطقه الصارم ، ففي مجال التفكير الإجتماعي ، لا يمكن أن نطلب فيه مثل ذلك البرهان الرياضي ،القاطع ونمثل لذلك هذا المثال :

عندما يراد استبدال كتاب دراسي بكتاب دراسي آخر ، لا يمكن أن نطالب في حالة ـ قيام الإقتناع ـ ببرهان رياضي يثبت بالبرهان القاطع ، إنه لو لم يدرس هذا الكتاب لوقع اجتماع النقيضين ـ كما يقول المناطقة ـ وأما إذا درِّس هذا الكتاب لم يقع اجتماع النقيضين .

مثل هذا البرهان الرياضي ، لا يمكن أن نستحضر قواعده الحدية عندما نريد مناقشة العمل الإجتماعي .

فالعمل الإجتماعي يقوم أساساً على « الحدس الإجتماعي » والذي نشأ بدوره من رصيد الخبرة والتجربة والإطلاع على ظروف العالم وملابساته .

فالعمل الإجتماعي ، هو دعوة للإنفتاح على العالم وظروفه ومعاناة الخبرة والتجربة فيها .

والتفكير بأساليب العمل ، لا يمكن أن تتم بنفس الطريقة التي نتوصل بها إلى حل مسألة رياضية معقدة ، فنغمض أعيننا ونجلس في الغرفة ونفكر في حلها ، وهي طبعاً الطريقة المفضلة في حل مسائل الرياضيات النظرية لأن القضايا الرياضية بطبيعتها تنبع من واقع الأمر لا من الخارج . والعمل الإجتماعي عادة يتكون ويتواجد من خلال التفاعل مع الناس ومن الإطلاع على الظروف العالمية وملابساتها ، والتجارب التي قام بها الآخرون وكذلك من خلال المقارنة بين أحوالنا وأحوال الآخرين .

وبهذه الطريقة يتكون لدينا الحدس الإجتماعي وتتكامل عناصره .

ولكي نتجه اتجاهاً سليماً في تفسيراتنا لأساليب العمل يلزمنا أن نتجاوز طريقة تفكيرنا الرياضي ، وأن نعتمد الحدس الإجتماعي ونفتش عن كيفية تكوين هذا الحدس في أذهاننا عن طريق تعميق خبراتنا وتجاربنا .

والله ولي التوفيق

الفهرس